ريجينا صنيفر

ألقيت السلاح

إمرأة في خضمّ الحرب اللبنانية

مدونة أبو عبدو

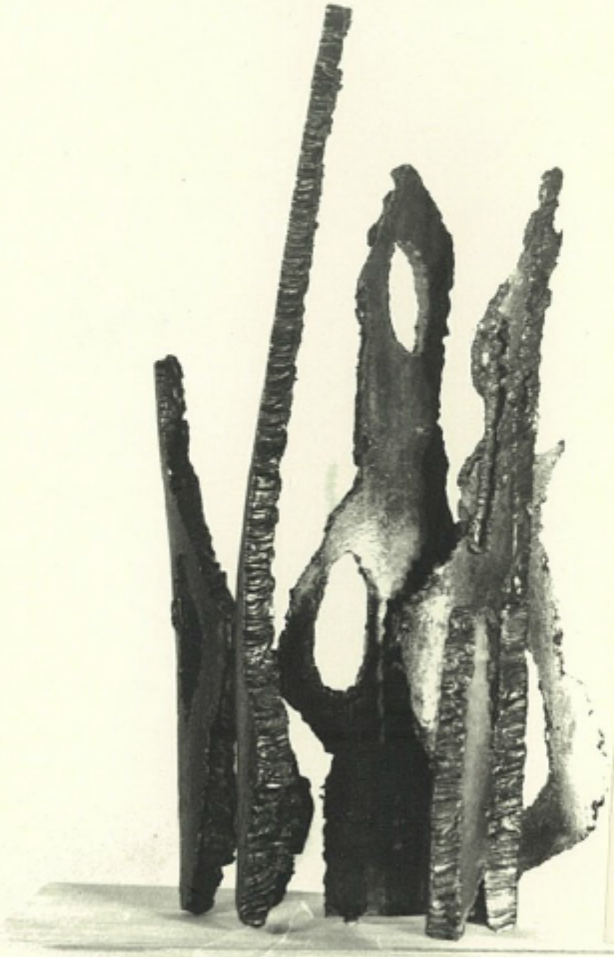

الفارابي

REGINA SNEIFER

J'ai déposé les armes

Une femme dans la guerre du Liban

Les Editions Ouvrières
51-55, rue Hoche
94200 Ibry-sur-Seine

ريجينا صنَيْفِر

أَلقيتُ السلاح

امرأة في خِضمّ الحرب اللبنانية

تقديم جوزيف مايلا

تعريب د. رلى ذبيان

دار الفارابي

الكتاب: أَلقيتُ السلاح، امرأة في خِضمّ الحرب اللبنانية
المؤلف: ريجينا صنَيْفِر
تعريب: د. رلى ذبيان
الغلاف: فارس غصوب (منحوتة من شظايا الحرب)

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: farabi@inco.com.lb
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2008
ISBN: 978-9953-71-305-2

© جميع الحقوق محفوظة

حقوق الطبعة الفرنسية
© Éditions De L'atelier 2006
ISBN: 2-7082-3894-9

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

الإهداء

إلى والدي
إلى ولدي

مقدِّمة الطبعة العربية

بقلم الدكتور جورج قرم

إنَّ اللبنانيين محرومون من أية مراجعة نقدية، إنسانية وأخلاقية وجدية، بشأن ارتكاب الجرائم الجماعية المتواصلة في وطنهم في فترة ما بين 1975-1990. هناك أدب وفير ونظري حول ضرورة الوصول إلى السلم الأهلي الدائم عبر التربية على مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان والحوار المنظَّم و...و...و... وكل ذلك كلام في الهواء، له فقط أثر مخدِّر لسببيْن رئيسييْن. إنَّه يعطي الإنطباع بأنَّ التكفير عن الذنوب والجرائم الفظيعة المرتكَبة في لبنان يمكن اختصاره في تسويق الأفكار المجرَّدة عن السلم الأهلي وضرورة تخطي الوضع الطائفي وحماية المجتمع المدني من الانزلاق مجدداً في التقاتل الشرس بين أهل البلد الواحد من جهة، وهو يعفي ضمنياً الذين ارتكبوا كل هذه الجرائم البشعة بحق شعبهم من أية مسؤولية أخلاقية، معنوية، جزائية، لما أصاب المواطنين والوطن من جرَّاء جرائمهم المتواصلة على مدى خمسة عشر سنة، من جهة أخرى.

أما وصف حالات الهستيريا الإجرامية التي أدَّت إلى هذا التقاتل الوحشي الذي نشب بين تنظيمات مسلَّحة اختطفت الطوائف وسجنتها في أحياء المدن وزواريبها، وفي البلدات الريفية، فقلَّما تمَّ التطرُّق إليه وبشكل هامشي في المؤلَّفات حول الحرب، مع العلم أنَّه شرط مسبَق لإرساء دعائم الحالة التي تمنع تكرار هذه المآسي الإنسانية وحالات انهيار الأخلاق الخاصة والعامة. وهذا السكوت ظاهرة ملفتة للنظر، خاصةً وأنَّ تاريخ لبنان المعاصر منذ بدايات القرن التاسع عشر يتميَّز سلباً عن غيره من المجتمعات بموجات من مثل هذا العنف الجماعي، تتكرَّر بعد فترات قصيرة أو طويلة من الاستقرار والوئام. فلْنذكر الفتن الكبرى التي تتالت في تاريخنا: 1840، 1860، 1958، 1975، 1990.

مؤخراً صدر للصديق الكاتب والشاعر ذي الأحاسيس المرهفة صرخة مدوِّية تحت عنوان "القاتل إن حكى"[1]. وهذا كتاب يجب أن يُقْرأ داخل كل عائلة وأن يُناقش من قِبَل الآباء وأبنائهم لأنَّ هذه المحاولة الأولى الجدية النابعة من عمق ضمير المؤلِّف لسبر غور ما حصل من جرائم فظيعة، خاصةً بحق الأبرياء المسالمين الذين لم يحملوا السلاح والذين أصبحوا عرضةً لكل أنواع التنكيل والتعذيب والقتل وتشويه الجثث والخطف دون رجعة إلى المنزل والموت بفعل

(1) نصري الصايغ، القاتل إن حكى، سيرة الإغتيالات الجماعية، رياض الريِّس للكتب والنشر، بيروت، كانون الثاني 2008.

قذيفة مجنونة اخترقت جدران البيت الآمن؛ وكلُّها أعمال لا يمكن أن يقبلها أي ضمير حتى في مستوياته الدنيا. ومع ذلك لم يعتذر أحد من الذين أطلقوا نمط العنف هذا وأعطوه شرعيته وجعلوه مشهداً يومياً اعتيادياً، وهذا ما يجعل نصري الصايغ يصوّب أكثر صرخته ضد هؤلاء لأنّهم هم المجرمون الفعليون. ويذكر نصري الصايغ في كتابه بشيء من التفصيل اعترافات والتوبة الصريحة والجريئة المكتوبة من قِبَل اثنيْن كانوا قد انخرطوا في ميليشيا القوات اللبنانية هما أسعد شفتري، وكان قائداً عسكرياً حمل السلاح، وصاحبة هذا الكتاب وهي كانت تعمل في الجهاز الإعلامي للقوات. بادر الأول إلى كتابة مقالٍ يطلب فيه الغفران من اللبنانيين لما فعله. أما مؤلّفة هذا الكتاب القيِّم فهي قامت بوضعه باللغة الفرنسية منذ سنتيْن ويطيب لي أن أقدّمه في طبعته العربية لما يحتويه من سيرة ذاتية صريحة، مروية بشكل معمَّق وذي دلالة للقارئ الذي لم ينخرط لا من قريب ولا من بعيد في صفوف الميليشيات المسلّحة، سواءً كمحارب أو كعنصر مدني مساعد. وليس هذا أوّل كتاب لريجينا صنيْفر، إذ أقدمت عام 1994 على وضع مؤلَّف باللغة الفرنسية أيضاً حول "الحروب المارونية" صدر في باريس[2] وتشرح فيه ما حصل من اقتتال

---

(2) Regina SNEIFER, *Guerre Maronites,* Edition L'Harmattan, Paris, 1994.

مدمِّر داخل الطائفة المارونية التي تنتمي إليها، ذلك أنَّ هذا الإقتتال ونتائجه كان الصدمة التي هزَّت ريجينا صنيْفر والشرارة التي جعلتها بالتدريج تعيد بشكل نقدي صارم تجربة انخراطها في التنظيم المسلَّح نفسه.

أمّا ميزة هذا المؤلَّف لريجينا صنيْفر الذي يحمل عنواناً معبِّراً للغاية، فهو مستواه الفكري والوجداني في آنٍ معاً والذي يشير بما لا لبس فيه إلى أنَّ المؤلِّفة قد بلغت مستوى من الصفاء الكبير الناتج عن استيعابها للتجربة المُرة التي مرَّت بها، ممّا سمح لها بالخروج من التعقيدات والآلام النفسية التي سبَّبها انتماؤها لهذا التنظيم. صحيح أنَّ ريجينا صنيْفر لم تحمل السلاح ولم تتسبب مباشرة بإيذاء الناس بالسلاح، إنَّما لا تتهرَّب من المسؤولية المعنوية الكبيرة كونها تبنَّت مبادئ ودوافع وأهداف التنظيم المسلَّح التي انتمت إليه. وقد أدَّت هذه العقيدة والممارسات الميدانية المبنية على العنف إلى خراب الطائفة والوطن وليس إلى الدفاع عنهما كما كانت تتصوَّر أنَّها تفعل عندما رمت نفسها في أحضان التنظيم المسلَّح معتقدةً أنَّها تخدم الوطن والطائفة التي تنتمي إليها. ومن هذا المنظور أهمية هذا المؤلَّف.

صحيح أنني أتذكَّر مؤلَّفيْن قد صدرا منذ سنين باللغة الفرنسية من صحفيين فرنسيين أجروا مقابلات مع مقاتلين ومحاربين تلطخت أيديهم بالدماء . وهذا طبعاً ليس وضع ريجينا صنيْفر التي لم تكن مقاتلة . غير أنَّ الكتابيْن اللذيْن

قرأتُهما لم يكن لهما أي محتوى أو عمق فكري وتحليلي. فالأوّل كان يحتوي على اعترافات أحد أبطال السبت الأسود عام 1975 الذي كان قد أصيب بفاجعة قتل اثنيْن من أبنائه عمداً على أساس الهوية الطائفية خلال مدة قصيرة، فانفجر هذا الأب المفجوع غضباً طائفياً بشعاً ومجنوناً أودى بحياة العديد من المواطنين في هذا اليوم المشؤوم[3]؛ أما الثاني فقد حمل عنواناً براقاً Même les tueurs ont une mère بما يعني أنَّ حتى القاتلين لهم أمهات حيث يروي أحد الصحفيين الفرنسيين الجرائم المتتالية التي ارتكبها أحد المسلَّحين في إحدى الميليشيات وينقل إلى القارئ مشاعر هذا المسلَّح الشرس.

وطالما أذكر المؤلفات التي صدرت باللغة الفرنسية أساساً، لا بدَّ من الإشارة إلى كتاب الدكتور عدنان حب الله وهو طبيب نفساني مشهور في فرنسا ولبنان، له كتابات قيِّمة وراقية، وكان هذا الكتاب بعنوان "جرثومة العنف"[4] حيث يستخلص هذا الإختصاصي في الطب النفسي عبرَ ما أفاده المرضى اللاجئين إليه خلال الحرب والذين أصيبوا بأمراض

---

(3) أنا الضحية والجلاد أنا، سيرة جوزيف سعادة برواية فريدريك برونكيل وفريدريك كوديرك، دار الجديد، بيروت، تشرين الأوّل 2005.

(4) عدنان حب الله، جرثومة العنف، دار الطليعة، بيروت 2002. وقد صدر الكتاب باللغة الفرنسية عام 1996 في باريس بدار Albin Michel.

نفسية مختلفة سواءً بسبب ما قاموا به من أعمال قتل أو لما عانوه من فقدان أحد أقربائهم من خلال أعمال العنف.

أما مؤلَّف ريجينا صنيْفر، فهو رواية متكاملة متماسكة للأسباب التي قذفتها في حضن إحدى الميليشيات وما شهدَتْه من سجن وأسر وتعذيب بعض رفاقها على يد الميليشيا نفسها إثر الإختلاف بالرأي والرؤيا بين قيادات التنظيم المسلَّح بعد اغتيال مؤسس التنظيم بشير الجميِّل الذي كان قد وصل إلى رئاسة الجمهورية في الظروف المخزية للإجتياح الإسرائيلي عام 1982. إنَّ الصدمة التي تلقَّتها عندما رأت زملاءها وأصدقاءها من المنضمين إلى التنظيم وراء قضبان سجن مظلم ومعاملتهم القاسية اللاأخلاقية قد أثارت ضميرها، فبدأت تدخل في مرحلة الإنعتاق الفكري والثقافي والسياسي من هيمنة أفكار التنظيم المسَلَّح عليها وعلى عواطفها وتصرُّفاتها.

وإذْ تنهار بالتدريج الغشاوة الثقيلة التي كانت تحجب عنها الرؤية السليمة وتستعيد تمسكها بمبادئ الأخلاق المسيحية التي تلقتها منذ طفولتها وكذلك مبادئ الإنسانوية، أصبحت تنظر إلى الجرائم المرتكَبة ضد الأطراف الأخرى في النزاع وضد المدنيين الأسرى لدى التنظيمات في الغيتويات التي خلقتها نظرة اشمئزاز وعطف وحزن على الضحايا شملت ليس فقط اللبنانيين من الهويات الأخرى، إنَّما أيضاً الفلسطينيين الذين كانوا قد تعرضوا لنفس الجرائم الجماعية

التي تعرَّض لها اللبنانيون. ومِن هنا أهمية الكتاب والرواية التي تسرد استعادة إنسان لإنسانيته الكاملة بعد أن أفقده إياها الشحن الإعلامي الذي عبَّد الطريق إلى الحرب. وتصف المؤلفة في بداية الكتاب كيف انجرَّت إلى هذا التنظيم المسلَّح من وراء تحرك عواطف وتخيلات وضغوطات إعلامية وإشاعات كانت أقنعتها خطأً بأنَّ المسيحيين في لبنان، جميع المسيحيين ولكونهم مسيحيين، قد أصبحوا في حالة الخطر الداهم وأنَّ العدو الرئيسي الذي يهدد ليس فقط طائفتها إنَّما أيضاً الكيان اللبناني هو الفلسطيني وكل من تعاطف معه أو سانده أو تحالف معه من اللبنانيين.

لقد كنْتُ قد سمعتُ أنا شخصياً خلال الخلوات بيني وبين بعض طلابي في فترة ما بين 1975-1981، وهم كانوا قد انخرطوا في نوع من أنواع الوظائف والأعمال لدى التنظيمات المسلَّحة المدَّعية حماية المسيحيين في لبنان روايات تشبه رواية الدوافع التي جعلت ريجينا صنيْفر تنخرط في التنظيم المسلَّح؛ إلا أنَّ لا أحد من هؤلاء أتى ليقول لي أو للملأ أنَّه أخطأ وأساء للإنسان في وطنه فالشكر لريجينا صنيْفر التي دوَّنت هذه المسيرة في مرحلة الذهاب إلى جهنَّم دون وعي والعودة منه بوعي ثاقب حول آلية الإنجرار إلى قبول العنف وجعله مشروعاً لا يخالف قواعد الأخلاق والإنسانوية، وحول آلية الخروج من حالة قبول العنف. فها هي تخاطب

جميع اللبنانيين وضميرهم لتقول لهم "لا تسلكوا هذا الطريق في المستقبل لكيْ لا تروا ما رأيته في هذه الرحلة ذهاباً وإياباً إلى جهنَّم". ومن هذا المنطلق فإنَّ لشهادتها قيمة كبيرة يجب أن يتعظ بها كل من يسوِّل نفسه اليوم مهمة نشر أجواء من الكراهية والبغض بين اللبنانيين مماثلة لتلك التي استحوذت على عقول اللبنانيين في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي.

فلو نجح الساعون مثل صديقنا نصري الصايغ أو مثل لجنة أهالي المفقودين والمخطوفين في لبنان التي تترأسها السيدة وداد مراد حلواني وآخرون في الحصول على اعتراف واعتذار مِمَّن حرَّض ومن قام بأعمال القتل طوال 15 سنة على غرار ما حصل في جنوب إفريقيا حيث اجتمعت كل القوى التي مارست العنف الأعمى ضد المدنيين وتصارحت واعترفت وقدَّمت الإعتذار، فإنَّ لا شك عندي أنَّ كتاب ريجينا صنيْفر سيكوِّن شهادة هامة وذات مصداقية في أعمال "مجمع الغفران" الذي نحتاج إليه في لبنان لنؤسس لسلمٍ أهليٍّ دائمٍ يحترم فيه كل لبناني اللبناني الآخر ويزيل الخوفَ من نفسه، فيقضي على كل أنواع العنصريات الطائفية التي تفتح الباب للفتن وتسهِّل عملية قتل الآخرين دون الشعور بالذنب. وفي نهاية المطاف لا يُقْتَل إنسان في فتنة أهلية في بلده بالرصاص أو بالقذيفة إلا بعد أن يكون قد قُتِلَت إنسانيته عبر الكلمات الفتاكة والتراشق الإعلامي الرخيص في جو انحطاط أخلاقي

وفكري عام، وهذا ما سعيْتُ إلى تبيانه في مؤلَّف حول لبنان صدر عام 1986 وتم بعد ذلك تطويره وتعريبه عام 2004[5].

وبما أنَّ الفتن الطائفية والمذهبية تتعدد وتتكرر في عالمنا العربي، وبما أنَّ لبنان جزء لا يتجزأ من هذا العالم، فإنَّ إعادته إلى الطليعة الفكرية والثقافية والسياسية في العالم العربي تتطلَّب كشرط مسبَق إقامة "مجمع الغفران" والبناء المستقبلي الذي سيدفن نهائياً كل بذور الإجرام الجماعي. إنَّ كتاب ريجينا صنيْفر في هذا الإطار وثيقة ثمينة نرجو أن يقرأها العدد الأكبر من العاملين في الحقل السياسي والإعلامي حيث تنطلق الأجواء المسمومة التي تنشر الكراهية العنصرية الطابع. كما أعتقد أن على المثقفين المنضوين في أحد المعسكريْن المتخاصميْن حالياً في لبنان والمنطقة العربية أن يقرأوا أيضاً هذا المؤلَّف على أمل أن يكفوا عن إعطاء العنصرية قالباً أكاديمياً، مستغلين ألقابهم الجامعية البرَّاقة، وهذا لا يقل خطورة عن كلام بعض السياسيين والإعلاميين.

---

(5) أنظر جورج قرم، لبنان المعاصر. تاريخ ومجتمع، المكتبة الشرقية، بيروت، 2004.

مقدمة

بقلم جوزيف مايلا(*)

إن للحرب ذكرى إسْتِحْواذِيَّة صَلْبة. فهي تَتَشَبَّث بوجدان الذين واللواتي حملوا السلاح أو شاركوا في التأهيل السياسي النضالي أو في التدريب العسكري الميليشي، بعِناد يزداد حِدَّة كلما اسْتَشْرى العنف في لبنان واستمر، معيثاً فيه التدمير والفساد. فبالنسبة للاتي وللذين كانوا، في وقت من الأوقات، وبشكل من الأشكال، وعلى مستويات مختلفة من المسؤولية، عاملين فاعلين ومؤثّرين في الأحداث العنيفة التي طبعت التاريخ الحديث لهذه البلاد، فإن هذه الذكرى تُشكل الصَّدى الذي يُعيده الألم. ذلك أن خِلْفَة الحرب هنا، أو بُقْياها هي في إصرار ومثابرة الماضي الذي حَلَّتْ فيه بكل نوابتها، على العودة إلى الحاضر، فيَسْتَوْطِنه ليتَّحِد فيه بألم، لا يجد الشِفاء اليه سبيلا. «النسيان صعب»؛ هذا ما تُقِرّ به ريجينا صنيفر كتابةً في مُؤَلَّفِها هذا، بوحْي مما خَبِرت وعانت

(*) شغل في السابق منصب مدير للمعهد الكاثوليكي في باريس.

مع النسيان، وذلك قبل أن تَعْقِدَ العزمَ لأجلها، ولأجل أبناء مِلَّتِها، ولأجل جيل برمَّته، على سَرد ما كانت عليه الحرب التي عاشَتْها. فالألم العُضال هو ابن الشَّقَاء الذي تُعانيه الذاكرة، ولا سبيل إلى التّغلب على هذا الألم والعمل على طرده، إلّا بالانكباب على إنتاج عمل يكون وَليد الذاكرة التي يَسْتَنْطِقُها، ويَسْتَوْحِيها، والتي تجد فيه بدورها حَيّزاً تقول فيه نفسها. فتبدو ريجينا صنيفر والحالة هذه، وكأنَّها ارْتَضَت مواجهة الألم، الذي أرَّقَها لسنواتٍ طِوال، للمرة الأخيرة، لتَسْبِر أَغْوار نفسها، وتقع فيها على ما يَنْخُرُها، ولا يَنْفَكُّ يَعْكِس هذا الإنزعاج الذي يُصيب الذات منها، فتتخلص وتَبْرأ مما يُثابر على دوام العودة إلى حاضرها، فيُمْعِن في تعذيبها.

وإذ وقَفَتْ على مسافة من حقبة باتت اليوم منصرِمة، حيث كانت القناعات النضالية تكفي لاسْتِثَارة المعارك العادلة، وحيث لم يكن العنف إلا امتداداً للإيمان، تعود ريجينا صنيفر إلى ما كانت عليه سنواتها كامرأة حملت السلاح، كمقاتلة بين المقاتلين على الجبهات. إنّ مسارها هذا ليس إلّا مسار جيل بكامله، اكتشف في يوم من الأيام أنّ لبنان طفولته، لبنان أهله، لبنان المثال في نظره، أصبح حِصناً محاصراً. فمعها لا يفيض الكلام على لبنان وهو في طور الانزلاق إلى الهاوية المدلَهِمَّة، كما كانت عليه الحال مع أبناء الجيل الذي سبق جيلها، وإنما هو يدور على لبنان الذي أنْجَزَ انزِلاقه، واستَقَرَّ في القَعْر، وبات على فَاقِدِيه ومُفْتَقِديه، أن يدافعوا

عنه أرضاً، وفكرة، وكياناً وصيرورة. فريجينا صنيفر مسيحية، والمسيحيةُ فيها ترى في الإعصار الذي حلَّ في لبنانها المثالي، كما في الجنون الفَتّاك الذي تَتَّصِف به الأهواء المتنافرة لتَنَاقُضها، كل الشكوك التي تُثْقِل صَيْرُورة الأقلّيات في الشرق الأدنى. فإذا بالأحزاب السياسية وميليشياتها تحتَشِد جنوداً وعَتَاداً، فيما ينال الإهتياج من ترويجها الإعلامي الذي لا يتوانى في النيل من الدولة، فيَغُور في الفَغْر الذي فَتَحَه في كيانها كلٌ من تردُّدِها واهتزازِها، بفعل إمعان طبقة سياسية، اتُّصِفَت بمثابرتها في تقويض دعائم الدولة، ونَخْر وإضعاف بناءاتها المؤسَّسَاتِية، عبر تلاعبها بالسلطة وتناسِيها المصلحَة العامة. وكان من شأن هذا الترويج أن أسْرفَ في الحَثّ على المقاومة، وأفرَطَ في الدعوة إلى التعاون؛ ولكنه لم يكن ليعني تعاون المواطنين المتَّحِدين في مواجهة الخطر المحْدِقِ بكيان دولتهم والمتربّص ببلادهم، وإنما التعاون الذي بات من الضروري على المتّحدات، كل منها على حِدَة، أن تُقْبِلَ عليه. إذ أصبح كل مُتَّحد يحلم بِنَسْج الروابط في داخله لِيَسْتَعِيض بها عن تلك التي فشِل في إقامتها والابقاء عليها مع غيره من المتَّحدات. فالحياة مع أبناء المِلَّة الواحدة أفضل وأسْلَم، طالما أنّ الحياة مع أبناء المِلَل الأخرى محكومة بالاستحالة. تلك كانت الغاية الخَفِيّة والكلمة الفاصلة للفلسفة الميليشاوية. فهي تَنْهَل من اليأس والتعظيم، وتُلَخِّص التصدُّع، لا بل القطيعة

التي ضَرَبت الميثاق المجتمعي، والتَّخلّي عن التعايش بين الطوائف الدينية التي تشكله في الأساس. أما في ما يتعلق بالتعظيم والتمجيد، فهما ينبعان من الشَّغف بهُوِيّة الجماعة الطائفية التي، وفي ظل تماهي وذوبان الهُويات الفردية فيها، ازدادت لُحمةً في خِضَم الإرادة الضَّارية بالاتحاد بالأرض، المشتَرَكة أساساً مع الطوائف الأخرى، والاستيلاء عليها لنفسها فقط. فالحقبة كانت حقبة الراديكالية، حيث أنصاف الأوزان لم تكن وسائل ناجِعة تُعْتَمَد عندما تَتَّسِع رُقْعة المغالاة لتصل حدّ التطَرّف، عندما يتحول الخوف ـ وقد قيل إنه غُلِبَ فأُخْضِع ـ إلى عنف وقطيعة، وعندما يصبح الدفاع عن النفس ذريعة لإقصاء الآخر، هذا الذي كان فيما مضى، شريكاً في المواطنية. وفي هذه الحال، يقترن التاريخ الشخصي لكل فرد مع المصير الجماعي الذي ينصهر فيه بسهولة، وذلك داخل كل من المتّحدات التي تجد نفسها في المواجهة، وقد دُفِعَ بِواحدها ضِدَّ الآخر، بفعل ما يُمليه عليها الشك والارتياب من عدائية. ولقد كان من شأن هذا التلاقي والإنصهار للمسارات الفردية في المسار الجماعي، ان انتهى بجيل من الشباب المتجّذِر في تربَة ودَمال طائفته، والمؤمن إيماناً كاملاً بقناعاتها، إلى سلوك مسار يتحكَّم فيه كل من القلق والاضطراب الثوري. وكان لكل من إفلاس النُّخب السياسية في إيجاد حلول ملائمة تنهض بالبلاد، والإخفاق الفلسطيني في لبنان، إذ أخضع في سبيل نُصْرَة

قضيته البلد الوحيد حيث كان بإمكان الفلسطينيين الإفادة من حيّز يتيح لهم حرية التعبير والحركة، والتَّأسُّلِيّة أو الردَّة الوراثية في الدفاع عن النفس، وهي ثمرة ثقافة القلق التاريخي الذي عملت أجيال من المسيحيين على إذكائه، أن شكّلوا عوامل قادرة على شرح ردّات فعل هؤلاء الآلاف من الشبان الذين، وفي مستهل حياتهم الراشدة، أَغْوَتهم ميولُهُم الإنعزالية فَشرعوا في التخطيط لقيام وطن على قياس مخاوفهم وأوهامهم. مَن ذا الذي سَيَرْميهم بحجر وهم الذين أُوْرِثوا تُرَاثاً مفتناً؟ إن الحكم الإستعادي على التزامهم خلال حرب لبنان، لا يَسَعُه أن يَقْتَبِس مقاييسه التقويمية من خطاب الضَّلال العقائدي، والتعصّب الديني والتلاعب بالحقائق والمصائِر فقط. لأنه لو فعل لكان تقويمه سهلاً للغاية، وظالماً للغاية؛ فاعتماد هذا النهج يَنْزَع إلى إغفال حقيقة بشرية ثابتة، ألا وهي أنّ ما مِن أحد يختار البؤس بملء إرادته. فمواكب الحِداد التي تخطُّ في كتاب ريجينا صنيفر أثلاماً، فيها من الفصاحة والبلاغة ما يكفي للتعبير عن العجب أمام الموت المتَعَمَّد، أمام الإنتحار، والألم الناتج عنه لدى مَنْ يُقْدِم عليه.

إن خاصيّة المسارات التاريخية تكمن فيما تتوسَّلُه الرهانات من بديهية عنيفة تفرض بها نفسها، وفي إلحاحية الخِيارات. فبالنسبة لأولئك الذين بلغوا الثامنة عشرة من العمر في خِضَمّ سنوات الحرب، استطاع اللجوء إلى السلاح أن يبدوَ لهم

كخِيار لا مَفَر منه. فتفكّك الجيش اللبناني، وزوال الدولة، واسْتِشْراء نفوذ القِوى الخارجية، من إقليمية ودولية، وتدخلها السَّافر في الشؤون الداخلية، شكَّلَت كلها عوامل مؤثرة على نحو جعلت من الحياة المدنية مستحيلة، ومن السلطة أمراً بعيد الإحتمال والمنال. فإذا بالمتّحد الطائفي يصبح امتداداً مَدَنِيّاً للكنيسة أو للمسجد، واذا بكل من هذين الإثنين يتوصل إلى الحلول مَحَلّ الدولة المخْفِقَة والغائبة في آن. وبهذا كان للولاء للطائفة أن ٱنْتَصَرَ على الرابط المدني الذي، ومع مرور الزمن وتكاثر نوائب الحرب والخيبات، أخذ بدوره في التلاشي. ولا بد من القول هنا، إنّ هذا المسار من انحطاط السياسة هو الميزة الرئيسة للصراعات التي عُرِفت باسم «صراعات الهُوِيَّات»، وهي نقائض بغيضة وهمجية للبناءات السياسية، التي أَدَّت إليها الحروب التي نشبت بعد الحرب الباردة، فأبرزتها بكل فظاعتها من البوسنة وحتى رُوَندا. ولكن للحالة اللبنانية خصوصية مُلفِتة، تكمن في أنّ الشعور بالانتماء الوطني لا يزول كلياً، وإنما يصبح بُعْداً لا تتوانى كل طائفة في استثماره لصالحها، عندما تنبري مُدَّعِيَة أنها هي التي تَخْتَزِنه، وأنها الوحيدة المؤتَمَنَة عليه. ولكنها في الحقيقة تَرْمِي إلى إبراز نفسها كأفضل تمثيل للوطنية، بانتظار أن تتمكن من فَرْض نُصْرَة مفهومها للبنان، بنهاية الصراع. إنها ولا شك مهمة مُبْهَمة، غير واضحة المعالم، لأنها تقضي على إمكانية إقامة الفرق بين ما هو مُتَّحَدي ـ طائفي وما هو

في صُلْب الانتماء الوطني؛ بل تفعل أكثر من ذلك عندما تقيم اللقاء والاتّساق بين الولاء للمتَّحد والانتماء لوطن تقلَّصت حدوده لِتَتَطابق وحدود المتّحد ـ الطائفة

إن الدينامية المعقدة لتفتت لبنان وشرذَمَته قد وضعت الشبان أمام خِيارات قاسية للغاية. فمن بين الهجرة، واللامبالاة أو الإلتزام، برزت أمامهم أجوبة كثيرة. ولكن إلزامية الدفاع عن أهلهم وأبناء مِلَّتِهم ما لبث أن أتاهم بجواب آخر. ولن يصعب على القارىء أن يحِسَّ أو يدرك بشكل خفي، هذا النضوج البطيء للقرار، وتلك الحركة الداخلية الوئيدة، اللذين قادا ريجينا صنيفر، في يوم من الأيام، إلى اجتياز عتبة بيت حزب الكتائب، لتَلْتَحِق به فتصبح ميليشية. على القارىء أن يتوقف عند تلك الصحائف حيث الإشارة بوضوح إلى التحوّل التدريجي الذي مرَّت به ريجينا صنيفر من الموالية المؤيدة إلى المقاتلة، وهي كينونة جديدة، لا يلبث فيها اللجوء إلى العنف أن يفرِض نفسه فيها كالسبيل الوحيد والأخير. غير أنه لا يُنْظَر حتى الآن إلى فقدان رفاق السلاح في ساحات الوغى، على أنه قِسْمة ونتيجة العنف الحربي. وإنما الموت منذ البداية، أمر مرفوض مَدْحُوض وإن كان بديهياً. فهو ليس إلا خطراً ملازماً لأي نشاط قتالي، وهو لا يطال إلّا العدو. ثم، تحل المواجهة التي تُحَوّل الحرب من تصور أَمْثَلِي إلى صدمة مع الواقع المعيوش بكل كثافته واسوداده الحالك.

إن أكثر الصحائف إثارة للمشاعر من بين تلك التي تكرّسها ريجينا صنيفر لمسارها العسكري، ليست تلك المتعلقة بتجنيدها وبنمط حياتها القتالية، حتى ولو بدا فيها التَّشْديد على تلك الرحلة إلى الجحيم حيث يصبح كل تساؤل أو مساءلة أمراً عبثياً، لا فائدة مُرتَجى منه. فجاذبية القادة، والقناعة الراسخة لديها بأنها إنما تخدم قضية عادلة لها الحق بالدفاع عنها بواسطة القتال، تملأن لوقت طويل أصغر الفَجَوات في الوجدان والضمير. لا، فالصحائف الأكثر إثارة للمشاعر هي تلك التي تصف فيها خروجها من ذاتِها الميليشية، وفي مرور هذه الأخيرة من النضال العسكري العقائدي إلى الندامة والتوبة. هذا هو التحوّل الذي ينبغي علينا أن نَتَنبَّه له. ففي صلب الإلتزام الحِزبي، يبدأ الشك بالبروز. فالصراع المسْتَمِيت ضد الآخر، أكان هذا الآخر الشريك المسلم في المواطنية أم الغريب الفلسطيني، لا يلبث أن يخضع أمام التساؤلات حول انعدام الجدوى من صراع لا نهاية له، التي تجد رويداً رويداً طريقها إلى النور. ولا يطول الأمر بالحقد، الذي لا يُغْتَفَر، حتى يبرز بين قائِدَيّ الميليشيا عينها، ليأخذ في طريقه آخر قناعات الميليشية ريجينا، التي كانت بدأت منذ بعض الوقت تتعرض للتآكل معنوياً وأخلاقياً. وكان من شأن هذا الصراع التدميري الذي يَشُنُّه الأخوان العدوان على بعضهما البعض، داخل المسيحية السياسية النضالية الواحدة، والذي يبشر بصراعات أخرى من

النوع عينه بين كل من القوات اللبنانية والجنرال ميشال عون، أن طرح السؤال الأخير: أي معنى لهذه المقاومة الملتزمة التي استُهِلَّت ضد العدو الغريب، والتي ما لبثت أن انقلبت على المقاومين أنفسهم؟ أضف إلى ذلك أن الصراعات بين الطوائف راحت هي الأخرى تَضْعُف أمام تصفية الحسابات والتَّصْفيات الجسدية التي يرتضيها قادة الميليشيات المسيحية ويقبلون عليها بشراسة ودون هوادة. فأين، والحالة هذه، المعنى من القتال؟ وبماذا يمكن تبرير مثل هذه المذابح؟ تلك تساؤلات، إن دَلّت على شيء، إنما دلّت على عمق الأزمة السياسية، وعلى عمق أزمة الضمير التي تعانيها ريجينا صنيفر، وهما أزمتان ستؤديان بمناضلة شغوفة بقضيتها، توَّاقة إلى إحلال نُصْرَتِها، إلى خيبة أمل مدوِّية. ولكن هذه التساؤلات لا تكفي لتشرح تمردها الأخلاقي، لأنّ هذا التمرد أعمق بكثير مما يدور على الساحة، إذ هو ينبعث من الاتصال والتواصل مع الآخر، الذي لطالما كان عُرْضة للذم والقدح والتشويه. فلقاؤها مع ذلك الفلسطيني الأسير، في رواق السجن، وشَكاته التي راح يشدو بها مناجياً أمه، فيكشف عن رغبته في رؤيتها كأي سجين يتوق لرؤية أمه، يحملها على التأمل في خِياراتها وقناعاتها. ولا بد من التوقف عند التأمل القَلِق الذي تساءلت به ريجينا عن معنى الالتزام المسيحي، وعن ماهية تلك الصوفية الغامضة التي تنبعث من الصليب ومن سِرِّه، وهما اللذان انحدرا إلى درك

الرموز والحيثيات اللذين يَسْتَقْوي بهما قتال المقاومة المسيحية، التي لا تمت إلى التعاليم المسيحية بصلة، إذ «أصبح الصليب سيفاً»، وشُوِه الجوهر، وحُرِّفَ المعنى.

إنّ هذا الوعي بالتصور الباطِل والفاسد للقداسة، يَسْتَهِل بالنسبة إلى المناضِلة المسيحية، زمن العودة إلى الرحمة وإلى الذات.

إنّ هذا التأمل الجميل الذي انصرفت إليه ريجينا صنيفر، سيكون له تأثير عميق في كل اللواتي، وكل الذين دفعتهم قناعاتهم إلى مقارعة الآخر في خضم الأهوال المأساوية للحرب، ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا أنهم باتوا ضحايا الوسائل والأساليب التي كانوا يستخدمونها. فيتضح لهم أن العنف هو أسوأ حيثية يمكن للحقيقة أن ترتكز إليها. فالعنف يشوّه الحقيقة، ويفسدها، ويعود بمن يَرْتَضيه ويمارسه إلى ذلك التراكم البدائي، شِبه الغرائزي، الذي يُملي عليه إثبات الذات، على حساب السماح بالآخر، وتوسُّل التعصّب للرأي والعقيدة والقضية الذين يحلّلُون له التّخلص منه. وهكذا يكون العنف قد أفسد في المرء الذي يقدم عليه، كل ما كان يريد أن يرى فيه جوهراً وقيمة. فالحقيقة التي تفرض نفسها على الآخر متوسلة العنف والترهيب، إنما تدخل إلى عالم لا وجود للآخر فيه. إنّ الأمثولة المروِّعَة التي تزخر بها الصحائف التي نحن على وشك الانكباب على قراءتها، تُظهر أنّ العنف هو السلاح الوحيد الذي يرتَدّ على مَنْ يستعمله،

وينتهي إلى تدمير أولئك الذين أمكن لهم يوماً الاعتقاد أنه أُحادي التأثير، لا يفيد إلّا في القضاء على الآخر. تود ريجينا صنيفر أن تنقل هذه الأمثولة التي استمدّتها من أعماق ذاكرة قلقة، إلى ابنها كما إلى الآخرين. فليطمئن فادي، فهو ليس فقط إبناً لأم مُحِبّة، وإنما هو أيضاً الإبن الذي لا ينفصل عن ذاكرتها، ذاكرة عَرَفَت، في ختام زمن التجارب، أن تجد لها امتداداً في الرجاء.

توطئة

اليوم استطيع أن أتكلم. آن لي أن أفعل وقد طال صمتي عشرين عاماً. الآن استطيع أن أفيض بما كَتَمْتُه طِوال عقدَيْن من الزمان. ما عُدْت أخشى نظراتها المُلْتَاعة، ولا عويل انتحابها لقد رحلت. ساعدتها.. المنيّة، فأراحتها من مرض عُضال نَخَر جسمها فأضناه. سبعة عشر عاماً من الانتظار. فمع ما تبقى لها من قوة، كانت تنتظر عودته: عند كل شَرْقَة شمس؛ مع كل ارتشافة من قهوتها الصباحية المرّة؛ في كل مرة جلست فيها تَنْخُب حبّات العَدَس، فتفصل عنها ما علق بها من زُؤَان؛ وفي كل مساء، أثناء تلاوتها ورديتها[1]، كانت تنتظره. سبعة عشر عاماً أمضتها في انتظار عودته، تئن بصمت، مبتلعة غصَّاتها، خِشية أن تجْلُبَ دموعها النَّحْس، فَتَحُلُّ بالغائِب النوائِب. أيام، وشهور، وسنون مَرَّت عليها، فلم تَقْوَ على أن تنتزع منها الأمل في رؤية ولدها من جديد. ولدها لُبنان. كانت تحافظ على ثيابه نظيفة، مَطْوية بعناية، جاهزة للارتداء، وتحرص على بقاء سريره مرتباً، وفرشاة

(*) المَسْبَحة الوردية.

أسنانه في مكانها. كانت قد أخرجت صورة مناولته الأولى من علبتها المعدنية لتعلقها على حائط الدار، كما لو أنها بذلك تُثبت وجوده. أَلَمْ يكن في ارتِضائها غَيْبَتَه وامتناعها عن انتظاره، قَتلاً له؟ ما دامت لم تَرَ جثته، فإنها تأمل، من دون وهنٍ تأمل. كانت الحرب قد انتهت، فوضع رفاقه السلاح جانباً، وخلعوا عنهم لِباس الميدان. أما هو، فلم يكن قد عاد بعد. كم مرة قالت له «تُقْبرني»، كالأمهات اللبنانيات اللواتي، ولفرط حنانِهن، يعبِّرن لأولادهن عن أمنِيَتِهن بملاقاة الأجَلِ قبلهم، فلا يُكابدن مرارة فراق فَلَذات الأكباد. ولكن انتظارها طال حتى خرج بها من دائرة الزمن، لترحل عن الحياة لشدة ما أضناها الأمل. وأنا طوال هذه الأعوام السبعة عشر، لزمت الصمت، فلم أقل لها شيئاً. لم أجرؤ.

كيف أقول لأم أن تكفّ عن انتظار ولدها؟ كيف أقول لأم أن تتخلّى حتى عن الأمل بمواراته في الثرى والبكاء على قبره.

كانت تسكن على بعد خطوتَيْن من منزلي، لكن هاجس نظراتها عليّ ضاعف من اتّساع المسافات بيننا. نظراتها تلك كانت تُحْيي فيَّ ذكرى أم ثكلى أخرى، أم إيلي، أمام جسد ولدها الممزق بالرصاص.

لا زلت أراها. لا زلت أسمعها. فهي تُوَلْوِل دون أن يُسْمَع لها صوت. وهي ترقص، دون أن يُسْمَع لها صوت، وقد اجتذب ذراعاها المرفوعان إلى السماء جسَدَها في تمايل

نَطَقَ بما فاضت به جوارحُها من وجع حمل لشدَّته الجفاف إلى مَدْمَعِها، والخَرَس إلى شَفَتَيْها، فأضاعت الكلمات السبيل إليهما. وما حاجتها إلى الكلمات وقد ضَجَّ جسدها كله صراخاً وعويلاً، فراحت تضرب الأرض بقدميها على وَقْع ألمها، وهي تدور على نفسها، وسط نسوة اتَّشَحْن بسواد الحِداد، كما الشَّامان[2]، وقد أخذته غَشْيَة في حمَّى احتفال جنائزي. وهكذا كانت انتفاضات أم إيلي في رقصها تفعل فعل الصراخ في إنشاد الشَّامان. رقصها الخِرس المصِمُّ المدَوّخ في آن.

ففي ذلك اليوم من شهر حزيران/يونيو 1982، التففنا كلنا، رفاقاً وجيراناً، حول إيلي، نستعد لمواكبته حتى مثواه الأخير، فنرش على جثمانه الأرز، وننثر فوقه الزهور كما يُحْتَفَل بزفاف عروس في مقتبل العمر. وفي الموكب، تتصاعد الأصوات مخنوقة، وقد امتزجت بقرع الكنيسة، قائلة: «أجراس ـ ليرحمك الله، يا إيلي». «سنشتاق إليك». إنها لحظة رهيبة تلك التي تستعِيد فيها الأرض ما هو ملك لها، فتنتزعه من عالم البشر، مُلْزِمة الإنسان بفعل ما درج

(2) الشّامان: كاهن يدين بالشَّامانية، وهو دين بدائي من أديان شمالي آسية وأوروبة، يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح الأسلاف، وبأن هذا العالم لا يَستجيب إلا للشّامان، الذي يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبّأ وللسيطرة على الأحداث. ولهذا الدين مثيل عند بعض هنود أميركا الحمر.

عليه منذ القدم: يحفر حفرة يضع فيها موتاه، ويدثّرهم بالتراب، فيعيد للأرض ما للأرض، بكرامة.

أما أن لا يتمكن المرء من دفن موتاه، فذلك ما هو أكثر فظاعة. لم أستطع أبداً مواجهة ألم أم لبنان، التي عندما وُلِدَ لها صَبِيُّها ذاك، أسْمَتْه باسم أرضه، لُبنان. أحب لبنان هذه الأرض لدرجة خال معها أنه يستطيع أن يدافع عنها، ويفتديها بروحه، فيموت لأجلها. كان على تلك الأرض أن تستعيد ما هو لها، ولكنهم انتزعوا منه هذا الحق، فسلبوه بذلك كرامته.

لأجلك يا لبنان، ولأجل كل الرفاق، الذين جُرِّدوا من كل شيء، فَسُرِق منهم حتى حق مواراة الثرى، أتكلم اليوم. آن ليَ أن أفعل، وقد طال صمتي عشرين عاماً. لقد حملتكم معي طويلاً، طويلاً، فَمزقني ثقلكم، ودفنتكم في نفسي خشية أن أدعكم تَضْرِبون وحدكم في غياهب التاريخ، في الماء الذي يُتْلِف ذاكرتكم وذِكراكم، فيغرقكم دون أن يترك لكم أثراً. ومنذ ذلك اليوم، وأنا تائهة هائمة على وجهي، أجرُّ ذكرياتي في إثري، أجرُّ ذلك الماضي الذي لطالما صعب عليّ قوله، وشَقَّت عليّ كتابته، فكان كل سطر يُلزمني بمواجهة ضيقي وقلقي، فأسارع إلى خنق خِزْيي وعاري وإلى حَجْب شعوري بالإثم. آنذاك، كنت أقاوم اعتقادي بأنّ تجربتي تافهة، لا معنى لها مقارنة بآلام الآخرين. آنذاك كنت

أخشى أن تؤثر ذكرياتي في الأشخاص المحيطين بي، فتحمل إشراقتهم على الاضمحلال، وترمي بوشاح من الأسى والحزن على أفراحهم اليومية. آنذاك، كنت أخشى أن تدمر الكلمات ما أنا أحاول اليوم كتابته. ولكن كان علي أن أستمر في العيش بمعيتكم، وبمعية تلك الحروب وتلك الجراح. أما اليوم، فأنا أعيدكم إلى التاريخ، لأشهد ضد قساوَة وخُيَلاء وتفاهة الإنسان الذي، وهو يسعى لامتلاك عالم ليس له، يُوجِد الآلام من حوله. لقد عشت جنون الحرب عن قُرب، غير أنني أدرك اليوم أنّ الحرب لا تحمل الحلول لأية من المعضلات ولا لأيّ من النزاعات، وإنما هي فقط تجتاح كل ما تجده في طريقها.

ولأجلك أيضاً يا بني، أكتب. إنني لا أقصّ عليك الحرب، وإنما أروي لك قصتي في الحرب. وأنا لا أحاول تبرير ما فعلت، ولا التشكّي مما أصابني منها، وإنما أحكي قصتي لتقوم مقام الشهادة، فأنا قدِمت من بلاد حولتها الحرب إلى مقبرة لأحلام ولأشخاص، بترت حياتهم. واليوم، أنا أرفض العنف الذي قبلت به في يوم من الأيام؛ بل قل أسوأ من ذلك، إذ كان هذا العنف في عمق ذاتي. وإذ كان لا بد لي أن أفهم ذاك الماضي، فأتحرر من قبضته، قررت اليوم أن أتكلم؛ وها أنا أكتب لك ولأجلك؛ فأنا أؤمن بقوة الكلمات وقدرتها على استخراج بعضٍ من الحقيقة من تلك التجارب المريرة؛ أنا أكتب علَّني بالكتابة أتصدّى

لمشاعر الخوف والكراهية التي هي منابع للعنف، ومنابع للحروب.

أكتب، علّني أطرد ظلال وظلمات جراح جديدة. لا أكتب سعياً مني لاستثارة الضغائن، وإنما سعياً مني لكسر سلسلة العنف التي عمل كل من الخوف والجهل على بنائها. أكتب علّني أُجنِّبُ الآخرين الانجراف من جديد في متاهات الأوهام التي تؤدي إلى الحرب. سأحاول، بكل ما أوتيت من قوة وعزم، سأحاول.

قبل الحرب

عندما أفتح عينيّ على الدنيا لأول مرة في مستشفى القديس شارل، أجدني أبكي ـ أمي كذلك. لقد أَبلغوها للتّو خبر سوء: «إنها بنت». خاب سَعْيُها للمرة الثالثة. تسعة أشهر من الانتظار، تسعة أشهر من الأمل، والنتيجة؟ لا شيء! فيوم ذاك، لم تصبح إيڤلين (Évelyne) أم ريجينا (Régina)، أو والدة ريجينا. ينبغي عليها إذن أن تعيد الكرّةَ من جديد، لا لشيء إلّا لتثبت لحماتها أنها تستطيع أن تُنْجِب الصبْية. وها هي تعيد الكرة. وللمرة الرابعة على التوالي، تلد بنتاً. فكيف لها والحالة هذه، أن لا ترى في الأمر شؤماً أصابَتْها به عين شريرة تتسلّط عليها؟ وكيف لها أن لا تبكي وهي التي لم تنجح في مسعاها كما كان يُؤمل؟ لدى عودتها إلى المنزل، وفدت العائلة وتقاطر الجيران يقدمون لها المؤاساة، قائلين لها إنه ينبغي عليها أن تعتبر نفسها محظوظة لأن بناتها الأربع يتمتعن بصحة جيدة، وهن طبيعيات البنية، وإن الفتاة نعمة تدخرها لآخرتها. ولكنها أجابت بمرارة من لا تجد عزاءً في المؤاساة: «تبقى الفتاة تعيسة طِوال حياتها. فهي يوم تولد، تولد همومها معها».

وُلدتُ في العام 1962، في أحد أيام شهر نيسان/ ابريل، تسعة عشر عاماً بعد الاستقلال، وثلاثة عشر عاماً قبل بَدء الحرب، أي في منتصف الطريق بين السلم والحرب. عُنِي جدي باختيار اسم لي، إذ لم تكن والدتي في حالة نفسية تسمح لها بالتفكّر في الأمر. ريجينا هو اسم أول امرأة في عائلة صنَيْفِر، وهو كذلك إسم عمتي، راهبة تخَلَّت طواعية عن اسمها هذا لدى انضمامها إلى أَخَوِية راهبات المحبة.

«وُلِدَت ثالثة بناتنا، ريجينا، في الحادي عشر من نيسان/ أبريل من العام 1962، في تمام الساعة السادسة والربع مساء». تلك كانت الجملة التي كتبها والدي على ظهر باب خزانة غرفة النوم، وهو الذي كان يقوم مقام سجلنا العائلي؛ لعله كان، لدِقته، حرِيّاً بالثقة أكثر من السجل المدني. غالباً ما كنت أُسْأَلُ في صغري: «أي رقم أنت؟» فأجيب: «أنا البنت رقم ثلاثة». كانت المرتبة الثالثة لا تزال أمراً محتملاً. أما أختي، فلم تكن بِوَفْرَة حظي، فهي احتلت المرتبة الرابعة، ومَنْ بلغ مثل هذا المستوى في التراتبية، لم يعد يُحْسَب له الحساب في عائلتنا.

وُلدتُ يوم أربعاء، وهو ما كانت أمي تردده دوماً، لأنها احتفظت من الحدث بذكرى أليمة للغاية. فلو سلَّمنا بما كان يفيد به سجلنا العائلي، فإن إيڤلين قد أنجبت بناتها الأربع، ريتا (Rita)، راشيل (Rachel)، أنا وداليدا (Dalida)، في يوم أربعاء، وهو ما لم يكن يسعها تقبُّلَه. ولمحاولتها الخامسة،

بدأت تشعر بالانقباضات الأولى، يوم أربعاء. فراحت تجهد وتقاوم، عَلَّها تنجح في تجاوز ذلك الأربعاء اللعين، ولكن دون جدوى. على كل حال، لم يَدُم الترقّب المصحوب بالتوتر طويلاً، إذ عندما حضرت الممرضة تَزُف لأبي بُشْرى ولادة صبي له، ردَّ عليها بما اعتاد عليه من حِس الدعابة الساخرة: «إنك ولا شك تخطئين يا سيدتي، فأنا لا أُنجب إلّا البنات».

وهكذا نجا الشرف، واستُعِيد الفخر، إذ أصبحت إيڤلين أم يوسف، في ذلك الثامن عشر المشهود من شهر نيسان/ إبريل من العام 1968. فبعد أن أنجبت أربع بنات، نجحت والدتي أخيراً في إنجاب الصبي، وهو، والحق يقال، ما لم يكن بالأمر السهل، لأنها ولكي تقوى عليه، وَجَب عليها استِحْلاف كل القديسين لسنوات أمضتها في رجائهم، والإفراط في الصلاة، ورش المنزل بالماء المقدس، وتقديم الهدايا والقرابين لسيدة الحدث، مريم العذراء عليها السلام، وإحراق البخور عَلَّها تطرد بأنفاسه عين الشؤم التي تصيب بالشر. أخيراً، وُلِدَ لعائلة صنيفر أول صبي من الجيل الجديد. أَسْموه يوسف، وهو إسم جده، ووزعوا الحلوى على أبناء الحي. كان الجيران، والأصدقاء والفضوليون يتوافدون إلى المنزل، لتأمل هذا الإنجاز بإعجاب وافتتان من لا يصدق التغير في مسار الأقدار. وكانت توقعات ما سيكون عليه طفل اليوم في الغد، تتضاعف مُتَّسِقَة مع ما تُؤثِرهُ كل

عائلة: «مَن سيشبه يا تُرى؟»؛ لعل في أنفه دِقَّة أنوف آل صنيفر، ولكن جبينه الضيق الصغير هو سليل آل القارح. إبهاما قدميه يشبهان تماماً إبهامَيْ خاله فؤاد؟ أيكون صنيفراً حقيقياً؟ أم سيشبه عائلة أمه؟» وكان أبي، الذي لم يصدق بعد ما جرى، يجيب: «لم ننظر إلى وجهه بعد».

كان كل شيء يفرّق عائِلَتَيْ والديّ: التراتبية الاجتماعية كما أنماط العيش. كان والدي يحلم أن يصبح محامياً، فهو كان بِكر عائلة وُلِدَ لها خمسة أولاد. ولكنه اضطر إلى وضع حد لتحصيله العلمي لينصرف إلى العمل مع والده في النِجارة، فيساعده في صناعة النعوش. غير أنه كان يتمتع بشغف عيش طبيعي جعله يُقْبِل على الحياة بفرح، ومواجهة الأمور أياً كانت بتفاؤل من لا يَهوى التعقيد. ألم يكن يصنع من الأكاليل التي كانت عائلات الموتى تُغدِقُها على النعوش، باقات وافرة الأزهار، بوفرة أحزانهم، يهديها لمعشوقته في كل مرة يلتقيان فيها، فيضمن بذلك افتتانها به لِرِقَّة حاشيته وظُرْف غَزَله.

كان منزل العائلة يقع في الحدث، في الضاحية الجنوبية لبيروت، في منتصف الطريق بين الكنيسة والمقبرة. كل المواكب الجنائزية تَمرُّ من هنا. ومع الكنيسة، كانت عائلة صنيفر تقيم علاقات جِوار طيبة، إذ كانت جدتي تُلَمِّع وتُشَمِّع المكان المقدس، وتحضِّر خبز القُربان، وتنظِّف ملابس الخوري، أملاً منها في أن يقوم الرب برعاية منزلها وعائلتها.

وكانت تقضي في الكنيسة وقتاً أطول مما كانت تقضيه في البيت، مما كان يثير سُخط جدي واغتياظه. وفي يوم أحد، وإذ طال انتظاره لحلول موعد الغداء، قام فَحَضَّر الطعام بنفسه، وقصد الكنيسة، ففرشه أمام بابها، كما لو كان يتحضر لتناول وجبته خلال نزهة في الهواء الطَّلق. وبقيت النادِرة مشهورة في بلدتنا، تُمَلَّح بها الأحاديث والسهرات، لوقت طويل.

كان لهذا الجوار تأثيره الواضح على والدي، الذي انضم إلى حركة الكشَّاف، وقد تولّى خوري القرية إدارتها. كُثُر هم الذين كانوا يدعونه «الرِّيس عبدو» حتى آخر أيامه.

كان والدي مؤمناً بالله، ولكنه لم يكن يهوى ممارسة الشعائر الدينية بانتظام، فهو لم يكن يرتاد الكنيسة إلّا في مناسبة عقد قِران، أو معمودية، أو دفن. وخلال القدّاس، كان يولي اهتمامه للثرثرات فيصغي لها، أكثر مما يوليه للكلام المقدس. أما بالنسبة إلى والدتي، فهي كانت على عكسه تماماً، إذ لم يكن يجوز أبداً المُزاح مع الله. فكانت تحضر القدّاس كل صباح قبل أن تفتح أبواب متجر العائلة. فكل يوم، وبعد أن تقرأ في نَفَل فنجان قهوتها ما تخبئه لها الأقدار، كانت تزور الكنيسة لتَسْتَوْثِقَ السيدة العذراء همومها وقلقها، قبل أن تخرجَ منها دامعة العينين في أغلب الأحيان، كما لو أنها تحدثت للتّو مع صديقة ودودة، بل قل مع طبيبة

نفسانية، مع فارق وحيد، وهو أنّ الجلسة في رحاب الله كانت مجانية.

وبالنظر إلى تحدّرها من عائلة ميسورة الحال نوعاً ما، كانت والدتي تتكلم لغات ثلاث: العربية، الفرنسية والانجليزية. وكان لا بد لها أن تتزوج من ابن عمّ غني، عرض عليها مواكبته في هجرته إلى الولايات المتحدة الأميركية. ولكن والدي ما لبث أن تقدم طالباً يدها، ففتنها بسحره، إذ كان يجيد الكلام، فينطق بالمعسول منه، وكان دائم الأناقة فنجح، بالرغم من أصوله المتواضعة وتحفظات جدي، أن يخترق حصن العائلة التقليدية المنيع؛ فدخلها، وتمكن حتى من استجلاب تعاطف هذا الأخير الذي اشتهر بقسوته. وبمساعدة مالية من جدي، استطاع والدي شراء متجر كبير، تولّت والدتي إدارته على نحو عكس رباطة جأشها وصرامتها. فهي كانت تتقدم على نساء جيلها بما امتازت به من مهارة تامة في الإدارة المالية، التي لم تكن لتتوانى في تطبيقها حتى على عائلتها الخاصة؛ إذ كانت تنتظر دائماً نهاية التنزيلات لتبتاع لنا ما نحتاجه من الفساتين والأحذية والألعاب، التي لم تجد من يشتريها لما كان يشوبها من عيب أو نقص. ثم إنها كانت تتعامل مع المصرفيين، والمورّدين والممولين، وهم كانوا غالباً من الرجال، وتقوم بجولات على بائعي الجملة، وتتولى الإمساك بالصندوق. وبفضل هذه الادارة الحازمة، نشطت تجارتنا،

وازدهرت شيئاً فشيئاً، إلى أن أصبحت محالنا، وخلال سنوات قِلال، أكبر وأشهر محالّ المنطقة، وهو ما لم يكن ممكناً لولا اندفاع واجتهاد والدتي. وفي المنزل، كما في الأعمال، كنا جميعنا، حتى والدي وأخي، ننصاع لقواعدها الصارمة.

أما والدي، فلقد كان يفضل العناية بالمبيع عِوضاً عن الإهتمام بالأعمال الإدارية. ولكن حتى في هذا المجال، لم تكن والدتي لتثق به. فاحتساب مال الصندوق في آخر النهار، كان يشكل بالنسبة إليه عذاباً مريراً. فلا مالها ولا مسلكها، الذي كانت تَتَّبِعُه من كانت مثلها امرأة تنتمي إلى عائلة راقية، نجحا في حمل والدي على التعديل في عاداته ونمط عيشه المتواضع، صحيح، ولكن أيضاً الميّال إلى البذخ والاحتفال. لذا كان يكفي لأحدى الزبائن أن تقوم بسرد حياتها ومشاكلها المالية عليه، حتى يبادر إلى إهدائها تنزيلات ملفتة في أسعار السِّلع. ولم يكن غريباً عليه أن يقدِّم الهِبات، وهو ما كانت والدتي تقابله بردات فعل عنيفة، قائلة له: «أُذكِّرك يا عبدو، أننا لسنا جمعية خيرية؛ إنها تجارة».

وكلما اضطردت التجارة، كلما قلَّصت والدتي من الوقت الذي كانت تخصصه لنا، مما حملنا، أنا وشقيقاتي الثلاث ـ ريتا وراشيل وداليدا ـ إضافة إلى شقيقنا الأصغر، يوسف، إلى التعلُّم كيفية تدبُّر أمورنا بأنفسنا، معتمدين واحدنا على

الآخر، مما أَوْثَق عُرى التَّعاضد بين بعضنا البعض، فغَدَوْنا لا نفترق، كأصابع اليد الواحدة.

كنت وشقيقاتي نرتاد مدرسة راهبات القلب الأقدس للبنات، حيث الصفوف سيئة الإضاءة، باردة الأجواء، رمادية اللون. على كل حال، نادراً ما كان للّون من وجود في تلك المدرسة، حيث الملابس الملونة، كانت تثير الريبة في نفوس مَن تراها من الراهبات اللواتي كن يَفْرِضن علينا ارتداء التنانير المغَضَّنَة الكحلية اللون مع القمصان البيضاء. وفي تلك البيئة الثقيلة الوطأة، القابضة للصدر، اقتصرت الألوان كلُّها على الغَفَّارة الأرجوانية اللون التي كان يَجْتَبُّ بها كل من البطريرك الماروني والحَبْر الأعظم في الصور المعلقة على الجدران الرمادية المزدانة بصلبانٍ كبيرة الحجم.

مدرسة راهبات القلب الأقدس للبنات، بناء مُسَوَّر بجدران عالية، كما لو أنّ الغرض من تشييدها كمن في الحؤول دون شرود العيون الحالمة إلى الخارج. ومع ذلك، نجح بعض الصِبية في إيجاد فرجة في واحدٍ من الأسوار، فراحوا يمررون من خلالها رسائل يضربون فيها المواعيد للفتيات التَّواقات إلى الحرية وشيء من الخِفة والرعونة.

وطوال تلك السنوات الدراسية العديدة، كان علينا أن نَتَقَبَّل كل شيء بطاعة. لم نصدق ما يُقال لنا دون تساؤل أو نقاش، ونسارع إلى العمل بما يُطْلب منا، ونخضع للنظام فنطبقه بحذافيره، ونَلْزَم الصمت فلا نأتي باعتراض أو

شكوى، ولا حتى من الألم. لم أشتكِ يوماً من تلك المَدرّسة السورية الجنسية التي دأبت على استعمال كنزة واحدة منا لتجلس عليه، فتحمي بذلك جواربها من كرسي القشّ، والتي كانت تضربنا بمسطرتها الخشبية على رؤوس أصابعنا عندما كانت الذاكرة تخوننا. ولم أعترض طوال تلك السنوات المدرسية، على صعود الدرج المؤدي إلى المدرسة، وقد حملت على ظهري مِحْفظة كتبي. تلك كانت جُلْجُلَتي اليومية، التي اعتدت خلالها احتساب الأدراج الإثنتين والأربعين، علّني أصرف به خاطري عن التفكير بالجهد الذي كنت أتكبده؛ ولكن دون جدوى، فدرب الصليب تلك كانت تبدو لي دوماً لامتناهية.

لم أكن كذلك لأَنْفُر من القداس، وطوال الصلوات، ووفرة الأدعية التي كانت الراهبات تحملنا كل يوم على تلاوتها، ولكن الضيق كان يقبض على صدري كلما حَلَّ فعل الإعتراف. ففي كل أسبوع، وخلال امتحان الوجدان والضمير الذي كان يسبق ذلك الفعل، كنت أجهد لأجد ما أُقرّ به وأَتَنَدَّم عليه من خطايا. وكل الصعوبة كانت تكمن في تأليف ما يمكن له أن يقومَ مقام الخطيئة البسيطة، لكي لا أُلْزَمَ بالإكثار من تلاوة الصلاة المستهلة بـ «السلام عليك يا مريم...»، وإنما فقط بما يكفي لكي يكتسي فعل ندامتي بما يلزم من مصداقية، فيسهل تقبُّله.

لو طُلِب مني اليوم أن أُلخِص بعبارة مقتضبة سنوات

دراستي تلك، لما وجدت في خاطري أبلغ من عبارة «سنوات الأنا المخنوقة»: ففي المنزل، نَهَجَت والدتي في تربيتنا على المبدأ القائل إنه ليس للفتيات حساب، في وقت كانت فيه نساء أخريات في المدرسة تعمدن إلى تعليمنا، يوماً بعد يوم، أنّ الأنا بغيضة مَقيتة، وأنّ الفضيلة الكبرى تكمن في التضحية وإنكار الذات.

كنا في المدرسة نعيش في عالم مقفل، لا نخالط فيه غير المسيحيين. نادرات كن المسلمات بين التلميذات. كانت سوسن، زميلتي على مقعد الدراسة، المسلمة الوحيدة في الصف، وكانت سنّية الانتماء. لم تكن الراهبات لتوفر عليها مشقَّة حضور القداس. وإن كانت تنجو من التجربة الصعبة التي كان يشكلها كل من فِعْلَي الاعتراف والمُنَاولة، إلّا أنها كانت معرضة لسماع عظة الكاهن التي لم يكن بالإمكان تفاديها. وفي يوم من الأيام، وبينما كانت سوسن تسجد كالأخريات مصغية للكلام المقدس، انهارت فاقدة الوعي أمام المذبح. فظَنَّت بعض الفتيات أنها لم تستطع تحمل رائحة البخور، في وقت راحت فيه أخريات تعلل غيبوبتها بشروحات صوفية: بما أنّ سوسن لم تُحَصَّن بفعل المعمودية في صغرها، فهي لم تَقْوَ على احتمال وجود الروح القدس...

أمضيت برفقة سوسن سنة دراسية كاملة، دون أن أعلم أي شيء عن دينها. وبالرغم من دُنُوّها اليومي، إلا أنها لم

تحدثني يوماً عن الإسلام، ولا عن أسسه ومبادئه. وأنا، لم أطرح عليها يوماً أي سؤال. وعلى أية حال، لم تكن الراهبات ولا المدرسات تساعِدْنَنا على فهم هذه الديانة التي كنت أجهلها. مما لا شك فيه أننا كنا نَتَلَقَّى المعارف العديدة والمتينة، ولكن تلك المدرسات نسَيْنَ تعليمنا التعايش والتحاور مع من اختلفوا عنا، أي الطوائف السبع عشرة التي كانت تتشارك الأراضي اللبنانية. ألم يكون وجود هذه المجموعات الطائفية ليبرر وَفْرَة المعلومات التي كان يمكن لعدة كتب في التاريخ اللبناني أن تَزْخَر بها. فمنذ العام 1920، وكل طائفة تأتي بتراثها، وأنماط عيشها، وتحالفاتها، وفي بعض الأحيان، ولاءاتها حتى. ولكن في مدرستي، كما في غيرها من المدارس، كانت كل هذه الأمور تمر بصمت، صمت يُغرِق الذاكرة الجماعية التعددية في غياهب الجهل والخوف من الآخر.

قد لا أعلم أبداً الأسباب التي كانت تحمل تلك المدْرَسة على استثارة الغثيان في نفسي. أذكر الآن أنني لم أكن أقبل بشهية على الطعام الذي كانت تحضِّره أمي على عجل كل صباح. غالباً ما كنت أُبقي على طعامِي هذا حبيس المِقْرَأ في الصف، إذ كان في رمي الغذاء إهانة للفقراء الذين لا يجدون ما يقتاتون به. وهكذا، كنت أتفادى صناديق القمامة في الملعب، خِشية أن يُفتضح أمري، فأنال العلامة السيئة التي كانت إحدى التلميذات المولجات بمراقبتنا أثناء الفُرَص،

تسارع إلى إعطائنا إياها. وبهذا، كان ينتهي الأمر برائحة العفونة تفوح من المِقْرَأ، مما كان يزيد من شعوري بالقرف.

لم تكن وجوه الراهبات الباردة الحزينة لتتوجه إلينا إلّا لكي تذكرنا بوجوب احترام القواعد وتفادي المحاذير. ولم أدرك، إلّا بعد مرور زمن طويل، أنهن كُن، هُنَّ أيضاً، في معاناة مع الملل، مثلنا تماماً. لعلهن كن يفتقرن للحب والرعاية، فلقد كُنَّ عاجزات عن الإتيان بأية كلمة أو إشارة تُفْصِح عن محبتهن لنا، أو عن اهتمامهن الحنون الخالص بنا، حتى خلال ساعات التعليم المسيحي.

إنّ أكثر أوقات طفولتي حباً إلى قلبي كانت تلك الاجتماعات العائلية حول مائدة الطعام. فكل مساء، ولا سيما يوم الأحد، كانت العائلة تجتمع بكامل عديدها، ونادراً من دون ضيف. كان والدي يتصدَّر المائدة، فيجلس في مكانه المعتاد، كما لو أنه يتصدر مجلساً للشورى. كان كريم النفس وكثير الكلام، فلم يكن ليبخل علينا، نحن المتحلقين حول الطاولة، بتأدية عرض فني منفرد، فنقوم مقام الجمهور المعجب بمواهبه في السَّرد والإنشاد. شكلت تلك الاجتماعات حول مائدة الطعام مكوناً أساسياً في تربيتي، اذ كان لوالدي دوماً قصة قديمة يسردها أو حكاية يرويها على مسامعنا، قبل أن يتوّج العرضَ بالغناء، فيستهله بدندنة بعض النغمات الموسيقية، فنردّ عليه مجتمعين كما الخَوْرس. ما من

توتر ولا من غضب كان ليقوى على الصمود أمام ذلك الصوت، ولا حتى غضب والدتي. فهو كان يعشق الغناء، فيغني، أينما كان وفي أي وقت، بأغانٍ حزينة، وبأخرى تنشد الحب، وبأخرى تستحضر ماضي الموارنة. فإن ثارت أعصابه، غَنّى؛ وإن فَرِحَ، غَنّى. وكان لصوته سحر الصمت، يحملنا بعيداً إلى واحات تزخر بالمشاعر والانفعالات. وهكذا، غدت أغاني وديع الصافي، وفيروز وأم كلثوم، أغاني والدي. أدرك اليوم أفضل من السابق شغفه بالعصافير، فهو لم يكن ليرتشف قهوته الصباحية إلّا على الشرفة بصحبة عنتر، الحسون الذي يزقزق ما إن يراه يُطِل؛ وهو يُصرّ على أن يكون عنتر أفضل العصافير شَدْواً. فلأجله، كان يشتري الأشرطة التسجيلية، ليغذي مسمع عصفوره ذاك بزقزقة أبناء فصيلته، عَلَّه يتعلم منها، فيزداد براعة. لم يكن من السهل عليه أن يجد تلك الأشرطة، ولكن الأمر كان يستحق العناء. وفي يوم من الأيام، ولكي تستمع إلى بعض من أغاني كلود فرانسوا (Claude François) أو فريق البيتلز (Beatles)، أقسمت أختي راشيل لأبي أنها، ولكثرة ما استمعت إلى هذه الأشرطة، باتت هي الآن أيضاً تزقزق...

غزْوَة السلاح

حتى سن الثالثة عشرة، عشت في المدرسة مللاً مطواعاً شَلَّ تفكيري. ولكن حدثاً غير متوقع قلبَ كل شيء رأساً على عَقِب. لا أستطيع أن أنسى يوم الأحد ذاك، الذي وافق فيه الثالث عشر من شهر نيسان/ أبريل من العام 1975.

ففي ذلك اليوم، عقدت العزم على الالتحاق بالكشّاف، ورحت أتخيل نفسي أقضي ليلة في كَنَفِ خيمةٍ، نُصِبَت في الطبيعة، بعيداً عن عائلتي. يا للمغامرة الكبرى! زرت بصحبة أهلي مارغو (Margo) رئيسة الكشّاف، وقد كانت صديقة لوالدي، آملة منها أن تقوم بتسجيلي، فأغدو واحدة من أعضاء فريقها. كانت الطبيعة في ذلك اليوم الربيعي الهانئ والمشمس، تتفجَّر حياة وضياءً، إذ فاحت أشجار اللّوز، والليمون، والبساتين المكسوة بالخضرة الطرية الندية، بعطرٍ يحمل إلى النفس السلام والسكينة. ولكن انضمامي إلى الكشاف لم يشكل في ذلك اليوم محور الحديث الذي، عوض ذلك، دار حول رجال حملوا السلاح، وباص كان ينقل فلسطينيين، وكتائبيين، وقتلى وقعوا أمام الكنيسة. كان والدي يسرد تلك الأحداث بصوت مختلف عن ذلك الذي

عهدته لديه، إذ كان يرشح قلقاً وثورة. وفي الأيام التالية، ضجَّت ضواحي بيروت بمواجهات مسلحة، ما لبثت أن امتدت إلى مناطق أخرى من الشمال إلى الجنوب.

التحقت بفتيات الكشَّاف في الأيام الأولى من فصل الربيع. وبالكاد سُنِحَت ليَ الفرصة لتعلم بعض الأغاني والاطلاع على تاريخ بادن باول (Baden Powel)، حتى سقط حلمي بالتخييم كلياً، في شهر حزيران/يونيو من تلك السنة، في ظل جولات العنف ومحطات وقف إطلاق النار التي كانت تنذر بالمنحى الخطر الذي بدت «الحوادث» وكأنها تتخذه.

لم نكن لنصدق بعد أنّ الحرب قد اندلعت، إذ كانت كلمة «حرب»، غير معقولة في بلاد لا يتكبد فيها المواطنون عناء إقفال أبوابهم بإحكام، في بلاد درج الناس على نعتها بسويسرا الشرق، لجبالها المُلْتَحِفَة بالثلوج. فلبنان ـ كما كنا نقرأ في كتاب الجغرافيا ـ وطن يحمل رسالة التعايش، بلد يشكل مفترق طرق بين الشرق والغرب؛ فمن أقام في بلد كَلُبنان يطيب العيش فيه، لا يؤمن بالحرب. ومع ذلك، فإنّ العنف في تزايد، وتقدم واضطراد كل يوم. كل يوم تتكاثر الحواجز المسلحة، والطرقات المقطوعة. كل يوم، تُسمع الطلقات النارية، ويُحكى عن الرصاصات الطائشة والقتلى.

يقع منزل العائلة في الحدث، وهي بلدة يقطنها المسيحيون

الموارنة بشكل خاص. فمهدي هو المسلم الوحيد في الحي، وهو عامل شيعي، يعيش مع عائلته وأولاده السبعة في غرفة واحدة. تفصلنا عن مخيم الفلسطينيين، القائم في برج البراجنة، ثلاثة أو أربعة كيلومترات فقط. أذكر أننا درجنا على ارتياد المطعم لتناول الغداء العائلي، على شاطىء البحر. كانت سيارتنا تمر بمحاذاة المخيّم، حيث شعارات المنظمات الفلسطينية تجتاح الأحياء. كنت أرقب وراء تلال الرمل والأسلاك الحديدية، وبين الأكواخ الوضيعة الفقيرة، المبنية من أحجار الباطون وألواح الصفيح، وتعالت فوق سطوحها هوائيات أجهزة التلفزيون، وجود رجال يعتمرون الكُوفية: إنهم الفدائيون. كانوا يثيرون هلعي وذعري بوجوههم المقنعة. كنا نلتقي بهم وأسلحتهم المرفوعة في طريقنا، وقد تكَدَّسوا في الشاحنات، مشهرين بنادقهم. ننظر برعب إلى مواكبهم العسكرية وهي تخترق طرقات بيروت، حيث يتبخترون فيها كالمنتصرين الغالبين. إنّ فقر مخيمهم لا يؤثر فِيَّ. فبحسب الشائعات، فهو يعج ويزخر بالثروات، والفلسطينيون أبْقَوا أنفسهم في حالة من عدم الاستقرار الطوعي، لكي يستمروا باستجلاب المساعدات وتحصيل الأموال. يُحكى كذلك أنّ مخيماتهم المُنْشَأة حول كل من بيروت، ومدينَتَيْ صيدا وصور الجنوبيتين تأوي أربعمائة ألف فلسطيني، في بلد بالكاد يعدّ ثلاثة ملايين لبناني.

نشأت مع الاعتقاد الراسخ بأنّ المنظمات الفلسطينية، ولا سيما منها منظمة التحرير، تمثل تهديداً حقيقياً للبنان. كان والدي يلوم الفلسطينيين لأنهم لم يعرفوا كيفية الدفاع عن أرضهم، ولأنهم كانوا مُجْحِدين بحق لبنان، الذي استضافهم على الرحب والسعَة، عندما طُرِدوا من أرضهم عامَ 1948، ثم من الأردُنّ عامَ 1970، إثر أحداث ما اصطلح على تسميته بأيلول/سبتمبر الأسود[1]: «الفلسطينيون، قال يوماً والدي، يستغلون ضيافتنا عندما يدَّعون البطولة التي يَفْخَرون بها، فيطلقون العمليات الفدائية الهجومية ضد اسرائيل، بينما يدفع اللبنانيون غالياً ثمن ردات فعلها الثأرية واجراءاتها الانتقامية التي تطالهم في الصميم». كان والدي يعيد السبب في مأساة لبنان إلى اتفاقية القاهرة التي تم عقدها سنة 1969، والتي أعطت المقاومة الفلسطينية الحق بالتسلح والتصدّي لإسرائيل انطلاقاً من الأراضي اللبنانية. فكان من شأن هذا الوجود المسلح أن تسبب بزرع بذور الشّقاق والارتياب بين اللبنانيين الذين انقسموا إلى معسكرين إثنين:

---

(1) في أيلول/سبتمبر من العام 1970، أدّت المواجهات بين كل منظمة التحرير الفلسطينية والجيش الأردني إلى طرد فتح من الأردن، وقد كان أول بلد استضاف لاجئين فلسطينيين. فاستقرت المقاومة الفلسطينية في لبنان.

المعسكر الموالي، وقد ضم المسلمين خصوصاً، والمعسكر المعارض ذات الغالبية المسيحية. وسرت شائعات تنبئ باستعداد الفلسطينيين لإخراج المسيحيين من لبنان بغرض الحلول محلهم، وذلك بمساعدة كل من الأميركيين، والدول العربية، والأحزاب اليسارية والمسلمين اللبنانيين. فخاف المسيحيون من أن يُلقى بهم في البحر. مما كان يثير قلقي، إذ لم أكن لأجيد السباحة.

بحلول الصيف، قرّر والديّ كعادتهما في كل عام الهروب بنا من عبء حرارة بيروت المضنية. وفي وقت كان فيه العنف ينتشر شيئاً فشيئاً، أمضينا ذلك الفصل في الشبانِيَّة، وهي قرية تقع في منطقة جبل لبنان، حيث كان يطيب للبيارتة الاصطياف، فجعلوا منها مَقْصداً، شأنهم في ذلك شأن أمراء الخليج العربي التّواقين إلى الحرية والهواء المنعش العليل والملذّات. كان منزلنا يقع في أعالي الشبانية، فيتوسط كروم العنب، ويتفيأ في ظلال شجرة تين ضخمة. صحيح أنّ والدتي لم تكن لتطمئن لتسلقي هذه الشجرة الملعونة، التي شنق يهوذا الإِسْخَريوطي نفسه يأساً على واحدة من أغصانها. غير أنني، وبالرغم من تحذيراتها المِلحاحة، فإنني غالباً ما كنت أجد لنفسي، على غصن منها، مجلساً متّسعاً بما يكفي ليضمن لي ملجأً مريحاً، أنصرف فيه إلى تذوق التين الأسود الناضج النديّ، وإلى مراقبة مَلْقى شقيقاتي بالعشاق، وهو ما

كنت أجد لي فيه لذة ماكرة، واستراق النظر إلى جيراننا من الدروز، إذ لم أكن أريد أن أفوّت على نفسي فرصة مؤاتية كهذه أرى فيها عن قرب ما يمكن أن تكون عليه عائلة «مُتَقَمِصّة».

يُحكى في ذلك الجبل أن كل درزي يموت، لا يلبث أن يتجسَّد في مولود درزي جديد، يذكر ما عاشه في السالف من «الأجيال». كان من شأن هذا الأمر أن شغل بالي وأثار حيرتي وفضولي في تلك الأيام، لا سيما أنني ما كنت لأجد من يشرحه لي. فطِوال ذلك الصيف، لم تلتق عائلتي بجيرانها الدروز إلّا عَرضياً. ومع أنّ المسيحيين والدروز كانوا يتساكنون في هذه المنطقة، إلّا أنهم كانوا يحرصون على اجتناب الاختلاط ببعضهم البعض. فأنا، من الدروز، لم أعرف إلّا صاحب دكان البقالة في الحي، حيث كنت أشتري السكاكر والمرطبات، والذي كان يثير الرعب في نفسي، بِقَلَنْسُوَته البيضاء، وسرواله الأسود الفضفاض، وشاربيْه الكثَّين المرفوعَيْن إلى أعلى. وغالباً ما كنت أتساءل عندما أراه، ما إذا كنت في حضرة الأمير الدرزي فخر الدين الذي حكم جبل لبنان في القرن السادس عشر، والذي سبق لي أن رأيت صورته في كتاب التاريخ. ولعل طائفة الموحدين الدروز هي الأكثر سرية من بين كل المجموعات الطائفية في لبنان، حيث تبقى خَفِيَّة على العديد من اللبنانيين.

في ذلك الصيف، وفي تلك القرية، عرفت أول حب لي. كان اسمه نبيل. أذكر أننا يوم كنا نتنزه بين الكروم قطعنا على نَفْسَيْنا عهداً بالزواج وبإنجاب العديد من الأطفال.

وفي يوم من أيام شهر آب/أغسطس، إضطررنا إلى الرحيل نهائياً عن الشبانية، مع أنّ الجبل بدا لي آنذاك هادئاً آمناً، لا يعكر صفوه شيء، فالناس تتحضر لموسم قِطاف العنب والتفاح. كنت أخشى العودة إلى بيروت وإلى المدرسة حيث سيبدأ العام الدراسي، كان والديّ غائبين في معظم الأوقات، يقصدان المدينة كل يوم للعمل في المتجر. وفي احدى الامسيات، وبينما كنا ـ أنا وشقيقاتي وشقيقي ـ ننتظر في المنزل عودتهما، أقبل علينا الجيران مسرعين، لعلمهم باكتشاف جثة درزي قتيل في بلدتنا الحدث؛ فقررت الميليشيا الدرزية الانتقام لمقتله، ونصبت الحواجز بغرض اختطاف المسيحيين في هذا القطاع من الجبل. رأى أحد المارة رجالاً مقنّعين يوقفون كلاً من والدي ووالدتي، ويحملانهما على الترجُّل من السيارة. لم يُعرف ما حصل لهما بعد ذلك، ولم أجرؤ على طرح السؤال، في وقت شُغِل فيه الجيران بإقفال الأبواب والنوافذ بإحكام، قبل أن يجتمعوا في الدار. أخذت ريتا، أختي الكبرى، يوسف، الذي لم يكن له من العمر إلا سبع سنوات، في حضنها، تُطَمْئِنُه؛ حبسنا أنفاسنا، ننتظر خبراً. أصبح الهواء في المنزل خانقاً. جلست على الأرض،

مسندة ظهري إلى الحائط، محدقة بشعاع النور المنبثق من تحت الباب، أترقّب خيالاً، آملة أن يكون خيال والديّ. ورحت أتساءل في نفسي: هل لا يزالان على قيد الحياة؟ هل سأتمكن من رؤيتهما مجدداً؟ لقد اعتقدا أنهما يعملان على حمايتنا يوم جاءا بنا إلى هذا الجبل، بعيداً عن خطوط التماس والقصف المدفعي. ولكن الحرب اسْتَشْرت وامتدت حتى بلغت هذه الأعالي. بدا لي الإنتظار طويلاً، لا نهاية له. أريد أن أجدهما؛ أريد رؤيتهما؛ إنني أخشى الأسوأ، فالخوف يتدفق من أعماقي كحمم بركان، وقد كان حتى ذلك الوقت، يُعَشِش في قعر ذاتي، قبل أن يطفو فيها جاذباً معه كل ما كَبَتُّه من مخاوف.

وأخيراً توقفت سيارة والديّ أمام الباب، وأبصرت، بارتياح كبير للغاية، أبي المكفهر الوجه، وأمي المرتجفة. إنهما على قيد الحياة، سالمين، ولكنهما كانا على قاب قوسين أو أدنى من الموت إعداماً. لقد تعرَّف عليهما أحد الرجال المقنّعين، فأطلق سراحهما، وهما يدينان له بحياتهما. لم يتعرف والدايّ على هويته، ولكنَّ عينيه الخضراوين خلف القناع كانتا مألوفَتَيْن لديه. وفي صباح اليوم التالي، غادرنا نهائياً مَصْيفنا في الشبانية. لم أرَ مجدداً تلك القرية. لم أر نبيل ولم أستطع أبداً أن أبوح له بالحزن الذي اعتصر قلبي لابتعادي عنه.

وبعد بضعة أشهر، قُتِل كمال الحاج، فيلسوف الأمة اللبنانية، بضربة فأس هشَّمت رأسه، في الشبانيّة. في تلك الحقبة، كان يراودني حلم باستمرار، فيقلق راحتي، إذ كنت أرى فيه نفسي وأنا أجهد في البحث عن أبي لأجده جثة هامدة مقطوعة الرأس على سطح منزلنا. واستمر هذا الحلم يراودني لفترة طويلة؛ ولدى أول شعور بالخوف، كانت ذكراه تعاودني فترمي بي فريسة للاضطراب والقلق.

السبت الأسود

لدى عودتنا إلى بيروت في أيلول/سبتمبر من العام 1975، أخذ كل من ازدياد عمليات الخطف، واضطراد فظاعة التعذيب، الذي كان يتعرّض له المخطوفون، يثير قلقي ويطلق العنان لمخاوفي. كانت أخبار العنف، التي كان يسردها مَن تعرَّض له من الرجال، تنتشر كل يوم، فتحتل الصفحات الأولى في الصحف بمحاذاة صور الجثث المطروحة أرضاً والتي عانى أصحابها بتر الأطراف والتنكيل. قيل آنذاك، إن أبشع عمليات التعذيب كانت من صنيع الفلسطينيين المعزَّزين بالمرتزقة من الأجانب. وراحت أخبار الاغتصابات والتمثيل بالمنكَّل بهم تنتشر كما النار في الهشيم، فيتبارى الساردون في وصف تفاصيلها الشنيعة، إذ كان يُرَدُّ على الخطف بخطف مُضاد، وعلى التعذيب بتعذيب أبشع منه، وعلى عمليات القتل بالمجازر.

في أوائل أيام أيلول/سبتمبر من ذلك العام، سرت شائعات تُنْذِر بهجوم يستعد الفلسطينيون لشنّه على الحدث. فبادر أهل الحي، ودونما استعداد مسبق، إلى التزام تعبئة احترازية، إذ راح الرجال يتخذون لهم من سطوح المنازل،

مواقع رصد ومراقبة لأية حركة أو إشارة تثير الارتياب وتنبئ بالخطر. يوم ذاك، أخرج والدي أسلحة الصيد وشرع ينظفها، استعداداً منه لمواجهة وصدّ الهجوم المرتَقَب. وبالرغم من الخوف الذي كان يتملكني، إلا أنني كنت فخورة به؛ فمبادرته تلك، إنما دلت حينها في نظري، على جسارته وشجاعته.

ويوماً بعد يوم، كان العنف يستشري ويتمدد، يواكبه ظهور السلاح الحربي في كل مكان من المنازل والشوارع حيث، وعند كل جولة، كانت جَلَبَته تشتد، إذ كانت الطلقات النارية لا تلبث أن تُسْتَتْبع بالقذائف المدفعية، لدرجة بدت معها بندقية والدي، التي كان يستخدمها للصيد، واهية تافهة، مثيرة للضحك، مما دفع بها إلى الخزانة من جديد، حيث عادت فوجدت مكانها. وفي ظل هذه الأجواء، تركَّز غيظ الجيران وغِلُّهم على جارنا الشيعي، مهدي، إذ كان من شأن كل قذيفة تسقط، أو كل رشق رصاص يمزق الصمت، أن يجرَّ عليه سباب وشتائم سكان الحي. فكان بعضهم يقول إنه يقوم مقام المُسْتَطْلِع للمدفعية العدوة، وإنه يعمل جاسوساً لحساب الفلسطينيين. فانتهى به الأمر إلى الشعور بالخوف، والرحيل عن الحدث ليستقر في الضاحية الجنوبية لبيروت، على مقربة من المسلمين.

ومع الحرب، أصبحت المواكب الجنائزية تسلك أكثر فأكثر الطريق الصغيرة التي كانت تَمرُ أمام منزلنا، بين الكنيسة

والمقبرة. ومن نافذة منزلنا، حيث كنت أقف خلف الستائر، كنت أرقب مرور هذه المواكب، فتلفتني وجوه أولئك الذين يرافقون عزيزاً إلى مثواه الأخير لتثير الحزن في نفسي أكثر من النعوش المحمولة على أَكُفّهم.

كم نثرنا، أنا وأخوتي والجيران، من ذكريات الطفولة على هذه الطريق، وفي كل من زواياها المخَبَّأة! كم من المرات زَرَعْنَاها ذهاباً وإياباً، وقد ازدنّا بآلاف العقود من الياسمين نتباهى بها! كم من الساعات انتظرنا على قارعتها مرور ذلك البائع المتجول الذي كان يبيع الأطفال غَزل البنات. كم مرة جعلنا منها مرتعاً للهونا، ومستقراً لتمارينا المتواصلة على المسرحيات التي كنا نعرضها في الأعياد، ولا سيما مع حلول ميلاد أحدنا، أمام الأهل والأصدقاء. كم مرة، طال لعبنا وسط تلك الطريق حتى غروب الشمس، حين تدق ساعة دخولنا إلى المنزل، فنلزمه حتى الصباح، إذ كان الخروج منه ليلاً، أمراً محظوراً. على كل حال، كان الليل يثير دائماً القلق في نفسي، ولعل السبب في ذلك يعود إلى حكايا جدتي. فأيام كنت صغيرة جداً، كانت «تيتا راحيل» تحكي لنا قصص الغجر الذين يسرقون الأولاد المتسكعين في الشارع، وتُردد على مسامعنا أنشودة تروي قصة فتاة طرية العود خطفوها الغجر وذهبوا بها بعيداً. أذكر أنّ صوتها الجميل والحزين في آن، كان دائماً يحمل أختي راشيل على البكاء.

اعتقدت طويلاً أنّ جدتي كانت تحدثنا عن تلك البدوية

المسنَّة التي كانت تمر بانتظام في حيّنا، تشرح طالع من شاء من الناس الاطلاع على المحجوب. كان يقال إنها سورية الأصل. لا أزال اليوم أراها وقد ارتدت ثوباً بالياً، أسود اللون مُعَفَّر، وأبرزت من وشاحها وجهاً حفرت فيه السنون الأخاديد، ونقشته الشمس بالنَّمش، وازدان بالوشم على الذقن، فبدا صارماً قاسياً كوجه الساحرة الشريرة في قصة الأميرة الجميلة النائمة. وكنت ما إن أراها تطل في الشارع، حتى أهرول خوفاً علَّني أجد لي مخبئاً في السلالم قبل أن تصل فتدركني.

ومع الحرب، أصبح النهار أكثر تهديداً والليل أكثر جَلَبَة تصمّ ضوضاؤه الآذان، فدويّ القذائف يمزق الصمت، ويقضي على ما يحمله من سكون. وسرعان ما قَلَّت الأيام التي كنا نقضيها في الشمس، وانتهت النزهات. لم يعد هذا الشارع شارعنا، وإنما أصبح مرتعاً يخضع لإرادة القنَّاصين والمِدفعِيين، ولهؤلاء الغجر الجدد، الذين يسرقون حياة الناس، ويصطادون المارة كما الطرائد، حتى بات ميداناً يطوف فيه الموت.

وفي يوم سبت من شهر كانون الأول/ديسمبر من العام 1975، تم العثور على أربع جثث عائدة إلى أربعة شبان مسيحيين كانوا قد خُطِفوا في وقت سابق، وعانوا التعذيب والتنكيل على يد خاطفيهم. لم تكن هذه المجزرة أبشع وأشنع من سابقاتها، ولكن العنف الذي ساد خلال الأشهر

الستة الماضية، كان قد وَلَّد الخوف وأرهق الأعصاب، فدفع بالميليشيا المسيحية إلى إعدام المئات من المدنيين المسلمين، الذين أُوقِفوا على الحواجز «الطيّارة»، في يوم واحد، وبدم بارد. كان ذلك «السبت الأسود»؛ «سبت» الجنون الجماعي الذي شُلَّت فيه قدرة المسيحيين على التفكير، فارْتَضَوْا التقليل، قالوا ان للتسامح حدوداً وان العنف يضمن فرض الاحترام ويمنع الاعتداء على سلامة وأمن المسيحيين. وهكذا اشتعلت بيروت بنيران الحرب الأهلية، وانتشر الحقد بسرعة الوباء، وامتطى الجنونُ البشري حصاناً حَمِساً وَثَّاباً، يَكِرُّ ويَفِرُّ ويُزْبِدُ ويُرغي كَسَيْل عَرِم حتى بات ترويضه فعل استحالة. فانبرى المسيحيون يواجهون المسلمين، ودخلت الحرب مرحلة المغالاة في العنف والفظاعة في الإجرام، وَتَزايد الخوف من الردّ الإنتقامي، فتَضَخَّم كسحابة من الدخان تُرخي بظلالها الكثّة على العقول، فتجردها من الحكمة والمنطق. قد يبدو الأمر غريباً، ولكن النفوس كانت تلتهب حماسة مقرونة بالحقد، اسْتَشْرت حتى تَفَشَّت في حمّى جماعية يُغذيها الاعتقاد الراسخ بوجوب الإستبسال في الدفاع عن وطننا، وإيماننا وحريتنا.

وهكذا وفي الثالثة عشرة من عمري رَحَلْت عن عالم السلام، لتبدأ مراهقتي في عالم آخر، عالم الحرب.

وبعد ذلك اليوم الأسود، لم تطأ قدماي وسط المدينة،

حيث اعتادت والدتي القيام بجولة على بائعي الجملة. فبيروت فقدت طاقتها ورونقها، وساد فيها جو من الخشية والقلق أقوى من أي وقت مضى، اجتاح كل شيء كرائحة مِلحاحة من التحلُّل والتعَفُّن. تمزقت بيروت، وانقسمت قسمان: بيروت الشرقية، وهي منطقة مسيحية، وبيروت الغربية، وغالبية سكانها من المسلمين، وتولَّت «خطوط التّماس» ترسيم الحدود بينهما؛ فإذا بكل المخاوف الدفينة والشكوك المتراكمة بين الطوائف منذ الاستقلال تعود لتستيقظ من جديد، وبعنف.

لم يتأخر الردّ على مجازر «السبت الأسود» بالبروز، إذ تعرض آخر معاقل حزب الكتائب، وهو واحد من الميليشيات المسيحية، لهجوم شَنَّه الفلسطينيون وحلفاؤهم، في وسط مدينة بيروت. فخسر الحزب بعضاً من مواقعه. إنها معركة الفنادق اشتعلت في بيروت. أصيب قلب لبنان.

وعلى خلفية امتزج فيها الخوف بالحماسة، شرعت «ماكينة» حزب الكتائب تُجَنّد المحازبين بين صفوف المسيحيين، ولا سيما الموارنة منهم. فوجود الميليشيات في تلك الضواحي، بات يلقى التبرير، بل قل الترحيب. وكان هذا الحزب الجماهيري، الذي اعتاد أعداؤه على اتهامه بالإنعزال والتحالف مع الصهاينة، يحرص كغيره من الأحزاب المسيحية، على تجنيد المنْضَوين تحت لوائه، في ضاحية بيروت حيث كانت تقيم الطبقة الوسطى من الموارنة. فالأقلية

المارونية، التي كانت فيما مضى تلقى حَظْوَة لدى الانتداب الفرنسي، كانت الطائفة المسيحية اللبنانية الوحيدة التي ارتضت تشكيل الميليشيات. وكان من شأن نشاط هذه الأخيرة أن أدّى إلى إضعاف الدولة مفهوماً ومؤسسات، مع أنّ الموارنة كانوا أسيادها المطلَقين. مما لا شك فيه أن الطوائف المسيحية العشر الأخرى، التي كانت تتخذ من الأراضي اللبنانية موطناً لها، كانت هي الأخرى معنية بالحرب، ضالعة فيها، ولكنها خلافاً للموارنة، لم تشكل الميليشيات.

قدَّم بيار الجميل، وهو مؤسس حزب الكتائب، نفسه على أنه «حامي الطبقات الكادحة من العمال والفلاحين». فبالنسبة إلى هؤلاء المسيحيين لم تكن الدولة اللبنانية لتشكل الضمانة؛ فهي لا تتمتع بما يكفي من القوة والحزم لحماية أمنهم ووجودهم. أما الذين كانوا يتخاذلون، فيدينون الحرب وفظائعها، فكانو يُتَّهمون بالجبن والضعف، وهؤلاء كانوا قلة... ومن كان يدعو إلى الهدوء وضبط النفس واعتماد التفاوض سبيلاً لحل النزاع للإستحصال على الحقوق، فكان يثير من حوله الشكوك، ويُتَّهم بالتحالف مع معسكر الخصم. كان يُقال أنه ما من شعب تمكن من البقاء على قيد الحياة دون اللجوء إلى العنف، إن دعوة المسيح إلى التسامح في قوله «مَن ضربك على خدّك الأيمن، فدُر له الأيسر» لم تعد عبرة يحتكم إليها الموارنة، الذين باتوا يفضلون عليها غضب

المسيح الذي قام فطرد التجار من الهيكل بضرب السوط، في سعيهم لإدانة سِلْم الجبناء وميل الضعفاء إلى التنازلات والتسويات. وهكذا بدا المنطق الماروني السائد بديهياً لا يقبل النقاش والجدال، «فنحن المسيحيين مُلْزمين باعتماد القوة للدفاع عن حرية مُعْتَقَدِنا في شرق مسلم، حيث لم يعد إيماننا وحده يكفي، فالايمان يقتضي أولاً الوجود. ثم أَلَم يَقُم الإسلام نفسه باللجوء إلى العنف والقوة ليفرض مبادئه وتعاليمه عبر التاريخ فالسيف هو الذي حمل الشعوب على اعتناقه».

في أيام الصيف، وعندما كانت جدتي، والدة أمي، «تيتا» سَتُّوت تستضيفني وأختي ريتا للنوم في منزلها القائم في كفرشيما، وهي بلدة تقع في ضاحية بيروت الجنوبية، كنت أجد لي لَذة في الاستيقاظ في الصباح الباكر، لقطاف ثمار التوت الناضجة الطازجة. فما أن أفتح عينيّ حتى أقفزَ من السرير الحديدي، وأعدو حافية القدمَيْن على بلاط الصالة البارد، وقد فاض فيها ضياء النهار من قناطر ثلاث. كنت أجد جدتي، وقد جلست في أشعة الشمس المشرقة للتّو، ترتشف قهوتها على المصطبة، بمحاذاة نافورة ماء، فيما يَعْبُقُ الجو بالعطر الذي يفوح من شجرة الفتنة الضخمة المثقلة بآلاف الأزهار البيضاء والصفراء لا تزال رائحتها تدغدغ أنفي

حتى اليوم. وعندما كنت أعود ملطَّخة الوجه والثياب بالبقع، كانت جدتي تتمتم قائلة: «يا معترة، إنّ التوت يبقِّع الثياب!»، إذ كانت تخشى أكثر ما تخشى غضب والدتي. إنّ شجرة التوت تلك، كانت شجرة مهمة في لبنان لملائمتها لتربية دود القزّ. صحيح أنّ التاريخ الرسمي في مدارسنا، لا يأتي بكلمة واحدة عن دودة الحرير، ومع ذلك فإنّ هذه الدودة كانت السبب الرئيس لإثراء سكان جبل لبنان، ولنزوحهم عنه، وفي بعض الأحيان، لإفلاسهم.

منذ قرون والموارنة يقطنون جبل لبنان، ذلك الجبل الضيق المساحة، والصَّعب البلوغ، الذين جعلوا منه حيِّزَهم بعد أن وجدوا فيه ملجأهم. فمع الغزو العربي، الذي وضع حداً للصراعات مع بيزنطية، جعل الكاثوليك المشرقيون من جبل لبنان مَقْصداً لهم لقرون أمْضَوْها في كنف ودْيانه السحيقة، وفي ثناياه وجنباته، وعلى مرتفعاته. وللبقاء على قيد الحياة في هذا الجبل الشديد التحدّر، وجب عليهم حفر وشقّ الطرقات، وتكسير الصخور، واستصلاح السفوح الوعرة المشمسة ليستخرجوا منها آلاف الجلول والمصاطب فيفيدون منها في زراعاتهم. وهكذا صمد الكاثوليك المشرقيون طِوال قرون. ولكن حيث أخفق كل الغزاة في حملهم على النزوح عن جبلهم دودة الحرير الصغيرة، نجحت فيه، فتمكنت منهم. فمنذ القرن الرابع عشر، والحرير يستنهض في الغرب

تجارة تولّد المكاسب والأرباح الكبيرة. وفي تلك الحقبة، كان جبل لبنان الذي يفوق الصين قرْباً من أوروبة، يمتاز بمناخ يلائم بشكل خاص زراعة شجرة التوت التي تصلح أوراقها الوافرة في غِذاء دود الحرير. وبما أنهم كانوا يرغبون في الخروج من عزلتهم والتغلب على فقرهم، ولأنهم كانوا يتطلعون أيضاً إلى الافادة من منافع الطبيعة، انطلق الجبليون في هذه الزراعة العجائبية. فإذا بشجرة التوت تغزو جبالنا، وإذا بتربية دود القَزّ تزدهر، وإذا بالبحر الأبيض المتوسط يشهد اضطراد ذهاب واياب المراكب التجارية التي كانت تحمل إلى أوروبة ذلك الخيط الحريري الدقيق، السريع العطب والغالي الثمن، ماخِرة في إثرها وعلى أعقابها طريق الحرير. وفي القرن التاسع عشر، أدى إدخال الحرائر المنتَجَة اصطناعياً إلى إطلاق رصاصة الرحمة على الحرير الطبيعي الذي كان ينازع لافظاً أنفاسه الأخيرة. فكانت النتائج الاقتصادية على جبل لبنان كارِثِيَّة، إذ اضطر العديد من الموارنة إلى مغادرة مرتفعاتهم المعزولة، ولكن إلى أين؟ إلى الخارج، لمن كان أكثرهم شغفاً بالمغامرة؛ إلى الولايات المتحدة الأميركية، إلى مصر أو إلى أية أرض جديدة أخرى، ولكن أيضاً إلى بيروت، التي تشهد احتشاد هؤلاء الساكنين الجدد، على أبوابها. وكان لهذا التنامي الديموغرافي في الضواحي البيروتية أن برز على نحو فوضوي، دونما منطق أو مراعاة لشروط الهندسة المُدُنية ما يحتاجه من تناغم واتساق.

وفي ظل السلطنة العثمانية، كانت بيروت مدينة مزدهرة، جامعة لأجناس مختلفة، مفتوحة على العالم الخارجي بمرفأها وخطوط السكّك الحديدية فيها، مما أضفى عليها إشعاعاً، وطَبَعها بسحر فَتّان أخّاذ ومخيف في آن.

فهذه المدينة الساحلية التي كانت تسكنها غالبية مسلمة كانت أيضاً مدينة عميقة الجذور، قديمة التاريخ؛ واذا كان جبل لبنان مفتوحاً على الغرب بفضل تجارة الحرير وعلاقاته الوطيدة مع كنيسة روما، إلّا أنّ بيروت كانت تشكل امتداداً للباب العالي والعالم العربي. وبعد سقوط السلطنة العثمانية وغداة قيام الانتداب الفرنسي في العام 1920، أُعلنت بيروت عاصمة دولة لبنان الكبير، فاجْتَذَبَت البورجوازية المارونية أكثر فأكثر. واستبدّ الأمر بالموارنة حتى اعتبروا أنّ من حقهم غَزو هذه المدينة والتحكم بزِمام الأمور فيها. وكان لولاء المسلمين للأمة العربية أكثر من ولائهم للبنان أن راح يشكل، بالنسبة إلى أولئك القرويين الوافدين حديثاً إلى بيروت والطامحين إلى الاستقرار فيها، خطراً على بقاء الدولة اللبنانية على قيد الحياة. ولهذا السبب، نجحت طلقة الرصاص الأولى في تحرير القمع الذي كان يشعر به الموارنة والذين كبحوه لسنوات. فبالنسبة لهؤلاء اللبنانيين الأقْحاح، الذين يحملون الهويات الهشَّة، كانت الحرب وسيلة يستولون بها على بيروت، تلك المدينة الغريبة، العدائية والمختلفة عن جبلهم، وعن لبنانهم.

عندما بلغت الثالثة عشرة من عمري، لم أكن قد أَلْزَمت نفسي بعد بكل هذه المسائل. فبدل أن أتساءل حول وجودنا وحول هويتنا، كنت أصغي وأستوعب. وكان لدوي القصف المستشري على امتداد الأيام أن أَذْكَى من وهج الخطاب الحربي، فالقنابل كانت تُحَوّل منازلنا إلى مقابر، وتقضم حياتنا، مفتتة المباني والأجساد المفتقرة إلى الحماية، ومعزّزَة الشعور بالاضطهاد والظلم، ولا سيما لدى الموارنة، وهم أبناء الطائفة التي أنتمي إليها.

قنابل وملاجىء ومخاوف

في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني/ يناير من العام 1976، قرعت أجراس كنيسة سيدة الحدث، على خلفية دويّ المدافع. كانت تنذر بالشؤم. فالدامور[1] والجِيّة، وهما بلدتان مسيحيتان تقعان إلى الجنوب من بيروت، قد تعرضتا للتدمير والحرق والنهب على أيدي الميليشيات الفلسطينية. يُحكى عن سقوط خمسمائة مدني، وعن عائلات برمّتِها لقيت حَتْفَها في المجازر. «لقد فقأوا عيون الأطفال، وقَطّعوا أوصالهم». أتابع هذه المجزرة كمن يشاهد فيلماً سينمائياً من نوع أفلام الرعب، وقد وضعت يدي أمام عَيْنَيّ وأبقيت على أصابعي مفتوحة قليلاً. ما أراه يثير الرعب والهول في نفسي، ولكنني لا أستطيع الامتناع عن المشاهدة، ولا عن الإصغاء إلى الأنباء المواكبة للحدث: لاجئون من الجِيّة والدموار بدأوا يتقاطرون باتجاه بيروت، عبر البحر وعبر البر، تاركين خلفهم قتلاهم.

---

(1) تقع بلدة الدامور على سفوح سلسلة جبل لبنان، بمحاذاة الطريق إلى صيدا، على بعد عشرين كيلومتراً جنوبي العاصمة بيروت.

قبل أيام، أي في مستهل شهر كانون الثاني/يناير من العام 1976، عَنُفَ القتال حتى بلغ أشُدَّهُ، فلم يجد مثيلاً له. كان الكتائبيون قد ضربوا حصاراً حول مخيّم تل الزعتر، الذي يُعَدّ جغرافياً وديموغرافياً، منعزلاً وسط المنطقة المسيحية. ولم يَطُل الأمر بمخيمات الفلسطينيين، في كل من الكرنتينا والمسْلَخ، حتى سقطت في أيدي الميليشيات المسيحية، في التاسع عشر من ذلك الشهر.

كان من شأن احتلال الدامور والجِيّة أن أحدث صدمة نفسية قوية لدى المسيحيين وأيقظ فيهم كل المخاوف المدفونة منذ آلاف السنين: الخوف من أن يَقْبَعوا تحت سلطة المسلمين، الخوف من التهجير والهجرة، الخوف من المجزرة الجماعية.

وكان تلاحق الأحداث في الأيام التالية أن اسْتَثَار مخاوف المسيحيين تلك. ففي الحادي عشر من شهر آذار/مارس من العام 1976، قام عزيز الأحدب وهو عميد في الجيش، سُنّيُ الانتماء، مُطالباً، إثر انقلاب فاشل، باستقالة رئيس الجمهورية الماروني، سليمان فرنجية. وبعد هذه المحاولة، سعى السيد الإقطاعي، كمال جنبلاط، وقد نصَّب نفسه قائداً للمعارضة آنذاك، إلى خلع الرئيس بقوة السلاح وبمؤازرة من المقاومة الفلسطينية. كان من الطبيعي والحالة هذه، أن تشعر الطائفة المارونية بالتهديد أكثر من أي وقت مضى. فرئاسة

الجمهورية هي بالنسبة إلى هؤلاء الموارنة الضمانة ضد أية هيمنة إسلامية، وشرط لبقائهم على قيد الحياة.

في تلك الحقبة، انحصر اهتمام والديّ بالعمل على تجنيبنا المخاطر، والبحث على ملاجىء آمنة نلوذُ بها. فنحن ما إن نسمع الطلقات الأولى، حتى يدفع بنا الهلع إلى الحمام الذي يشكل المكان الأكثر أماناً في البيت كله، مع أنّ سقْفَيه وازدواجية جدرانه لا تؤمن لعائلتنا المؤلفة من سبعة أشخاص، إلّا حماية هشَّة. ينام الأصغر سناً في المغطس، فيما ينتظر الآخرون لساعات طويلة من الليل أحياناً، حتى تتوقف عمليات القصف. كل مساء، نأمل أن ننام ليلتنا كاملة، فلا تؤرقنا القذائف، ولا سيما أُولاها التي نخشاها أكثر من غيرها، تلك التي قد لا تعطينا الوقت الكافي للإستيقاظ.

تسوء أخبار الجبهات يوماً بعد يوم وتنذر بالكارثة. فوضع الميليشيات المسيحية أصبح دقيقاً، سواء في بيروت أو في المتن الأعلى في الجبل. ومن جهته، بات قصر الرئاسة في بعبدا مرمىً رئيساً لاستهدافات القوات الفلسطينية وحلفائها. سليمان فرنجية، الرئيس الماروني، مهدَّد، ولكنه يقاوم، مصرحاً: «لن يستطيعوا إخراجي من القصر إلّا ميتاً». وفي

الخامس والعشرين من شهر آذار/مارس، تُسْتَهدَف بعبدا وجوارها بقصف عنيف، يُلزِم الرئيس بالهروب من القصر الرئاسي. تَسْري إذ ذاك شائعة مفادها أنه يتحَضَّر لمغادرة البلاد، عبر مرفأ جونية، أسوة بالآلاف من المهاجرين المسيحيين، فتتعالى أصوات تقول: «إذا رحل، فإن كل الطائفة توشك على الزوال». وفي ظل هذه الأجواء، يُصدر المعسكر المسيحي أمراً بالتجنيد الإلزامي، ويبادر بيار الجميل، رئيس حزب الكتائب، إلى إطلاق نداء يدعو فيه محازبيه ومناصريه وغيرهم من المسيحيين إلى الالتحاق في خدمة لبنان.

يقع منزلنا على بعد ثلاثة كيلومترات من القصر الرئاسي، وملجأنا المؤقت في الحمَّام لم يعد يكفي لضمان حماية العائلة. عندئذ قرر والداي أن نجد لنا ملاذاً في عِلّيَة متجرنا الذي يقع على بعد خطوات من المنزل. فسَقِيفَتها السميكة بما يكفي، تستطيع أن تحمينا من القذائف الطائشة وغير المباشرة. وبمساعدة الجيران، تمكن والدي من رَصْف أكياس الرمل عَلَّه يحمي بها باب المتجر المعدني من الشظايا المحتملة. وعندما كانت القذائف توقظنا بعنف من سُباتنا، كانت تَلزمنا شجاعة فائقة للخروج من المنزل، والركض وقطع الشارع. وفي الطريق إلى ملجأنا المستحْدَث المؤقت،

كان صفير القذيفة يُلْزمنا بالتقوقع على الأرض، جاثمين في زاوية أو بمحاذاة جدار، منتظرين انفجارها سائلين الله أن لا تقع فوق رؤوسنا.

في الليلة الأولى التي لجأنا فيها إلى مخزن متجرنا، وبينما كان النعاس يجد سبيله إلى جَفْنَي، على خلفية مَدوّية من القذائف المتساقطة، وبين علب الأحذية المتعددة ورفوف أدوات وألبسة الصيد، انتَفَضْت لسماعي صوت قوائم تَقرع في المكان. إنها الفئران. أرى من خلال الظلام خيالات تلك المخلوقات المقلقة في تنزهها اللامبالي على الرفوف. وعندما اقتربَتْ من فراشي المطروح أرضاً، شعرت بقلبي يخفق على إيقاع المدافع الرشاشة التي كانت تُفَرْقِع في الخارج. رحت أمنع نفسي عن الصراخ خِشية أن أوقِظَ أخواتي وأخي الصغير؛ ولَعَلَّني كنت أخشى تلك القواضم أكثر من القصف. وطوال كل تلك الليالي التي أمضيتها في مخزن متجرنا، كانت هذه الفئران تشد انتباهي وتستحوذ على اهتمامي لدرجة بتُّ أنسى معها جلبة الحرب لاستذكار ما حملتنا الراهبات طويلاً على الاعتقاد أنه حقيقة. فهن كُنَّ يتوَعَدْن بعض الفتيات اللواتي كُنَّ مشاغبات في الصف، غير ملتزمات بنظام المدرسة، باحتجازهن في القبو، بعد دَهْن آذانهن بالحليب الذي يَسْتَدِر لعاب الجرذان، فيقبلون عليهم بنهم.

وكان لا بد لتلك الليالي اللامتناهية أن تنجلي أخيراً، فيطلع الصباح حاملاً معه إلزاماً من نوع آخر، إذ كان علينا الذهاب إلى المدرسة كالمعتاد، كما لو أنّ شيئاً لم يكن. فبعد كل قصف ليلي، كانت الحدث تولد من جديد لمواكبة الحياة. فتفتح المتاجر أبوابها الحديدية المحصَّنة بأكياس الرمل، وتخرج النسوة إلى السوق بغرض التَّبَضُّع، وتُشْغَل بتنظيف نوافذ منازلها، وإزالة الغبار والركام من أمام الأبواب، كما لو أنّ عيار القذائف لم يفعل سوى المساس بقوة الحياة فيهن.

وفي مستهل العام 1976، عندما كان المعسكر المسيحي يوشك على الانكسار فالإندثار، كَثُر الحديث عن خطة أميركية، «خطة كيسنجر» (Kissinger)، حملها مبعوث أميركي يدعى دين براون (Dean Brown) إلى القادة اللبنانيين. وتهدف هذه الخطة، بناءً لما كانت الشائعات تنشره بشأنها، إلى حل مسألة الشرق الأوسط، عبر تنظيم نزوح المسيحيين من لبنان إلى كندا، حيث مخيمات كانت جاهزة لاستقبالهم في منفاهم. وكان من شأن وصول الأسطول السادس لقوى البحرية الأميركية أن عزّز هذه النظرية، وفاقم القلق.

وعلى خلفية هذه الشائعات، بادرت عائلات بكاملها أسوة بالعديد من الشبان والشابات إلى مغادرة لبنان، على متن مراكب مرتجلة، عبر مرفأ جونية، إذ لم يكن مطار بيروت

الدولي، الواقع في القسم الغربي من بيروت، والذي كان وقت ذاك تحت سَطْوَة الفلسطينيين، سهل البلوغ بالنسبة إليهم. وهكذا رحلوا بالآلاف إلى كندا، أرض المنفى الفُضْلى، حيث وُعدوا بالمال ما إن يحِطّوا فيها الرّحال. كان مسارهم مختلفاً عن مسار أسلافهم الفينيقيين، الذين لم يرحلوا عن موطنهم إلّا ليسلكوا درب المغامرة والانفتاح. أما هذا، فكان مليئاً بالدم والدمع. كان طريق الفِراق والألم. كان سفراً لا عودة منه. ولكن الرحيل كان السبيل الوحيد للبقاء على قيد الحياة. ولمرة جديدة، كان مسيحيو الشرق هؤلاء يَتَخلَّوْن مُرغَمين عن الجبل ـ الملاذ الذي لجأوا إليه لقرون من الزمان. هذه المرة، حملتهم طريق المنفى إلى الغرب.

لم تكن تلك الهجرة الجماعية الأولى التي اضطر المسيحيون إليها. ففي العام 1916، وخلال الحرب العالمية الأولى، اسْتَشْرت المجاعة في جبل لبنان، إثر الحصار التمويني الذي فرضه العثمانيون وأذكاه غزو الجراد للبلاد، فأتى على الأخضر واليابس فيها؛ فلقي مائة وثمانون ألفاً من الموارنة، أي ما يعادل ثلث أبناء الطائفة، حتفهم جوعاً. كثر كانوا الذين نجَوْا، تاركين الأرض، راحلين عنها وقد حملوا في حقائبهم ما بقي لهم من ذكريات حياة هانئة، آملين بأن تعود الحياة يوماً، فيفتح لهم العالم ذراعيه من جديد. «نذهب

بعيداً، فالبعيد أفضل». هذا ما كانوا يرددونه معلّلين رحيلهم؛ ففي ذلك البعيد، لا حرب. وهكذا، وككل المنفيين، يَفِرُّون من وجه الموت، مُهَشّمين فيهم الروح.

حتى الحادي والثلاثين من شهر آذار/ مارس من العام 1976، كان موقف الميليشيات المسيحية دقيقاً للغاية. فهي توشك أن تجد نفسها محاصرة على نحو دراماتيكي، في وقت اشتدت فيه حدة القصف المدفعي الذي كان يصب حِمَمَه على أحيائنا. لم يعد مخزن متجر والديّ يكفي، مما اضطرنا إلى الانتقال إلى ملاجىء الأبنية الكبيرة المجاورة.

عندما أدخل للمرة الأولى ذلك الملجأ، وهو مستودع في بناء ضخم، أجد أنّ كل الحي قد سبقنا إليه. يفترش جيراننا المكان على فرش من الإسفنج الإصطناعي التي طرحت أرضاً، وقد ضاعت عيونهم في الفراغ، والتصقت آذانهم بأجهزة الراديو تصغي للعاجل من الأخبار. وفي ذلك الملجأ الذي يفوح برائحة العرق والخوف، يحاول والدي أن يجد مكاناً يتَّسِع لسبعة أشخاص، فيما تتذمر والدتي في سعيها لشَقّ مَمَرّ لنا بين الجميع، وقد تمسَّكت بحقيبتها الضخمة، حيث خبأت مالها وعلبة مجوهراتها وصكوك الأملاك العقارية. لم تكن لتفترق أبداً عن هذه الحقيبة، التي كانت تستخدمها خلال الليل كوسادة تُلْقي عليها رأسها، ضامِنة بذلك راحتها الشخصية وحائِلَة دون تعرضِها للسرقة.

في تلك الملاجىء التَّحْتأَرضية المظلمة، يرتّب سكان الحي أمورهم، فتحرص كل عائلة على التزود بمصابيح الكيروسين؟ والشموع، ومِطْبَخَة صغيرة الحجم متصلة بقنينة من الغاز، وسطل ومِكْنَسَة. تجهد النساء في تحويل هذه الأماكن المكفهرة إلى أخرى أكثر ملاءمة ونظافة؛ فتقوم بأعمال التنظيف كل يوم، وتنفض الشراشف لطرد العناكب والنمل والصراصير، الذين يَحُلّون زوّاراً على هذه الأماكن الدافئة والرطبة، وهو ما دفع بعض نزلاء الملجأ إلى وضع إطارات حديدية، بغرض رفع الفرش عن الأرض. غير أنّ صرير الزنبرك الحديدي الصدىء، في كل مرة يأتي المستلقي بحركة أو يفاجئه سُعال يهزّه، يثير اقْشِعْرار أبداننا. وهكذا يتحول كل من الحِرص على النظافة والضجيج إلى مواضيع تَسْتَفِزّ النزاعات بين الجيران. وما إن تُسْتَأْنَف عمليات القصف حتى تتوقف هذه الخلافات، لتعود فتبرز بحدة أكبر عندما يحل الهدوء.

في ذلك الملجأ، حيث للصراصير صَوْلات وجولات، أَبقى ملتصقة بأخواتي، فوجودهن يحمل الإطمئنان إلى نفسي. فتقوم واحدتنا بتضفير شعر الأخرى ونتف شعيرات حاجبيها، فيما تلهو الأخرى بقراءة الروايات المصورة. أما داليدا ويوسف، وهما أصغرنا سِناً، فيكتفيان بمراقبة ما نفعله كما لو أنهما اعتادا دوي المدافع في الخارج، وعلى صوت آخر يسود في الداخل، لدى ارتطام الزَّهر بطاولته. وبينما يُشْغَل

والدي بتلاوة الأعداد الفارسية في هذه اللعبة « ، سي وا دو، . . »[2]، يَنْسَلّ الخدر إلى جَسَدَيْهما فيغفوان، وقد ألْقيا برأسيْهما على ركبنا.

يصعب عليّ اعتياد هذا العالم المظلم والرطب. ففي هذه الملاجىء يسود حِس الاجتهاد للبقاء على قيد الحياة بما لا يرتبط فعلاً بالحياة، اذ شُلَّت حركة الوقت وانعدم كل من النهار والليل والحياة والموت، واستقرّ كل شيء في الضباب. والكل ينتظر. ينتظر ماذا؟ لا ندري، فالحياة في هذه الحفر معلّقة، لا أفق لها.

---

(2) تلك هي الأعداد بالفارسية، وهي تلفظ خلال اللعب بزَهْرِ النَّرد. تقول الأسطورة إنّ هذه اللعبة وضِعت لترمز إلى الحياة نفسها، في ارتباطها بتوازن غامض، متعثر بين المهارات والأقدار. فهي تلخص الوجود الإنساني في عالم الزمن فيه محدود. فالأقراص الثلاثون في الطاولة تمثل أيام وليالي الشهر. واذ تنقسم إلى أربعة أقسام، يرمز كل واحد منها إلى واحد من الفصول الأربعة. ومن ناحيتها، فإنّ المواقع الأربعة والعشرين (أو النقاط)، تمثل الساعات الأربع والعشرين في اليوم، والأشهر الإثني عشر في السنة. وبالتالي، فإنّ لكل لاعب سنة كاملة. حتى زهر النَّرد له معنى، إذ أياً كانت وجوهه المتناقضة (ستة وواحد؛ خمسة واثنان؛ أربعة وثلاثة)، فإن جمع العددين يأتي دائماً بالعدد سبعة، وهو الذي يرمز إلى الأيام السبعة في الأسبوع.

تحت الأنقاض

إنني حبيسة الملجأ، ولكن فكري طليق في الخارج، يطوف الشارع حيث أقطن، وحيث يمرّ رجال في ثياب الميدان، وهم في طريق عودتهم من الجبهة. لقد خرجوا من تلك الحفرة، مُتَحدّين الخوف للدفاع عن أهلهم وأقاربهم. فإذا بنور جديد يَهِلّ، فيضيء حُلُماً: حُلُمَ الإنضمام إليهم! إنني شديدة الإعجاب بهم، وأنا على اقتناع تام أنه للبقاء على قيد الحياة، ينبغي أن لا ننتظر الموت الحاضر الدائم الذي تَتَوَعَّدنا به الحرب. فانتظار الموت يعني بكل بساطة تقبله، بل حتى الإقبال عليه.

في صبيحة يوم مشمس من أيام شهر أيار/ مايو، مَرَّ شباب الحيّ في شارعي حاملين المكانِس. وبوحي من حِسّهم التطوعي والتعاضدي، انكبوا على تنظيف ذلك الشارع الذي هجرته الخدمات المحلية منذ عدة أشهر. ففي ظل الحرارة التي كانت بارتفاعها تثقل كاهل بيروت، كانت النفايات والأوساخ المتراكمة منذ بضعة أيام تفوح بروائح النتانة التي تجتذب قطعاناً من الجرذان.

أجدها فرصة ملائمة للخروج إلى الشارع. فأسرع إلى

متجر والديّ، والتقط المِكْنَسة الكبيرة، مكتفية بتفسير مقتضب أبادر به أبي، وانضم إلى هؤلاء الشبّان، فأجدهم كلهم أكبر سناً مني. ينظرون إلي نظرة مَنْ يشعر بوجوب حماية ورعاية من كان أصغر منه سناً، فيراودني إحساس بعدم استطاعتي على مواكبة نبضهم وحماستهم في العمل. فأنا بالكاد بلغت الرابعة عشرة من عمري، وأنا الفتاة الوحيدة في المجموعة. غير أنّ هذا لا يمنعني من اختيار مكان لم يتم تنظيفه بعد ومن الإنكباب على العمل بصمت، كما لو كنت أفرض وجودي عليهم. في تلك اللحظة، شعرت أنّ نفسي تَضُّج حماسَةً تشبه تلك التي يُحِسّ بها طفل خرق للتّو حظراً ولم يَلَقَ عقاباً. إنني فخورة في أن أصبح شخصاً عاملاً، مفيداً في محيطه. لست إلّا عاملة تنظيفات، ولا شك، ولكنني عاملة تنظيفات تفخر بما تفعل. وإذ بالتشجيع يأتينا من المارة والسكان، فيما تخرج النسوة من منازلها وتروح تقدم لنا الفاكهة والمشروبات المنعشة.

إنّ أكثر ما يقلقني هو الاقتراب من المقبرة الواقعة في آخر الشارع. لقد حاولت طويلاً تفادي المرور بذلك المكان، وحتى إلقاء نظرة عليه. وها إنني الآن أدخله، لأجد فيه النفايات وقد تراكمت حتى أصبحت أكواماً فاقت ضخامة كل الأكوام الأخرى الموجودة خارجه. ما إن أَهمّ برفع مِلء المجرفة الأولى، حتى تفوح روائح النفايات وقد اختمرت بفعل الحرارة، فتجتاحني رائحة الموت حتى الغثيان. أشعر

بوشوك إصابتي بتوعك، ولكن لا أدع الآخرين يلاحظون شيئاً. فأنا مصرة على الاستمرار بالمشاركة في «اللعبة»، أيّاً كانت الظروف.

أشْغَل بهذا العمل كل يوم إلى أن تنتهي المجموعة إلى تقبلي في عِدادها، فتجيز لي الإنضمام إلى أفرادها الشبان والعناية معهم بتوزيع الخبز على أهالي الحي، فَنُوَفِر عليهم عناء الانتظار في الصف أمام الفرن، وتحت القصف. أشعر يوماً بعد يوم بفائدتي، فأحرص على التواجد والعمل حيثما أستطيع اليهما سبيلاً.

وفي يوم ربيعي من شهر أيار/ مايو من العام 1976، واثر عدة أسابيع من العمل المدني، بدأت مجموعتنا بتنظيم نفسها فعقدت اجتماعات دورية في احدى مدارس الحي، بنهاية اليوم الدراسي، وذلك بهدف تنسيق نشاطات تنظيف وكناسة الشوارع، وتوزيع الخبز على السكان. وفي ذلك اليوم، انضمت شقيقاتي إلى الفريق الذي عقد اجتماعه بالرغم من القنابل والرَّشقات الرشاشة على الجبهة. وبالكاد جلسنا حتى دوّى انفجار ضخم صَمَّ آذاننا، رافقه شُهُب عطَّل وَهْجُهُ حواسنا؛ تلك كانت قذيفة انهالت على المبنى، مستهدفة قاعة الاجتماعات وممزقة الجدران. ومع أننا كنا قد اعتدنا العيش مع القذائف، نحدد مصدرها ونقطة سقوطها، إلّا أننا لم نسمع صفير تلك القذيفة، التي ارتطمت بالمبنى دفعة واحدة، فأدّت إلى انهمار الأحجار والأنقاض كما المطر المِدْرار،

فوق رؤوسنا، مُغْرِقَة المكان، في غضون ثانية، في فوضى عارمة. واذا بالصراخ يعلو واضعاً حداً للصمت الذي خَيَّم على المدرسة. فوجدت نفسي وقد تَقَوْقَعْتُ في سلة مهملات كبيرة، حيث دفعني ضغط القذيفة اللّاهِث، فيما حالت غيمة كَثَّة من الغبار والدخان دون أن أقوى على التّنفس. أريد أن أجد أَخواتي! وإذ ببصري يقع عليهن، وقد اكْتَسين بالغبار الأبيض، واكفهَرَّت وجُوهُهُن فشحبت وشابهت أقنعة الموتى ـ الأحياء في أفلام الرعب، لدرجة لم أتمكن معها من التعرّف عليهن على الفور. ولكن، لحسن الحظ، كُن لا يَزَلْن هنا.

مرَّ ذلك اليوم دون ضحايا، ولكنني أدركت أنّ الموت قريب، وغير متوقَّع، يتربص بطريدته وراء جدار، تحت سقف أو في وسط الطريق. إنه قادر على إدراك أيّ كان، في أية لحظة، حيثما كان. قبل الحرب، كنت أعتقد أنّ المسنين وحدهم يموتون، وأنّ موتهم أمرٌ طبيعي لا يستطيعون تَفاديه أو الهروب منه. في ذلك اليوم، ودَّعت الطفولة إلى الأبد، وبلغت بلمح البصر، سِنَّ الشيخوخة، في ذلك اليوم، أدركت أنني زائلة. سريعاً.

دونما تَلَكُّؤ أو إبطاء، سارعت برفقة شقيقاتي إلى التوجه إلى المنزل. فالتَقَيْنا والدي في الطريق، يركض كما المجنون باتجاه المدرسة، وقد اعترضت سبيله امرأة وقفت تصرخ قائلة: «دُمّرت المدرسة؛ مات كل من كان فيها». فإذا

بوالدي ينهار لرؤيتنا نصل، وبالكاد تمكن من الاستناد إلى حافة الرصيف لبضعة لحظات، يستجمع خلالها قواه ويستعيد السيطرة على أعصابه. رغبت حينها لو ألتصق به بشدة وأقول له «إنني خائفة»، ولكنني امتنعت عن الأمر، متمالكة نفسي خِشية أن أنفجر باكية. وهو أيضاً، لم يتفوه ببنت شفة. كانت عيناه، اللتان استعادتا سكونهما لرؤيتنا لا نزال على قيد الحياة، تحملان آثار الخوف الدافئة الرطبة. وعندما انحنى يتفحص بِحُنُوّ جراحنا، لاحظت ارتجافة شارِبَيْه: «إنها طفيفة، تافهة». ولكن ما من أحد استطاع يومها رؤية وتفحُّصَ الجرح الآخر، ذلك الجرح العميق، الذي طاله في الصميم وفاض ألماً، جرح الخوف العاجز الذي شعر به والدي عندما عجز عن درء الأخطار عنا وأوشك أن يفقدنا. يوم ذاك، كنت عمياء البصيرة، فلم أدرك عمق معاناته. وبعد بضعة أشهر، أُدخل والدي إلى المستشفى بسبب سُداد في القلب، وهو بالكاد بلغ التاسعة والأربعين من عمره. فَجُرّمَت السيجارة واعتبرَت المسؤولة عن انفطار قلبه.

نجا والدي من تلك الأزمة القلبية، ولكنها كانت كافية لتحملني على ادراك ضعفه؛ فرحت أجتنب التسبب له بالهموم، ووددت لو أحميه، وأحمي لبنان الذي يحب.

في الأوقات الأكثر صعوبة في حياتي، تلك التي فضلت فيها الموت على الحياة، كان صوت والدي يرافقني يُهَدْهِدُني كما لو كنت طفلة صغيرة، ويقول لي، بما عهدته فيه من

حنان ورفق «يا بنيتي، يا رجوتي، يا قلبي!». هذا القلب، الذي أصابه المرض وهو لا يزال في ريعان الشباب، كم أردته سرمدياً، مقاوماً الأقدار! كنت أصدق ما كان يقوله لنا صوته الناضح حكمة: «كلنا زائلون، ولا بد لنا أن نذهب يوماً». هذا صحيح. ولكن «كلنا» في قوله لم تكن تعنيه هو في نظري. فهو يستطيع السفر، هو يبتعد ويغيب، ولكنه لا يستطيع أن يموت.

أطرد من خاطري فكرة أن يشيخ يوماً، أن يَغْزُوَ المُشِيْب رأسَه، أن يَقْبِض الجمود على ابتسامته، أن يفتِكَ الزمن بجسده فيَتَفَكَّك، وأعيش حبيسة الرعب الذي يولّده هذا الخاطر في نفسي، فأقاومه كل ليلة وقبل الخلود إلى النوم، بالصلاة أتلوها كمسيحية مؤمنة تتضرع إلى الله حماية كل من تحب من كل خطر. أغمض عينيّ مُلْزِمَة نفسي التركيز أكثر على صلاتي، مقاوِمَةً تكرار الفارغ من الكلمات والتعابير، خائفة من انسِلال الشك إلى تفكيري ولو للحظات، خشية أن يُزَعْزِعَ إيماني، إذ يجب على صلاتي أن تكون صادقة لكي يتقَبَّلها الله الذي يرى كل شيء، فيُلبّي رجائي، فحياة عائلتي كلها مرهونة برحمته. وكانت تلك الصلاة تحمل الراحة إلى وجداني، فأتمكن من النوم بسلام.

مات والدي بعد انقضاء خمسة عشر عاماً على هذه الحادثة، في الأول من شباط/ فبراير من العام 1991، دون أن أتمكن من رؤيته ومرافقته في لحظاته الأخيرة، دون أن

أقول له كم سعدت بأُبوَّته، وبكوني ابنة له. ومع أنه رحل، إلا أنه ترك لي إرثاً رائعاً، أحرص على نقله. أوْرَثَني ثروة تُضاهي كل ما زخرت به هذه الأرض من ثروات. علمني ما عَجِزَت كل الكتب عن تعليمي إياه، وخَطّ لي بقلبه طريقاً سأسلكها دائماً. لا أزال أنهل من صوته سكينتي، ومن حبه ما يلزمني من قوة وعزم لأرفع قامتي وأتابع المسير.

الجبل ملاذنا

في العام 1976، قرر والديّ الابتعاد بنا عن بيروت، فاستقرت العائلة في حِمْلايا، وهي واحدة من القرى المسيحية في المتن، كانت الحرب قد وَفَّرتْها. وسعياً منها لإنقاذ عامنا المدرسي، قامت والدتي بتسجيلنا في مدرسة راهبات القلبَيْن الأقدسَيْن، الواقعة في عين الخَرُّوبة. وعندما سألتها الراهبات عن صفوفنا لاستكمال إجراءات التسجيل، قامت والدتي، ودون انتباه منها بحمل داليدا، أصغر بنات عائلتنا، على الرسوب في صفها. وبالرغم من أنها كانت تلميذة ناجحة، إلّا أنّ هذه الأخيرة لم تقو على إسماع صوتها بما يكفي للإحتجاج على قرار والدتي.

وما إن حَطَطْنا الرّحال في تلك البلدة، حتى أدركنا أنه علينا اتخاذ قرار دقيق للغاية، إن شئنا العيش بسلام مع الجميع فيها، حيث لم يكن حضور القداس يوم الأحد بالأمر البسيط. فحِملايا، الواقعة على مقربة من بِكْفيّا، إقْطاعة آل الجميل ومنطقة نفوذهم، تَعدُّ ألْفَيْ نسمة تقريباً، جميعهم من الموارِنَة، وقد توزعوا في عائلتَيْن رئيستَيْن، وارتادوا ثلاث كنائس مختلفة، وانْضَوَوا في رعيَّتين منفصلتين، لكل منهما

خصوصيتها. وما كان يثير العجب أكثر، كمن في أن اثنتين من الكنائس الثلاث حملتا الإسم عينه، فيما كانت الثالثة، تَنْهَل من بركات شفيعها مار الياس.

لم يكن للبلد في الماضي إلّا كنيسة واحدة، كنيسة القديس جِرجِس، حيث لوحة عملاقة تمثل القديس وقد حمل درعه[1] وجَنْدَل برمحه تِنِّيناً مريعاً فصرعه. وكان جميع أهلها يرتادون هذه الكنيسة، فيُصَلُّون ويحتفلون فيها بالقدّاس الإلٰهي سوياً. ودرجت العادة أن تجلس العائلتان الكبيرتان جنباً إلى جنب، متقاسمة المقاعد الأولى في الصفوف المركزية، على نحو يخضع لتوازن دقيق بين أفراد كل منهما. سارت الأمور على خير ما يُرام إلى أن قررت إحدى العائلتين بناء كنيستها الخاصة مقابل الأولى تماماً، وحرصت على اختيار القديس جِرجِس أيضاً شفيعاً لها. وهكذا بات لكل عائلة كنيستها الخاصة، وقديسها الخاص، يحرسها ويحميها.

غير أنّ القصة لم تَنتَهِ هنا. ففي أحد الأيام، نشب نزاع بين فردَيْن انتميا إلى العائلة التي اتخذت القرار ببناء الكنيسة الثانية. وعلى نحو صَعُبَ تفاديه، نال الانقسام من هذه العائلة، وأصبح من غير المعقول أن يَرْتاد أفرادها الكنيسة عينها فيؤدّون الصلاة فيها، أو حتى أن يَنْضَووا في كنف

---

(1) لأمة أو شَكَّة: مجموع آلات الوقاية المعدنية التي يحملها الفارس المحارب، كالدّرع والخوذة.

الرعية نفسها. وبناء عليه، وجب تشييد كنيسة ثالثة رَعَوِية، مقابل الكنيستين الأخريين، حَوَت لوحة كبيرة تمثل القديس الياس شاهراً سيفه. وهكذا وُلِدت للبلدة رعية جديدة، الثالثة فيها، إذ لَم يكن من الممكن أن يكون الأمر غير ذلك.

وسعياً منه لاجتناب ارتكاب أخطاء يتعذر تصحيحها أو تداركها، فتتسبب بجرح المشاعر وتأجيج الحساسيات العائلية، قرر والدي أن ينهج العدل في تعامله مع الكنائس الثلاث، فتخصص عائلتنا كل يوم أحد لحضور القداس الإلّهي في واحدة منها.

طِوال إقامتنا في حملايا، كنت أتابع الأخبار الإذاعية، فجهاز الراديو كان دائم العمل في منزلنا. وفي شهر أيار/ مايو من ذلك العام ـ 1976 ـ ، أعلنت إذاعة لبنان، دخول القوات السورية إلى الأراضي اللبنانية، بهدف وضع حد لنشاط الحركة الوطنية التي كان الزعيم الدرزي، كمال جنبلاط، يتولى قيادتها، والتي كانت تضم قوى اليسار والقِوى الفلسطينية، مع أنّ سوريا كانت قد دعمت هذه الحركة منذ بداية الحرب. وكما في العديد من المنازل المسيحية ربما، حظِيَ هذا الحدث باهتمامنا، فتحلقنا حول المائدة كعادتنا، نحلل الإشاعات التي كانت تسري بكثرة حول قوة الميليشيات الفلسطينية في تل الزعتر، شأننا في ذلك شأن الناس الذين جعلوا من هذا الموضوع محور أحاديثهم،

أثناء ارتشافهم القهوة، في المتاجـر وفي المكاتب. فالكل قلق بشأن مخيم تل الزعتر الذي يُعَدّ في نظر البعض، مستودعاً للأسلحة، ومخيَّماً محصَّناً بدهاليزه وسراديبه السرية التي سيستخدمها الفدائيون لشن عملياتهم الهجومية المرتَقَبة ضد المسيحيين.

وبدعم من سوريا، تَمَّ تنظيم انتخابات رئاسية مبكرة، في وقت شهد فيه الوضع العسكري للميليشيات المسيحية تحسُّناً ملموساً. وفي الثاني والعشرين من شهر حزيران/ يونيو، شَنَّت هذه الميليشيات هجوماً استهدف مخيم تل الزعتر الفلسطيني، وآخر استهدف في الثلاثين منه مخيم جسر الباشا، قبل أن تنقضّ في السادس من شهر آب/ اغسطس على الضاحية الشيعية في منطقة النبعة. وهكذا أنهى سقوط مخيم تل الزعتر مرحلة من الحرب اللبنانية، في وقت كان فيه الكتائبيون يتحدثون عن انتصار لا سابق له. فشعرنا بالاطمئنان، إذ أصبح حزب الكتائب بمعية غيره من الأحزاب المسيحية، يسيطر منذ ذلك الحين، على مساحة جغرافية متجانسة، فيما قضت مهمة قوات الردع العربية، وقد كانت في غالبيتها سورية الجنسية، مساعدة الدولة اللبنانية على وضع حد للقتال وعلى إعادة الأمن الى البلاد والسهر على استتبابه فيها.

بالكاد لاحظت انقضاء العام 1977. كان عام هدنة، استرجع خلاله اللبنانيون نمط العيش اليومي، واستعادوا

حياتهم العادية. أمضينا ذلك العام في الجبل. ولأول مرة، أجاز لي والداي مرافقة شقيقاتي إلى سهرة. كان لي من العمر خمسة عشر عاماً، وأصبح لكل من ريتا وراشيل عشاقاً يتمنّون قُربَهما. أما داليدا، فكانت لا تزال صغيرة. وكان لمنشئنا البيروتي أن أضفى علينا شيئاً من السحر في نظر شبان الجبل. كانت السهرات عامرة؛ فكل أسبوع على الأقل، كان يُحْتَفل بواحدة، يأخذ فيها شبان العائلات الكبرى في الجبل، بالمغالاة. فكانوا يفتتحون السهرات برقصة الجيرك العصرية، التي تقضي بهزّ الجسم هزّات موقَّعَة، ويختتمونها دوماً بالرقصة البطيئة المعروفة بالسلُو، والتي كانت الأجساد خلالها تلتصق ببعضها البعض في ثنائية ينتظرها بشغف كل من شارك في تلك السهرات.

ولكن هذه الهدنة كانت أقصر من أن تقوى على آثار وتداعيات سنتين من الحرب، فَتَمْحوها. وبالتالي، لم يطل الأمر بالأمل حتى تشتَّت وتلاشى في بلد بات مُشَرَّع الأبواب أمام الجيوش الأجنبية. وكان من شأن الوجود الكثيف للجيش السوري أن طرح سريعاً جداً، مشكلة جديدة أدَّت إلى تفاقم الأوضاع.

ففي أيلول/ سبتمبر من ذلك العام، تَمَّ التوقيع على اتفاق قلب موازين القِوى في منطقة الشرق الأوسط رأساً على عَقِب، منذراً بإعادة توزيع الأوراق والأدوار بين المتنازعين

في لبنان، ولا سيما في قلب المعسكر المسيحي. فالرئيس المصري، أنور السادات، كان قد وَقَّع للتّو على معاهدة سلام مع مناحيم بيغين، رئيس وزراء دولة اسرائيل، فلم يَطُل الأمر بسوريا حتى دعت إلى انقلاب على نظام السادات متهمة إياه بالخيانة. وبهذا، أضحى الرئيس المصري معزولاً، ونظامه هَدَفاً للإدانة في العالم العربي.

جورج، طفولتي القتيلة

كان العام 1978 عام كل المآسي. ففي شهر شباط/ فبراير، توفيت جدتي راحيل، والدة أبي. غير أننا لم نستطع حضور مراسم جنازتها، إذ كنا لا نزال نقيم في الجبل. يومها، قال لنا والدي: «إن الوضع متشنّج. لا أريد هذه المجازفة. صَلّوا لأجلها».

كان البلد مقسَّماً، والتقسيمُ حالُ المعسكر المسيحي أيضاً، حيث أُعيدَ توزيع الأوراق كنتيجة للسلام الإسرائيلي - المصري، في وقت كانت فيه الجبهة اللبنانية، التي ضمَّت كل قادة الميليشيات المسيحية، تعاني التمزق والتَّشَرْذُم. فبينما كان بيار الجميل يعلن بالفم الملآن: «لا نستطيع اعتبار السادات خائناً»، لم يكن سليمان فرنجية، عضو الجبهة عينها، لِيَجد، ما يكفي من الكلام القاسي ليندّد بمبادرة السادات الذي، وبحسب رأيه، باع الدول العربية وتنكَّر للعروبة. فما كان من الميليشيا التي كان يتزعمها ابنه طوني، والتي عُرفت باسم المَرَدَة[1]، إلّا أن غادرت الجبهة اللبنانية

(1) وهو اسم عُرِف به أولئك المقاتلين الموارنة الأشداء الذي جعلوا من جبل لبنان مستقراً لهم بهدف التَّصدي للفتح الإسلامي عام 636م.

لتنضم إلى السوريين، فتتحالف معهم. فما الذي كان يدور خلف الستار؟

في الرابع عشر من شهر آذار/ مارس، دخلت اسرائيل جنوب لبنان، وتوغلت في عمق أراضيه حتى بلغت نهر الليطاني. ولم يمض وقت طويل حتى وقع حادث وضع الجيش اللبناني في مواجهة مع الجنود السوريين. لم نعلم فعلاً أيّاً من الفريقين فتح النار أولاً. ولكن، بالنسبة إلينا الذين كنا قد استعدنا لتونا القليل من الهدوء والسكينة، أطلق هذا الحادث العَنَان لدورة عنف جديدة. قالت الإشاعة يومها إن عسكرياً لبنانياً، قائد ثكنة الجيش في الفيَّاضية والمسؤول المفترض عن مؤامرة استهدفت الجيش السوري، تَمَّت تصفيته في سيارة إسعاف كانت تنقله إلى المستشفى، إثر إصابته بجروح طفيفة.

اشتعلت بيروت من جديد، إذ بدأت القوات السورية، التي جاءت لبنان لتعيد النظام والأمن اليه، تقصف منطقة الأشرفية المسيحية. فما كان من بشير الجميّل، وهو كتائبي شاب في الثامنة والعشرين من عمره ونجل مؤسس الحزب، إلا أن أعلن أنّ أمن المواطنين بات من اليوم فصاعداً، مسؤولية قيادة القوات اللبنانية الموحدة، واعداً بعملية تحرير لن تقتصر على الدامور فحسب بل سيتسع نطاقها لتشمل كل لبنان أيضاً. كان ذلك الكلام بمثابة إعلان حقيقي للحرب. وما لبث هذا الخطاب أنْ وجد له آذاناً صاغية ولَقِيَ أصداء

إيجابية لدى العديد من الشباب المسيحي. وبدوري، أيَّدت هذه الشعارات الداعية إلى لبنان حرّ، إلى قيامة لبناننا الذي نريد. في تلك الحقبة كَثُرت في الحقيقة ردّات الفعل الحماسية الشغوفة، والهشة في آن معاً.

بلغت النزاعات بين الميليشيات المسيحية نقطة اللارجوع خلال شهر حزيران/ يونيو. ففي الثالث عشر منه، قامت مجموعة عسكرية كتائبية بمهاجمة منطقة الشمال، وبِضَرْب الحصار حول قصر طوني فرنجية في إهدن، حليف سوريا ثم قتله مع كل من زوجته وابنته وحرسه الشخصي. وبهذا، كان زعيم مسيحي قد صُرِع بأيدٍ مسيحية، وماروني أَرْداه موَارِنَة. كان ذلك حدث لا سابق له في تاريخ المسيحيين في لبنان. فعملية الاغتيال تلك لم تكن حادثاً عرضياً، ولا نتيجة ردة فعل عاطفية حَمِسَة قام بها فرد معزول، وإنما، على العكس تماماً، نتيجة خطة عسكرية مُحْكَمَة، عُنِي الكتائبيون بوضع أدق تفاصيلها. ومعها، غيّرت الصراعات الداخلية، بين المسيحيين أنفسهم، من وجهها ومنهجها، وبات استخدام السلاح، لحل المشاكل بينهم هو أول ما يُسارعون إليه، فالحرب تبرر كل شيء، حتى أسوأ الفظائع.

بالنسبة إلى سليمان فرنجية، الذي تولّى رئاسة جمهورية لبنان بين أعوام 1970-1976، فإن الطلاق بينه من جهة، والجبهة اللبنانية والكتائب من جهة ثانية، كان ناجزاً، لا رجوع عنه. فعلا صوته متوعداً بالانتقام، مُعلناً: «لا كتائب

في منطقتنا، بعد نهاية الشهر»، فيما لم تتأخر سوريا بدعمه بوضوح، اذ عَلَّقت صحيفة تشرين الرسمية على الحدث، قائلة «إن هذا الاغتيال، إنما يهدف إلى اغتيال سوريا في لبنان». ومن ناحيته، توعَّد راديو اسرائيل بمعاقبة سليمان فرنجية الذي غيّر من معسكره.

وفي الشمال، وهو أكثر المناطق المسيحية إقطاعية في لبنان، فرض آل فرنجية أنفسهم بمواجهة منافسيهم المحليين. فخلال عهده، حرص الرئيس فرنجية على تفضيل أبناء منطقته زغرتا وتقديمهم على غيرهم من المواطنين، فعمد إلى إسناد المناصب الأساسية في الإدارة الرسمية الى المقرَّبين منه. وبهذا ازدهرت زغرتا، حافرة يوماً بعد يوم بَوْناً شاسعاً بينها وبين جارتها وغريمتها التاريخية، بشرّي، التي بَقِيَت فقيرة الحال نسبياً، مُتَجَذِّرة في طابعها القَرَوي.

ومن ناحيتهم، أَحْكَم آل الجميّل سيطرتهم على حزب الكتائب، وهو حزب جماهيري، نَصَّب نفسه مدافعاً عن الطبقات الكادحة والحِرَفيين والفلاحين، وضامناً لحقوقهم، فراح يُجَنّد المحازبين في الشمال، ولا سيما خلال السنوات الأولى للحرب، مُسْتَقْطِباً كل مَنْ أدّى به نهج فرنجية السياسي والنظام الإقطاعي السائد في تلك المنطقة، إلى خيبة الآمال أو الإبعاد. وكان من شأن سمير جعجع، وهو قائد العملية التي استهدفت طوني فرنجية، أن شَكَّل ولا شك، أُنْمُوذجاً عن هؤلاء المبعَدين، إذ عَبَّر، وهو سليلُ عائلة متواضعة

الحال وابن عريف في الجيش، عن ثورته ضد الإقطاع في الشمال، عبر انتسابه في وقت مبكر، إلى حزب الكتائب، وكانت لديه بالتالي المواصفات المثالية لقيادة المجموعة العسكرية التي قامت باغتيال عائلة فرنجية.

انفصل الجبل الماروني عن محيطه الشمالي، وتَمَّ الطلاق مع الجبهة اللبنانية، ورُسِمَ على الخارطة اللبنانية خطّ تماس جديد، إذ قام كل فريق بترسيم منطقة نفوذه وعمل على تعزيز حدودها. وسرعان ما ظهرت الثكنات ونقاط المراقبة على طول هذا الخط، إضافة إلى الحواجز التي أقيمت في الجانبَيْن بغرض التحقق من الهويات وفرض الضرائب على البضائع التي كانت تجوب المناطق. كانت سلسلة الصدمات والتداعيات التي أَفْضَى إليها اغتيال عائلة فرنجية، عنيفة لدرجة كَرَّست معها القطيعة بين المسيحيين، مما أدى بكل محاولة للوفاق والاتفاق الوطني إلى الاصطدام بما اصطلح على تسميته بـ «العقدة المارونية».

لم تتأخر نتائج اغتيال طوني فرنجية بالبروز. ففي ليل التاسع والعشرين من حزيران/يونيو 1978، دخلت قوات سورية منطقة القاع في البقاع، حيث اعتقلت خمسة وثلاثين شاباً مسيحياً. وفي صباح اليوم التالي، تداولت الصحافة ووسائل الإعلام نبأ مقتل ثلاثة وثلاثين منهم.

وبعد مرور أسبوع على هذا الحادث، تعرضت الأحياء

المسيحية في كل من العاصمة بيروت ومدينة زحلة المسيحية، عاصمة البقاع، إلى حصار شديد ترافَق وقصف مدفعي عنيف، إذ راحت راجِمات «قذائف ستالين» تَصُبُّ حِمَمَها، ولساعات عديدة لا هوادة فيها، على المدنيين والمستشفيات والأفران بكثافة لم يسبق لها مثيل حتى الآن، بمعدل قذيفة في الدقيقة.

تلك كانت بداية ما اتّفق على تسميته فيما بعد بحرب المئة يوم، وهي الحرب التي بات خلالها يُنْظَر إلى قوات الردع العربية ـ وقد تَشَكَّلت من السوريين في كليتها ـ على أنها حتماً قوات غزو واحتلال، إذ كانت مرابض المدفعية السورية الجاثمة على الأبنية القائمة في قلب الأحياء المسيحية، تقصف وترعب بيروت الشرقية، طوال فصل الصيف وحتى شهر تشرين الأول/أوكتوبر من العام 1978.

بعد «حرب السنتَيْن» (1975 ـ 1976)، التي كانت في معظمها حرباً لبنانية ـ فلسطينية، تحولت الحرب في لبنان إلى نزاع لبناني ـ سوري. وبالتالي تَغَيَّر عدونا، أو لنقل أصبح لدينا عدواً إضافياً.

مضى العام 1978 ككابوس طويل الأمد. كانت الحدث محاصرة على أيدي القوات السورية التي تشد خناقها كل يوم

على المدينة، فيما تنشر مدفعيتها الخوف والموت ليل نهار، في كل مكان فيها.

ومن ملاذنا في الجبل، كنا نتابع الأخبار على الشاشة الصغيرة، فتُظهر صور الحدث، مدينة تسكنها الأشباح، هُدّمت أبنيتها، وبُقِرت جدران منازلها وسَدَّ الردم منافذ الشوارع فيها. الحدث مُحاصرة. لقد سَرقوا مني بيتي وشارعي وطفولتي وخطفوا مني والدي، في وقت كانت فيه الميليشيات الكتائبية المنضَوِية تحت لواء حزب بيار الجميّل، ونمور كميل شمعون، وهو الإسم الذي أُطلق على ميليشيا حزب الوطنيين الأحرار المسيحي، يدافعون عن المدينة بوسائلهم البسيطة. وفي ظل هذه الأجواء، بات جهاز الراديو لا يفارقني، فيما راح أثير صوت لبنان، وهي إذاعة الكتائب، يُدوّي بأغاني فيروز، ومسرحيات الرحابنة، وصوت وديع الصافي يغنون المجد والكرامة، فيستثيرون حماستي الوطنية ويجعلون من الحرب أمراً امتزجت فيه الرومنسية بالشغف.

وإذ بموت جورج قريبي، البالغ من العمر تسعة عشر ربيعاً، يُدْخِل المأساة فجأة إلى حياتي. كان جورج في منزله الواقع في شارع بدارو، وهو حي من أحياء بيروت الشرقية، حيث وقف يَرْقُب المارة من النافذة. وإذا بأحدهم يقع أرضاً إثر إصابته برصاصة قَنّاص تَحَصَّن في واحد من الأبنية القائمة في الجهة الغربية لبيروت. كان الرجل يجثم أرضاً، عندما هَبَّ جورج، باندفاعة انتفى المنطق منها، ليقدم له العون

فيسعِفه. ولم يتأخر القناص بإطلاق رصاصته الثانية التي أصابت جورج، فانهار أرضاً، لاقياً المصير عينه الذي انتهى اليه الغريب الذي أراد انقاذه.

وهكذا قُتِل جورج في التاسعة عشرة من عمره، برصاصة خفِيَّة جبانة. كان هذا الحِداد الأول في العائلة. لم يكن يمر يوم دون أن يتعرض فيه رجال للخطف والتعذيب والتمزيق بشظايا القذائف والقتل. ولكن أولئك ما كنت أعرفهم. أما جورج، فلقد بكيته كما يبكي الطفل، بعنف، بصخب. فجورج كان يمثل طفولتي، فصول الصيف التي أمضيناها في الشبانيّة، اللهو والضحك. كان صبياً بهيّ الطلعة زرقاوي العينين، طويل القامة نحيلها، توّاق لمتابعة تحصيله العلمي، يحلم بالسفر، بالذهاب بعيداً. لقد هزَّني موته كما لم يهزني أي موت آخر، وما من شيء نجح في تبريره. لم يكن يحمل السلاح عندما أرداه القَنَّاص، وهو خاطر بحياته لإنقاذ حياة رجل آخر، فكيف السبيل والحالة هذه إلى الاستكانة إلى القدر؟ هزتني بثورة عاجزة، أنا التي كنت في طور اكتشاف الحياة بعينيّ المراهقة المفتونة، الشغوفة، المحبة للاطلاع؛ فما كان من هذا الموت العنيف إلّا أن تسبب لي بصدمة لم أعرف لشراستها نظيراً من قبل. كنت في سن يحلو للمرء فيه التغطرس والتعاظم. كنت أعتقد أنّ كل شيء ممكن، وأنّ الأحلام سهلة المنال. كانت نفسي أرَقّ وأطْرَى من أن تُصْفَع في الصميم بمثل هذا العنف العبثي، المفتقِر للتبرير. وهكذا

فَجَّر موت جورج بساطتي وتركني جريحة، دامية الجرح إلى الأبد.

لم أحضر جنازة جورج، ولا أخواتي حَضَرنها؛ «إنها مخاطرة كبيرة»، هذا ما قاله والدي هذه المرة أيضاً. وبعد موت جورج، راح الجبل يثير الملل في نفسي، وبدا لي الصيف طويلاً لا ينتهي. كنت أبقى لساعات جالسة على الدرج، أنظر إلى هذا الجبل، أشتم روائح صَعْتَرِه، وإكْلِيله التي تفوح في المغيب فتعيد إلى ذاكرتي المسافة التي تفصلني عن الحدث. كم كنت أتَحَرَّق شوقاً للذهاب إليها والإقامة فيها، فأنا لم أعد استطيع أن أجيز لنفسي العيش الهانىء، والافادة من هذه الأيام، فيما يندفع الشبان إلى ساحات القتال، بأساليب متواضعة، مُكابدين كل أشكال الحِرمان. بدأت أشعر بالضيق في هذا الجبل حيث يقتلني الضجر وما من شيء يقوى على إثارة اهتمامي فالسهرات الراقصة والنزهات برفقة الأصحاب، باتت تزعجني، في وقت كان فيه التشنج يقبض على حلقي كلما رأيت العالم يتقدم دون جورج، فيتملكني شعور من العَجْز والظلم يؤجج ثورتي ويجعلها أكثر حدة.

وفي آب/أغسطس من العام 1978، أعلن الراديو وفاة الحَبْر الأعظم، البابا بولس السادس. استطعت يومها، بمعية شقيقاتي وشقيقي، متابعة المراسم الجنائزية التي كان يحْتَفل

بها في الفاتيكان، على بعد آلاف الكيلومترات من حيث كنا. ألقى بطريركنا الماروني بطرس خريش صلاة الجنازة والرحمة بكل من اللغتين العربية والسريانية، فيما كنت أذرف الدموع التي لم أستطع ذرفها يومَ حُرِمْت من المشاركة في جنازة كل من جدتي راحيل في الحدث، وجورج في بدارو.

أمام كثافة القصف، عقد مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة اجتماعاً في السادس من تشرين الأول/ أكتوبر من ذلك العام، وأصدر أمراً بوقف النار. وفي العشرين من ذلك الشهر، أُلْزِمت سوريا، بعد مئة يوم من القصف المدفعي، بسحب جنودها من المواقع التي كانت قد احتلتها في المنطقة المسيحية. فَخَرِسَت المدافع وتوقف القنّاصة عن التسلُّط على الشوارع والمنازل. وكان لهذا الإنتصار، الذي حقَّقَه المعسكر المسيحي، أن أظهر بشير الجميّل كالقائد القادر على تحريرنا من القبضة والهيمنة السورية.

وفي تشرين الأول/أوكتوبر من العام 1978، فتحت المدارس أبوابها من جديد بشكل طبيعي، وعدنا أخيراً إلى الحدث.

حرب الأخوة

في يوم من أيام شهر أيار/ مايو من العام 1979، أطلقت المدرسة سراحنا أبكر من المعتاد، إذ اتخذ الأساتذة قرارهم بتعليق الدروس مع أنّ القصف السوري المتواتر في الأشهر الأخيرة، لم يكن السبب فيه. فالحرب في أحيائنا، باتت حرب الأخوة. ميليشيتان مسيحيتان، الكتائب التابعة لآل الجميّل، و«النمور» التابعين لكميل شمعون، انصرفتا إلى شن المعارك العنيفة على بعضهما البعض في ضاحية بيروت الجنوبية، حيث كمن الرهان في السيطرة على المنطقة المسيحية، بعد انسحاب القوات السورية منها.

كانت ميليشيا «النمور»، التي أسسها كميل شمعون، وهو زعيم ماروني يتمتع بمكانة دولية، تضم في العام 1975، خمسة وثلاثين ألف رجل تقريباً. خلال عهده الرئاسي، الذي امتد بين عامي 1952 و1958، عرف لبنان حقبة من الإزدهار المضطرد. وكان من شأن تصدّيه، في العام 1958، لحركة الوحدة العربية التي كان يتزعمها عبد الناصر، أن ساهم في جعله بطلاً في نظر الغالبية المسيحية. من جهتها، كانت الميليشيا الكتائبية التابعة لبيار الجميّل، أكثر عدداً

وأفضل تنظيماً؛ فلم يصعب عليها الحلول محل ميليشيا شمعون واتهامها بإيواء عناصر مشبوهة، تعتمد الاستفزاز نهجاً. راحت الكتائب تصور «النمور» على أنهم قبضايات، يَتَبَخْتَرون في الأحياء، ويعملون على ترويج المخدرات ويهددون السلم الأهلي، فتلومهم خصوصاً على قِلّة الانضباط، التي كانت غالية على قلب الكتائب اللبنانية.

ولم يطل الأمر بهذه المواجهات التي كانت تُشَن دورياً، حتى ازدادت حدة في أوائل العام 1980 لتبلغ الأشرفية، وهي حي في بيروت يشكل «قلب المقاومة» والركيزة الأساسية لبشير الجميّل، الإبن الثاني لبيار الجميّل.

وفي السابع من شهر تموز/ يوليو من العام 1980، سقط مركز القيادة العامة الذي كان يتولاه داني، ابن كميل شمعون، زعيم الأحرار، في غضون ساعات قليلة، تحت سيطرة رجال بشير في نهاية معارك سريعة، ولكن شرسة. أُبْقِيَ يوم ذاك على حياة داني شمعون، إذ أراد الجميّل تفادي الخطأ الذي ارتُكِبَ في إهدن. وتحت وطأة المفاجأة، نجح اقتحام كل الثكنات العسكرية التابعة لحزب الوطنيين الأحرار، دون مقاومة تذكر، فلحقت الهزيمة بالآلة العسكرية التابعة لثاني الأحزاب السياسية المسيحية، بعد حزب الكتائب، على يد الذئب الفتي، بشير الجميّل، لقد تغلب على ميليشيا «النمور» التي أسسها من كان يُطْلَقُ عليه لقب «الثعلب»، كميل شمعون. فإذا بهذا الأخير يَتَلَقّى الضربة،

ويتحمل الصدمة، فلا يسارع إلى قطع علاقاته بالجبهة اللبنانية، التي كانت تضم كل الممثلين السياسيين للمعسكر المسيحي. أكانت خطوته تلك ضرباً من ضروب الذرائعية أم تصرفاً وطنياً؟ أياً كان الدافع، فإنّ ردة فعله العقلانية هذه حالت دون سفك الدماء وانهيار المنطقة المسيحية.

ومع تخلُّصِه من غريمه الأساسي، باتت الطريق المؤدية إلى السلطة مفتوحة المصراعين أمام بشير الجميّل الذي سلكها متظللاً بشعار جديد: «تعددية الأحزاب وتوحيد البندقية».

لم أشعر يومها بأي اغتباط لدى اعلان انتصار الكتائب على الأحرار، ولكنني كنت موافقة على توحيد البندقية بالقوة، إلغاء الميليشيات الأخرى، والضغط على المشتَبَهين بولائهم لليسار. كنت أعتقد أن ذلك هو ثمن أمننا. كنا كُثُر نحن الذين كنا نقول إن إلغاء «النمور» كان شراً لا بد منه. وهكذا أخذتنا الحماسة، فرحنا نردد خلف بشير شعاره: «تعددية الأحزاب، وتوحيد البندقية»، ونتحدث عن ما حصل كما لو كان عملية جراحية، بأسلوب مُنَقَّح الكلمات.

ازدادت شعبية بشير الجميّل واتسعت. فذاك الرجل الشاب كان يثير انبهارنا بشخصه، ومسلكه ومشروعه، مقارنة بالجيل القديم الذي كنا نجد في مُمَثِّليه، جماعة تجاوزها الزمن، مغلوبة على أمرها، خاضعة. أما معه، فقد أصبحت القوات

اللبنانية التشكيل السياسي ـ العسكري الأقوى لدى المسيحيين.

وفي العاشر من شهر أيلول/ سبتمبر من العام 1980، عادت الحدث لتجد نفسها مرة جديدة في قلب الحدث، عندما نشب القتال بين الكتائب والجيش اللبناني. كانت المواجهات قد اندلعت على إثر اعتقال شابين كتائبيين، فانتشر الجيش في ضاحية بيروت الجنوبية، مما أثار حفيظة بشير الجميّل الذي كان يريد أن تقوم القوات اللبنانية وحدها بضمان أمن واستقرار المنطقة.

في الحي الذي أسكنه، وعلى مسافة عشرات الأمتار من بيتنا، قام لواء تدخُل للجيش اللبناني بضرب الحصار حول بيت الكتائب الذي كان هدفاً لعمليات القصف، والطلقات الرشاشة الكثيفة. وبالرغم من الرصاص، عزمت القرار يومها على الخروج من المنزل. فخطوت مائة متر تقريباً، مارَّة تحت المبنى الذي كان يحتله الجيش، لأنقل بعض الطعام للمقاتلين الكتائبيين المحاصرين في «البيت». لم أكن لأدرك يومها أنّ مع هذه الخطوات، كنت أستهل السنوات الأصعب والأكثر ثِقلاً وذِخراً في حياتي.

مقاتِلة

لم يكن انضمامي إلى القوات اللبنانية وليد الصدفة. إذ عندما نَظَرَت ابنة الثمانية عشر عاماً حولها، سنة 1980، وجدت ألف سبب وسبب يبرر إنضمامها إلى المقاتلين، بل ويجعل منه فعلاً مُلْزِماً.

في تلك الحقبة، نظرت إلى وطني فوجدته، وهو أصغر بلدان المنطقة، يخضع لتهديد الفلسطينيين. فلبنان ـ هكذا اعتقدنا ـ كان لهم أرضاً مِضْيافَةً، وهم أساؤوا معاملته، فقابلوا كرمه بالجحود. نظرت إلى وطني، فرأيت دولة فلسطينية تقوم على الأراضي اللبنانية، ورأيت الدولة اللبنانية تتخلى عن سيادتها. ولمّا أرهفت السمع، سمعت أبو إياد يعلن أنّ الطريق إلى القدس تمر في جونيه، وهي مدينة مسيحية تقع وَسْط المنطقة المارونية.

في تلك الحقبة، كنت أرى مسلمين لبنانيين يقدّمون الدَّعم للفلسطينيين على حساب لبنان، باسم الواجب العربي والديني الذي يُفْتَرَض بكل مسلم الالتزام به وتأديته. كنت أسمع القَذَّافي يدعو مسيحيي لبنان إلى اعتناق الاسلام، فيما ارتفعت أصوات مسلمة أخرى، وجدت في الطَّرح الدّاعي

إلى أَسْلمَة لبنان، مدعاةً للإطراء والترحيب، في وقت كان فيه لبنان البلد الوحيد في الشرق الأوسط، حيث الوجود المسيحي كثيف ومُمَثَّل في السلطة. كنت أرى أيضاً شيعة لبنانيين يتظاهرون في بعض أحياء بيروت، معبِّرين عن افتتانهم ووَلَعِهم بآية الله الخُمَيْني، الذي كان قد عاد إلى إيران لبناء الجمهورية الإسلامية. كان المتظاهرون يوم ذاك يعلنون تأييدهم الحَماسي للثورة فيها، في وقت كان فيه أبناء هذه الطائفة وتحت شعار ثورة الخميني تقتني السلاح، وتزيد من ثِقلها السياسي في لبنان.

كنت أرى بلادي مهددة من قبل سوريا التي كانت تعمل من أجل العودة إلى حدود سوريا الكبرى حيث، إذ تَمَّ لها ما تريد، لن يشكل لبنان إلا واحداً من أقاليمها، في وقت كانت فيه قوات دمشق تقصف بانتظام الأحياء المسيحية بالمدفعية الثقيلة. كنت أسمع كذلك الناس يتحدثون عن اتفاق سِرّي بين كل من سوريا واسرائيل، ينص على مبادلة الجولان بلبنان.

كنت أرى السيارات المفخخة تنفجر في الأحياء السكنية المسيحية، ممزِقَةً الأجساد إلى أشلاء، وناشرة الرعب.

كنت أرى وطني وقد تخلّى عنه الغرب، فضحى به باسم تشابك مصالح القوى العظمى واتفاقاتها السرية.

كنت أرى الجيش اللبناني غير قادر على الدفاع عن بلادي، فيقف في وجه هذه الجيوش الأجنبية؛ وهو لم يعد

مَوْضِع ثقتنا، لا سيما وأنّ هيبته وسلطته قد مُرّغتا بالتراب. لم تعد الدولة توكله مهام فَرْض النظام وإعادة الأمن، خوفاً من أن يتعرض لانفجار داخلي فيتفتت بين المسيحيين والمسلمين. أضف إلى ذلك كله أنه كان ممنوعاً على الجيش دخول المناطق الخاضعة للسيطرة الفلسطينية أو السورية.

كنت أرى أيضاً «المقاومة المسيحية اللبنانية» تعمل على تنظيم نفسها في مواجهة الجيوش العربية للدفاع عن لبنان، لبناننا الضاربة جذوره في عمق ستة آلاف عام من التاريخ، لبنان الفينيقيين الذي نشر شعاعه فاستضاء به العالم، لبنان قُدْموس مُبْتَدِع الأبجدية، لبنان ملاذ ومعتصَم الموارنة، ولكن أيضاً لبنان أبي.

تلك كانت الزاوية الوحيدة التي كنت أنظر من خلالها إلى الأمور والأحداث في تلك الحقبة. كان عمري ثمانية عشر عاماً؛ كنت في عِزّ الثورة أوجّه طاقتي في اتجاه واحد: الدفاع عن عائلتي والذود عن بلادي. فالبقاء خارج القتال، كان في نظري دليل أنانية لا محدودة، فواجبي يقضي أن التحق بمقاتلي القوات اللبنانية أولئك. لم أستطع أن أفعل غير ذلك؛ فالأهم في نظري كان في أن أكون معهم... وهكذا، رُحت أترقب الفرصة المؤاتية للإنضمام إلى القوات اللبنانية.

«رودجر» أو «حوِّل»

للوصول إلى بيت الكتائب، يجب اجتياز شارعنا، حيث المبنى الذي يشغله الجيش. إنني مستعدة لكل شيء. وأنا أدخل بيت الكتائب، أدرك خطورة خِياري، ولكن الوقت لم يعد مؤاتياً للتردد. أَشُقُّ لي طريقاً بين المقاتلين. وبالرغم من الخوف الذي ينتابني لرؤيتي هذا الكمّ من السلاح، إلّا أنني أحِس بشيء ما في داخلي يُقَرّبني من أولئك الرجال.

يستقبلني لدى وصولي شاب في بذَّة عسكرية. وعندما أعرض عليه مساعدتي، يَقْتادُني إلى صالة سُفْلِيَّة جُمِعت فيها الأجهزة اللاسلكية. إنّ القاعة مظلمة، وجدرانها مُقَشَّرة، ويقتَصِرُ النور فيها على شُعاع يَنْسَل إلى داخلها من خلال نافذة صغيرة للغاية. أرى صوراً لبيار الجميّل معلقة على الجدران، بمحاذاة إيْقونات تمثل السيدة العذراء، وأرزة الكتائب. جيزلان (Ghislaine)، وهي واحدة من بنات الحي، كانت قد سبقتني إلى المكان، حيث تقتضي منها مهمتها الإبقاء على الاتصال اللاسلكي مع مَقَر القيادة المركزية الخاصة بالقوات اللبنانية.

طِوال الأسابيع التي تلت، وبالرغم من أنّ مبادرتي أثارت

حيرة والديّ، إلّا أنني أرتاد «البيت» على نحو شبه يومي. لم أعد أفكر في أي شيء آخر. فكل انشغال آخر يبدو لي عديمَ الفائدة ومَضْيَعَة للوقت. وفي نظري، فإنّ هؤلاء المقاتلين يُبْرزون سِمات البطولة في مُحَيّاهم. إنهم يستطيعون انتزاعي من الخمول والجبن اللذين يثيران الخِشية في نفسي. وبوحي من مثال وطني يؤمنون به، يحمل هؤلاء المقاتلين السلاح، ولكنهم يفتقرون إلى الخِبرة. يَحْتَلّ مَنْ كان أكثرهم علماً وثقافة المواقع التنظيمية ولا شك. يبدون لي مختلفين كثيراً عن الصورة التي أُعْطيت لي عنهم؛ فلا شيء فيهم يدل على أنهم قتلة متعطشون إلى الدِماء ومجانين مَسْعورين. إنهم في الغالب طلاب مثقفون، لديهم من الشجاعة والإقدام ما يَلْزَمُهم للدفاع عن المثال اللبناني.

أتعلم بسرعة استعمال جهاز (CB) للتواصل عبر موجات الأثير مع المسؤولين في مقر القيادة المركزية في الأشرفية. ينبغي على مَنْ يودّ النجاح في الاتصال، التكلم ببطء ووضوح واستعمال الألفباء الدولي لنقل الرسائل المرمَّزة: ألفا، برافو، تشارلي، دلتا، الخ، . . . وذلك بالتناوب مع لفظة «رودجر» (Roger)، التي يجب لفظها باللهجة الإنجليزية من أجل تثبيت الفهم والتَّصْديق عليه. وعلى هذه الموجات، نلتقط كل أنواع الرسائل: رسائل الفلسطينيين والميليشيات الدرزية، كما الشتائم، ومجموعة الألفاظ النابية التي لم أسمعها أبداً من قبل، مع أنني أدرك معناها.

لا يطول الأمر حتى تنْتَظِم بين المقاتلين، الذين أثار الوجود الأُنثوي بينهم، فضولهم واهتمامهم. وتقضي هذه المنافسة بإيجاد الأفكار الأكثر غرابة لتحملنا على الصراخ فزعاً. فيرسلون لنا التهديدات الوهمية عبر الهاتف، ويدعوننا للدخول إلى صالة جنازية حيث يجثم جسد شاب ادعى الموت على طاولة، وقد أحاطَتْه الشموع، ونسمعهم وهم يتلوون من الضحك المتَشَنِّج خلف الباب؛ ولا يلبث أن يستثير صراخنا ضحكاتهم المجنونة. غَسّان، الملقب بالعجوز، هو أكثرهم ميلاً إلى الخيال والمزاح، وهو يعاملنا بطريقة تُفْصِحُ عن عطفه تجاهنا، ونيّته بحمايتنا. تَمُدني رفقته بالراحة والاطمئنان. أما الشابان اللذان يحمل كل منهما اسم «إيلي»، فهما لا يفترقان: واحدهما يكثر من التدخين، فيما لا يطيق ثانيهما رائحة السجائر، التي يدخنها رفيقه الواحدة إثر الأخرى. كلاهما يَنْضَحان بحيوية لامبالية. ثم هناك شربل المهندس، وهو دائم الانشغال بالأعمال الحِرفية وبإصلاح ما استطاع من آلات ومحركات. أما جورج، فهو سيّد المزاح، صاحب الفكاهة السوداوية التي تحملنا غالباً على الضحك. وأخيراً هناك جوزيف وطوني: يبلغ الأول ستة عشر عاماً، والثاني سبعة عشر. إنهما أصغر شبان المجموعة سناً، وهما يعطيان الانطباع بفخرهما بحمل السلاح، أُسْوة بمن فاقهم سناً من الشبان.

في صالة الاتصالات، يتراوح عددنا بين ست إلى سبع

فتيات تسهرن على دوام العمل بالتناوب. ففي هذا الموقع الذي يشبه موقع الصحافي، أشعر أنني في قلب الحدث، أتابع تطور كل المعارك وأطّلع على موضِع المناطق المستهدفة بالقصف.

إنّ أول مهمة توكل إليّ، تقضي بنقل جهاز (CB) لإصلاحه في مقر القيادة المركزية للقوات اللبنانية في الأشرفية. وفي الطريق، ينبغي علي أن أقطع نقطة تفتيش سورية؛ وعندما أقترب منها، أخفف من سرعتي؛ فيشير عليّ الجندي بالتوقف ويسألني أوراق هويتي. وعلى نحو طبيعي، أُخرجها من الحقيبة التي أَخفيت فيها الجهاز، فيلقي عليها نظرة سريعة، قبل أن ينظر إليَّ. فأبتسم ابتسامة خجولة ولكن طبيعية تخفي قلقي، إذ لا ينبغي عليّ المبالغة لئلا أثير الشُّبهات. وفيما يُسَمِرّ ناظِرَيْه في ناظِريّ، يعيد إلي أوراقي وقد عَلَت شفتَيْه ابتسامة ساحرة، يريد بها اسْتِمالتي، مُبْرِزاً سناً ذهبية، وقد تدثرت بشاربه الكث، الأسود اللون. وبإيماءة من رأسه، يدعوني إلى المضِيّ في طريقي. تتسارع ضربات قلبي بقوة، ولكنني لست خائفة. ولا بل إنّ قتالي أصبح أكثر واقعية وأكثر شغفاً، يوم تحملت مسؤولية هذه المجازفة.

فتاة في ثياب القتال

إنها السنة الخامسة للحرب، الثامنة عشرة من حياتي. يعرض أحد المسؤولين في القوات اللبنانية في الحَدَث على الرفيقات متابعة تدريب عسكري، أُوافق وأُقْبِل عليه دون تردد. وسرعان ما استُقْبِلنا في معسكر أُقيم في مكان ما من جبال كسروان، حيث جمعتنا جوسلين (Jocelyne) لتشرح لنا النظام. رأيت فيها أُنْموذجاً حيّاً للمرأة الرائدة، وهو ما يشهد لها به ماضيها، يوم تولّت قيادة فرقة نسائية شَنَّت هجوماً على مبنى كان يشغله قَنَّاصة، خلال معارك الفنادق الكبرى، التي دارت رُحاها، عام 1975، وَسْط مدينة بيروت. إنها تحمل وتستعمل السلاح أفضل من أي رجل. ففي هذا المعسكر، تحيط بها عدة فتيات يَشْعُرن بالراحة في هذا الزّي المرقَّط الأخضر، الذي يزيل عن أجسادهن مَعالِم الأنوثة، التي تُعنى الفتيات اللبنانيات عادة بإبرازها والزَّهو بها. أما أنا، فأريد أن أصبح امرأة حرة، شجاعة، مستقلة.

نمضي الليلة الأولى في خيمة. وفي الصباح، ينبغي علينا الاستيقاظ باكراً، وارتداء ملابسنا على عجل، والاسراع إلى مكان التجمّع العام. ومنذ اليوم الأول، تتعاقب تمارين

استعمال السلاح وأعمال النظافة، من جَلْي للآنية وتطهير للمراحيض، إضافة إلى السير في الجبال الوعِرة، بين الصخور والأشواك التي لفحتها الشمس. أما خلال الليل، فعلينا أن نتناوب في الحراسة.

عندما أوقظونني لأحل محل مَنْ كانت تحرس قبلي، كان الليل لا يزال دامساً. إلْتَحَفْت بغطائي، وتوجهت إلى موقع الحراسة المحدّد لي، حيث قبعت أرتجف من البرد، في ضياء مَشْعَل. ومن خلف أكياس الرمل الرطبة، رُحْت أحدق بالغابة المحيطة الغارقة في الظلام والضباب، مترقّبَة أدنى حركة، مُنْتَفِضَةً لأية قَرْقَعة. تبدو لي نوبة الحِراسة هذه التي لا تتخطى الساعتين، طويلة كالأبدية. فأنا ما عدت أُحِسّ بأصابعي المتجمدة من البرد، وقد قبضت بها على زناد البندقية، في وقت كان فيه ألم مبرِّح يَعْتَصِر معدتي؛ فلا أجد أفضل من أن أصُبَّ لَعَناتي على هذا الموقف المضحك الذي أَقْحَمت نفسِيَ فيه: كيف لي أن أكون هنا، في هذا الزّي القِتالي، أقبع في معسكر تدريب، أحمل رشاشاً وأخاف العتمة؟ ومع ذلك، فأنا أدرك تماماً أنّ ما من شيء يحدث هنا، فأُدرِك حدود طاقتي وقدراتي: إنني أضعف من أن ألعبَ دور الجندي مما كنت أعتقد. وخلال المسير الليلي الطويل الذي نُلْزَم على مكابدته في المعسكر، أخال أنني لن أقوى أبداً على بلوغ نقطة النهاية، وغالباً ما تَفِرُّ الدموع من عَيْنَيّ.

ولكن الانضباط هو أكثر ما يصعب عليه تحمله في هذا التدريب، أكثر من التمارين الجسدية: السير بخطوات موزونة مع ضرورة الحِرص على عدم تَضْييع الإيقاع، التأهُب كما الجندي وتقديم الذات، إسماً ورتبة، وتلقي الأوامر. أعتقد أن تمارين كتلك التي أخضع إليها تنتهي بمن يمارسها إلى تَلَبُّد الذهن، حيث التكرار للحركات والخطوات ميكانيكي بَحْت، بخاصة وأنني لا أدرك فائدة الدوران جماعياً وتقديم السلاح في القتال. كيف لهذه الممارسات أن تَجْعَل من نضالِنا أكثر فَعالية! ولكنه يُقَال إنه لا مَفَرَّ منها لأنها تعزز ارتباطنا ببعضنا البعض وتولّد فينا الشعور بروح الفريق بقوة أكبر، كما لو أنّ الخطر الذي نعيشه يومياً لا يكفي ليضمن لنا ذلك الانصهار! أضِف إلى كل ذلك، هذه الأصوات النسائية التي تصرخ الأوامر، والتي تبدو لي مصْطَنَعَة فتعيد إلى ذاكرتي صور الفتيات الصغيرات اللواتي يُقَلِّدن المدَرّسَة. أجهد لإخفاء ردّات فعلي تلك، ولا تلبث حماستي في المشاركة في هذه اللعبة، أن تتغلب على ما يُراودُني من شكوك حيالها. ولا ألبث أن أعْدُل عن حكمِي هذا أمام ردود الفعل الإيجابية والعارمة التي يثيرها العرض العسكري للنظاميان، في نفوس المئات من المناضلين والموالين لحزب الكتائب.

وخلال الليالي الباردة التي كنت أمضيها تحت الخيمة،

وقد أثقل الغبار شَعْري، وألْهب النفَّاخ قدميَّ، كنت أرخي برأسي على المخدة المطروحة أرضاً، فتخطر في بالي أبيات نزار قباني الذي أجد فيما كتبه من شعر في الحب، جرعتي من الحلم والحنان:

«أُريدُك أُنثى...
ولا أَدَّعي العِلمَ في كيمياء النساءْ
ومن أين يأتي رحيق الأنوثْة
وكيف تصير الظِباءُ ضِبْاء
وكيف العصافير تُتْقِنُ فَنَّ الغناءْ

أُريدُكِ أُنثى اليَدَيْن
وأنثى بهَمْهَسَةِ القِرْط في الأُذَنَيْن
وأُنثى بصوتكِ... أُنثى بصَمْتِك...
أُنثى بضعفِكِ... أنثى بخوفِكِ
أُنثى بطهرِكِ... أنثى بِمَكْرِكِ...

فكوني سَألْتُكِ كُلَّ الأُنوثةِ...
لا امرأةً بَيْنَ... بَيْن...»[1]

---

(1) مقتطفات من قصيدة أريدك أُنثى...، لنزار قباني، من ديوانه هكذا أكْتُبُ تاريخ النساء... بيروت، منشورات نزار قباني، الطبعة الثامنة، 2005.

ففي تلك الليالي تحت الخيمة، لا يبقى إلّا شِعْر نزار ليساعدني على أن أحلم أنوثتي، في عالم ذُكُورِي، تعترض الحرب مسارَه.

أما بالنسبة إلى بنات جيلي، فإنّ أنشطتهن اليومية تبدو لي تافهة، وانشغالاتهن السطحية هي على بعد آلاف الأميال من مسرح مغامراتي الحربية. ومع ذلك، تنتابني رغبة في بعض من خفتهن التي تبدو لي بعيدة المنال. وفي بعض الأحيان، يراودني الشك حيال خِياراتي؛ ففي لبنان، المنافسة شديدة بين الفتيات، وهي تتمثل بخاصة بالحصول على أفضل زوج، «عريس لَقْطَة». ولذلك تُجَاز للفتاة كل الوسائل لتصبح الأجمل، فتزور صالون التزيين النسائي، وتجلس ساعات في الشمس لتحافظ على سمار بشرتها، وتستشير خبيرة التجميل، وترتاد المحال، وتمارس الرياضة وكل ما يستتبع الأمر من ملاحِق.

وخلال التدريب، يتقاطر المحاضرون؛ وهذا هو الوقت الذي أفضله على غيره. أَحَدُهم، وهو وليد فارس، يطلق العَنَان لِنَقد حيوي يستهدف به الإسلام، داعياً إلى رفض انتماء المسيحيين إلى العالم العربي. «إننا شعب مضطهد منذ ثلاثة عشر قرناً، وقتالنا اليوم ليس إلّا امتداداً لهذا الصراع عبر التاريخ!». هذا ما كان يؤكد عليه وليد فارس كحقيقة تاريخية، فيشرح أنه، وخلال القرنين اللذين تَلَيَا الفتح

العربي، قصد المقاومون اللاجئون، قادمين من بلاد ما بين النهرين وسورية وفلسطين، جبال لبنان، فالتَفّوا على بعضهم البعض فيها للحفاظ على حريتهم: «سريان، آشوريون، سوريون، آراميون أو إغريق، مسيحيون من كل المِلَل والنِّحل التي كانت تشكل الفسيفساء المَشرقية، توجهوا إلى المنطقة اللبنانية، وشكل الموارنة المجموعة الأهم والأضخم من هذه الشعوب. فَوُلِدَ لهم موطن وكيان مسيحيين في هذا الجبل اللبناني الذي كان يرفض الخضوع للفاتح الغازي، المحتل». يومها، كنت أجلس على الأرض تحت قبة السماء الكثيرة النجوم، أرتشف كلماته ارتشافاً. كان هذا الخطاب يوجِد التبرير لقتالي. فخوفي تَصوغه الكلمات والتاريخ نفسه يُشَرِّعه. وبهذا ينجح الخطيب المحاضر في إخراجي من عُزلتي. لقد خاف أسلافي مثلي، ولكنهم بقَوْا على قيد الحياة؛ أبناء طائفتي اليوم خائفون ولكنهم يستطيعون الصمود والبقاء على قيد الحياة. وكان من شأن هذا التآخي في الخوف أن حمل المؤاساة إلى نفسي وثَبَّتَني في إيماني واعتقادي.

ومع براءة وسلامة نيّة سنواتي الثماني عشر، اعتقدت أنّ هذا التاريخ الذي سرده علينا وليد فارس، هو الوحيد الصحيح، وأنّ قتالنا سيسمح للشعب المسيحي الاستمرار في العيش بكرامة مع أنني أجهل تاريخ كل الطوائف الأخرى التي تشكل لبنان.

ما يهمني هو السياسة والفلسفة. وفي تشرين الأول/ أكتوبر من العام 1980، قُبِلْت في كلية الإعلام والتوثيق في الجامعة اللبنانية. أذكر أن خالتي جورجيت، وهي امرأة مِغْناج مُتَأَنّقِة، كانت تردد باستمرار على مسامعي في تلك الحقبة، أنّ الأمر سينتهي بشهادتي معلَّقَة على الحائط، ولن أنال بها العريس اللقطة المرغوب.

حبيسة الحرب

قُبَيل نهاية عامي الجامعي الأول، في أيار/ مايو من العام 1981، حوصرت زحلة ـ وهي مدينة مسيحية في قلب سهل البقاع ـ، وهي التي، من حيث موقعها هذا، تسيطر على الطريق الإستراتيجية للغاية التي تربط بيروت بدمشق. طلب مني إيلي، الشاب الذي يحبُ التدخين والذي تزوج شقيقتي، مرافقته لزيارة صديق، يدعى أرتورو بيريز ـ ريڤرتي (Arturo Pérez-Reverte)[1]، وهو مراسل اسباني الجنسية، بغرض تأمين التغطية الإعلامية لاعتصام نَظَّمه مدنيّون على طريق القصر الرئاسي في بعبدا، احتجاجاً على الحصار المفروض على زحلة. لا يزال اسمه غريباً عني. كل شيء يومها حملني على الاعتقاد أنه صحافي مغامر: ذراعاه اللذان رزحا تحت ثِقل كل من آلة التصوير وآلة التسجيل، جسده النحيل، صِداره ذات اللون الأبيض العاجي والجيوب الكبيرة. أمضى

---

(1) أصبح أرتورو بيريز ـ ريڤرتي كاتباً ذائع الصيت دولياً. وفي السابع عشر من أيلول/ سبتمبر من العام 2000، نشر مقالاً عن إيلي في أسبوعية إسبانية تحمل اسم «La carta de Brasil».

أرتورو الصبيحة بكاملها وهو يراقب، ويسأل، ويُدوّن. طرحت عليه عشرة آلاف سؤال، فكان يجيب عنها بطول بالٍ وبفرنسية مترددة. حدثني كذلك عن تحقيقاته المصوَّرَة وأسفاره إلى كل من أريتريا، والصحراء الغربية ونيكاراغوا. فهو مراسل حرب، ومهنته هذه جعلتني أحلم.

في الثاني من نيسان/ أبريل من العام 1981، تجدد القصف السوري بوتيرة أعنف، إذ فتحت القوات السورية نيران مدفعيتها الثقيلة، فانهمرت القذائف بالمئات على الأحياء السكنية في مدينة زحلة، حيث لم تُوفّر لا المستشفيات، ولا المدارس ولا مواكب الصليب الأحمر، وذلك في سعي منها للحَؤول دون إمداد المدينة بالمواد الغذائية.

وبغرض دعم المقاتلين في زحلة، قام شباب القوات اللبنانية باجتياز الجبال المكللة بالثلوج، حاملين لأهل هذه المدينة السلاح والعتاد. فقضى منهم اثنان من البرد في الطريق، حيث ناما مُتجَمّدَيْن في شجاعتهما الى الأبد.

وما إن عَلمَت القوات السورية بمحاولة التسلل هذه، حتى جاء ردُّ فعلها مُلزماً القوات المسيحية بالتراجع، إذ انهالت مدفعيتها على عاصمة البقاع، في وقت امتدت عمليات القصف إلى بيروت الشرقية، بوتيرة محمومَة جهنمية.

ومن جهة ثانية، اسْتُهِلت معركة شدّ حِبال بين القِوى السورية والإسرائيلية، إذ أعلنت اسرائيل جهاراً، على لسان

رئيس وزراء دولتها، مناحيم بيغن، وقوفها إلى جانب المسيحيين في لبنان: «سنحميهم من التهديد الذي تمثله الطائرات السورية». في وقت كانت الاتصالات السرية بين كل من بشير الجميّل والاسرائيليين تتكثف.

أمضي معظم أيامي مع شباب وشابات الحي، في القاعة الأرضية من مقر القوات اللبنانية في الحدث، حيث استقرت أجهزة اللاسلكي والإتصالات. وفي ظل الخطر الدائم، يتولّد لدينا نوع من التعاون الأخوي، كما تعاضد أفراد الأسرة الواحدة.

وفي صباح يوم من الأيام، أخذت راجمات الصواريخ تنفث سُمَّها فجأة؛ لم أكن قد غادرت المنزل بعد. فارتمى جميعنا أرضاً: تحت الدرج، تحت المغسلة، تحت السرير، حيثما استطعنا إلى التدثّر سبيلا، عَلَّنا ننجو بحياتنا، فيما كانت القذائف تنهمر كالمطر. دام ذلك لوقت خِلته دهراً. ثم فجأة، حَلَّ صمت يشبه ذلك الذي يواكب الموت، فيقف كل منا في حالة من الهلع، في وقت كانت لا تزال فيه آذاننا تطِن بصدى الإنفجارات. واذ نظرت إلى أمي، رأيتها ترسم إشارة الصليب على وجهها وصدرها، بحركة سريعة من يدها كما لو أنها كانت تواكب سرعة انهمار القذائف، فإذا بيدها توحي لي بعصا قائد أوركسترا ينهمك في قيادة مقطوعة موسيقية رشيقة الإيقاع؛ ولكنها خلافاً له، فقدت السيطرة على نفسها. وما لبثت صفارات سيارات الإسعاف، التي

كانت تنقل الجرحى على عجل، أن مَزَّقت الصمت، فيما استمرت ألواح النوافذ والمنافذ الزجاجية في التفتت والانهيار.

ومع ذلك، فإن المعنويات كانت مرتفعة إلى أقصى حد. إننا نقاوم. كل واحد منا، يتصدّى لألف منهم. وفي قرارة أنفسنا، كنا مقتنعين أننا سننجح في إدخال التغيير إلى ميزان القِوى، وأنه لن يطول الأمر بمقاومتنا حتى تنتصر على السطوة السورية. كنا مقتنعين بأننا سنَبْتَدِع لبناننا من جديد، وبأنّ الإزدهار سيكون من نصيبه، فتمتلئ الشوارع بالناس ويسودها الأمان والاطمئنان، وبأن الهدوء سيسود لياليا، وتشرق لنا الشمس كل صباح، فننعم بالسكينة والسعادة. كنت أريد أن أصدق أنّ المستقبل الزَّاهي آتٍ، إذ كان لنا ما يُغَذِي إرادتَنا بالصمود والتصدي، ويَرُصُّ صفوفنا، ويوثّق عُرَى الروابط بيننا: ألم نكن قِلة بمواجهة قوتهم؟ ألم نكن ضعفاء في مواجهة آلة حربهم؟ ألم يكن أصدقاؤنا الغربيُّون قد تَخَلَّوا عنا؟ كل ذلك كان يدفع بنا إلى تكريس كل وقتنا للمقاومة. أيام وليال مضت ونحن نكابد القذائف في هذا «البيت»، مقر القوات اللبنانية في الحدث، فلا نخرج منه إلّا خلال الأوقات القصيرة التي تشهد هدوءاً للجبهات، عَلَّ الشمس تَلْفَحُنا، فَنُحِسُّ بوَهْجِ الحياة ولو للحظات. كنا نشترك في هذه الحرب كما لو كنا نتشارك خبزنا اليومي. كنا مرهقين؛ لا نأكل إلّا قليلاً، لا ننام جيداً؛ كان الأمر صعباً، ومع

ذلك كان جميلاً. ومع مرور الوقت، تلاشت علاقاتنا مع الخارج، وكان لقوة روابطنا أن عزلتنا لدرجة بِتْنا معها كما الصخرة المتماسكة الصلبة، لا نَفْتَرِق، لا نُخْتَرَق. أما مَنْ كانوا ينتقدون الحرب، فكانوا في نظرنا حفنة من الخونة ليس إلّا، ومن لم يشارك فيها، إنما كان جباناً. وبهذا، راحت حياتنا اليومية تنفصل شيئاً فشيئاً عن ذلك المجتمع الخارجي، لكي تنطوي على نفسها، كما لو كانت في دير اختار المقيمون فيه التقَشُّف والزهد. فابتعدنا عن المجتمع، ولم نعد لنجد راحتنا إلا معاً. هؤلاء الرفاق كانوا أصدقائي إلى الأبد. أحياء أم أموات، حاضرون أم غائبون، سيظلون أصدقائي إلى الأبد.

لم أعد أخلع بزّتي العسكرية، ولدى مروري في الشارع، كانت النساء تطل برؤوسها من النوافذ، فلا أبالي بنظراتهن التي تُفْصِح عن استغرابهن. وشيئاً فشيئاً، نجحت في جعل بزّتي مقبولة من المحيطين بي، أهلي وأهل الحي. فأنا أتصرف بهدوء، لا أستثير النزاع ولا أستجلب المواجهة. أفعل ما أريد فعله ببساطة. وكان أبي، الحق يُقال، يظهر تسامحاً وتفهماً نادرَيْن في تعامله مع حماستي الشابّة.

ولم تلبث الزيارات المكوكيّة التي قام بها المبعوث الأميركي، والوساطة السعودية التي دخلت على خط

المفاوضات، أن نجحت في التوصل أخيراً إلى التوقيع على اتفاق زحلة، وبموجبه عاد الوضع إلى ما كان عليه من حال بين كل من سوريا والمسيحيين: وضع راهن. ولكن عنف النزاع الإسرائيلي ـ السوري استمر، في وقت كانت فيه الاشتباكات المدفعية العنيفة والمكثفة تضع الفلسطينيين، في جنوب لبنان، وجهاً لوجه مع اسرائيل. فيقوم الجيش الإسرائيلي، «تساحال»، بشن ما أسماه بالعمليات الإستباقية الوقائية عبر قصف المواقع الفلسطينية مما لم يمنع الفلسطينيين من قصف المستوطنات الواقعة في شمالي إسرائيل، موقعين الإصابات بين المدنيين المقيمين في مزارعهم الجماعية، الكيبوتزيم.

جمال، اللقاء النادر

منذ العام 1976، لم ألتقِ بمسلم واحد، باستثناء رفيقة صفي، سوسن، وجارنا، مهدي. فمنذ ذلك العام، والانقسام حال البلاد، لم يوفّر فيها شيئاً ولا حتى الجامعة اللبنانية التي قُسِّمت هي الأخرى إلى فرعَيْن:

الفرع المسيحي في جهة، والفرع المسلم في الجهة الأخرى.

إلتقيت جمال خلال سنتي الجامعية الثانية، في شهر شباط/ فبراير من العام 1982. جاء يومها برفقة العميد حسن صعب، الذي أتى يناقش معنا الحوار المسلم ـ المسيحي. وهي زيارة لم تَرُق لمصلحة الطلاب في حزب الكتائب التي نظرت إليها بشيء من الارتياب، إذ كانت الشكوك تراود الطلاب المنضَوين تحت لوائها، بشأن حسن صعب، فيتهمونه بأنه يسعى إلى توحيد الجامعة اللبنانية، وهذا ما لم يكن بالإمكان تصوره بالنسبة إليهم. كانت مصلحة طلاب الكتائب تَبْسُط سيطرتها على الكلية، وتَنْشَط لتجنيد من كان يرتضي الإصغاء لناشطيها. لم أكن على علاقة أبداً بهذه المجموعة

التي كانت تعتمد في مقاربتها للطلاب والأمور طرقاً تسلطية أثارت حفيظتي. فمن كان يعترض على وضع اليد الذي يمارسه الحزب، كان يُعتَبر فوراً يسارياً أو مسلماً، أو الاثنين معاً. أما أولئك الذين ما كانوا ليوافقوا على ما يحصل، فكانوا يَلْزَمون الصمت، أو لا يُعَبّرون عن استيائهم بما يكفي من القوة. وفي كل الأحوال، فأنا ما كنت أعيرهم اهتمامي، ولا أرهِف سمعي لما يقولون.

على كل حال، كان النقاش غائباً عن الكلية، حتى في المقهى أو الكافتيريا. وكان ما نَتَلقّاه من علم كلاسيكي الطابع، نظري النهج، في محاضرات أُحادية الصوت، لا تترك للنقاش مكاناً. لم أكن أحضر تلك المحاضرات، ونادراً ما كنت أُرى في القاعات التي تُلقى فيها، إن شيئاً واحداً فقط كان يشغلني على حساب كل الباقين: المقاومة.

كان حسن صعب يُعَدّ واحداً من هؤلاء المثقفين المسلمين اللبنانيين الذين يعتقدون أنّ اللجوء إلى التسوية أمر ضروري من أجل الدفع بالسياسة قُدُماً في بلد صغير كلبنان، فيه تعددية وانفتاح، ولكن الإنقسام يسوده على المستوى الإيديولوجي. دعانا يوماً إلى التفكُّر في العلاقات السائدة بين المسيحية والاسلام قائلاً: «لماذا العدائية هي التي تتولى إدارة العلاقات بين هاتين الديانتين الشقيقتين عوضاً عن الصداقة؟» شعرت في نفسي الإستعداد للإجابة عن سؤاله ذاك، فرأسي يزخر بالنظريات والأطاريح القومية ـ المسيحية

التي لَقَّننا إياها كل من وليد فارس وأمين ناجي، وقد كانا مفكّرَيْن مقبولَيْن في معسكرهما فقط.

كان الطالب المسلم الشيعي الذي جاء يشارك في النقاش معنا يدعى جمال، تَيَمُّناً بجمال عبد الناصر. يوم ذاك، كان لكلمة «الناصري» بالنسبة إلي وقع مسلم وعربي على حدّ سواء، مما لم يُسَوّ وضعه في نظري. ومع ذلك، فإنني كنت مستعدة للنقاش مع جمال، لا سيما وأنه كان شاباً بهي الطلعة، ذا أنف طويل ودقيق، وشعر أشقر تتساقط خصله على عينيه الفاتحتي اللون، فيما تغطي ذقنه لحية خفيفة لم تبلغ من العمر أكثر من اثنتين وسبعين ساعة. كان مسلماً، صحيح، ولكنه كان وسيماً.

تواصل النقاش الذي انطلق في قاعة المحاضرات، بمشاركة مجموعة صغيرة من الطلبة، اختارت مقهى الكلية مجلساً لها. كان لدينا الكثير لنقوله، فنحن ننتمي إلى عالمين مُخْتَلِفَيْن: يناضل جمال من أجل دفاع غير مشروط عن القضية الفلسطينية، والمشروع الناصري والحلم العربي، مُتخذاً من جريدة السفير، وأغاني مرسيل خليفة الثورية مراجع له. أما مراجعي، فكانت مُسْتَلْهَمَة من مكان آخر: من لبنان أولاً، ثم من إرث الفينيقيين، ومن الغرب ومن أغاني أنريكو ماسياس (Enrico Macias)... اشتد وطيس النقاش، ولكن جمال كان يعرف كيفية احترام الأصول، فَيُبقي على ابتسامته: عيناه يقظتان، نظرته ثاقبة وكلامه يُفْصِح عن ذهنه الحاد. لم

أفصح له يومها عن التزامي بالقوات اللبنانية، ولكني شككت في أنه يدرك الأمر جيداً. فأشارك طوعاً في نقاش هذه الأفكار التي كنت في طور اكتشافها.

عندما عرض علينا جمال مواكبتنا في زيارة للفرع الثاني لكلية الإعلام والتوثيق الواقع في بئر حسن، في الجهة الإسلامية لبيروت، كنا أربع شابات وافقن على الأمر: رولا، غِنى، أنا وميّ التي كانت تعرف بالتزامي فقالت لي، «إنك مجنونة، لا تخاطري». ولكن المغامرة تترافق دوماً مع الخطر، وأنا أرغب في الذهاب إلى الجهة الأخرى، كما فعل جمال.

قررنا أن تكتنف السرية هذه الزيارة، فأفرغت حقيبتي بالكامل لأزيل أي أثر يدل على انتمائي للقوات اللبنانية: دفتر العناوين، مفكرتي، مُدَوَّناتي...

في نيسان/ أبريل من العام 1982، انتظرنا جمال في سيارته التي ركنها في الجدَيْدِة، وهي منطقة مسيحية تقع على مسافة بعيدة عن الكلية، ضامناً بذلك الاستتار عن أَعْيُن الفضوليين من الرفاق الكتائبيين. شعرت وكأننا ننطلق، كما فتيات جيمس بوند، في زيارة استكشافية سِرّية لأرض العدو نتَّجه إلى المَعْبَر بين البيروتين، فتصبح الطرقات شيئاً فشيئاً أكثر حُفَراً، وأقل قَطْرانا، وتكثر على جنباتها الجدران

المَكْسُوة بالرسوم، والأبنية المتصدعة أو المدمرة أو الكثيرة التجاويف والشقوق بفعل ست سنوات من الحرب الطاحنة. نقطع خط التماس، فاتبيَّن من خلال الأشواك البرية المتشابكة، مسار الطرقات القديمة في هذه الأمكنة المهجورة التي يسودها الخراب والدمار، حيث العشب العالي يجتاح تلك الأرض المنزوعة السلاح والمتنازع عليها في آن. لعل ذلك هو السبب الذي من أجله أطلق البعض على خط التماس هذا، اسم الخط الأخضر.

بعد أن قطعنا الحاجز الأخير للقوات اللبنانية، وصلنا إلى أول نقطة تفتيش تابعة لواحدة من الميليشيات اليسارية والمسلمة التي لا أستطيع تحديد هويتها. الشعارات والملصقات تتراكم بشكل فوضَوي على مكعَّبات ضخمة من الباطون المسَلَّح، وأكياس رمل تشهد على مرور أمراء الحرب المتعاقبين «من هنا»: فالمطرقة والمنْجل مكسوان جزئياً بصور أبي عَمَّار، وهو «اسم الحركة» أو إسم الحرب الذي اتّخذه ياسر عرفات لنفسه، وشعار حركة أمل الأخضر، وهي "ميليشيا الشيعية، وغيرها. خفَّف جمال من سرعة سيارته ليستطيع المرور بها في التعرّجات بين المكَعَّبات، قبل أن يتوقف أمام الحاجز المولَج مسؤولية التحقق من الهويات، فيقول مطمئناً:

ـ صباح الخير، يا رفيق!

أنظر أمامي مباشرة عَلّني أوحي لناظِري بهدوئي واسترخاء

بالي. وإذا بأسئلة تتدافع في خاطري: ماذا لو كنا نتعرض لعملية اختطاف دون علم منا؟ من سيعلم بالأمر؟ لا أحد يعرف أين نحن؟ أحسست آنذاك بارتفاع منسوب الإدرينالين في دمي. وكما لو أنه أدرك قلقي، قال لنا جمال بعد أن انطلقنا مُكملين مَسَارنا:

ـ رفيق! إنها كلمة سحرية تضمن المرور بسهولة أكبر.

تقدمت السيارة بهدوء، وحَلَّ الصمت محل الإثارة التي طبعت انطلاقتنا من الجدَيْدة، إذ تلاشت ضحكات كل من رولا وغِنى ومي. كان ذلك عالم مجهول يُفتح أمامنا: الرسومات والملصقات على الجدران تُفصح بوضوح عن الأجواء: «الموت للكتائب»، شعارات وأعلام لأمل ـ الميليشيا الشيعية ـ، وللحزب التقدمي الإشتراكي ـ الميليشيا الدرزية ـ وللمنظمات الفلسطينية واليسارية تتداخل وتتشابك ببعضها البعض فتذكّرني أنني في أرض العدو. كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها ذلك بأم عينيّ، على بعد بضعة كيلومترات فقط من حيث أقيم.

وفي الطريق، أرى بقايا بعض الأبنية المهدَّمة، لا تزال قائمة منتصبة بطريقة عجائبية، جاهزة للانهيار ما إن تُسنَح لها الفرصة بذلك. ومن خلال التجاويف في الجدران، أتبين غسيلاً منشوراً، فأتساءل من يمكنه العيش في هذه الخرائب والإبقاء على اهتمامه بالنظافة وشروطها في ظل هذه

الظروف. فيتناهى إلى مسمعي صوت جمال يشرح لي الأمر قائلاً:

- إنهم مُهَجَّرون من جنوب لبنان؛ وهم يفضلون العيش هنا على تَحَمُّل الإحتلال الإسرائيلي.

وهكذا، وجدت نفسي في بيروت الغربية، ولكنها لا تشبه بشيء لبناني. أدركت حينها أنه لا بد أن يكون لجمال نفس الشعور أمام بيارق القوات اللبنانية، وصور السيدة العذراء على أعقاب بنادق المسلحين في منطقتنا. أدركت الفرق الشاسع بين زيارتي هذه، وتلك الزيارة الأخيرة التي قمت بها إلى بيروت الغربية، عام 1975، يوم رافقت والدتي في جولتها على تجار الجملة. آنذاك كان لي من العمر ثلاثة عشر عاماً؛ أما الآن، فقد زالت كل نقاط الاستدلال التي كنت أعرفها.

أجد الفرع الإسلامي للكلية أكثر ضخامة من فرعنا. فكل شيء فيه كبير: قاعات المحاضرات، المكتبة، المقهى أو الكافتيريا. ها نحن وَسط لبنانيين من جيلنا، يواصلون اكتساب نفس المعارف التي ندرسها. أننتمي إلى الكلية عينها، إلى لبنان عينه؟ نود جميعنا أن نصبح صحافيين ومُوَثِّقين، ولكننا نتابع تحصيلنا الجامعي منفصلين في كليتَيْن. كليتان، وجهان للحقيقة عينها، بخاصة وأنّ الفروقات الظاهرية بسيطة لا تذكر: بضع طالبات يرتدين الحجاب، لِحَى أكثر، ولهجة مختلفة قليلاً.

لَقِينا استقبالاً حاراً. وكان من شأن مزاح مَيّ وضحكات رولا أن ساهمت في ترطيب الأجواء. قدموا لنا قهوة قوية، كثيرة الهال، ضاعفت من عصبيتي، فهمست رولا في أذني: «لا تشربي هذا، خذي كوكا كولا، فهذا أضمن».

كانت مغامرتنا سريعة للغاية، اقتصرت على زيارة استكشافية بسيطة. وفي المساء، شعرنا بالفرح يغمرنا للعودة إلى منازلنا، إلى مناطقنا.

أثار نضوج جمال واهتمامه الودود المتسامح معنا إعجابي وعجبي، فأبقيت على اتصالي به. وفي نهاية الصوم، جاء يزورني حاملاً معه الحلوى. يومها، كان آلان (Alain)، صديق مُوالٍ للقوات اللبنانية، في داري.

يُعَد آلان من المثقفين، وهو يحمل لقب «الموسوعة الجوّالة». تفيض نَظّارتاه الضخمتان من وجهه الضيق، فيما توحي لك سماكة الزجاج في نظارتَيْه تينك بما كان لعينَيْه الصغيرتين من صولات وجولات في الأطنان من الكتب.

وسرعان ما يطلق آلان العنان لخطاب أُحادي الصوت، يحلل فيه معركة زحلة والآمال المعقودة على بشير الجميّل. فيكتفي جمال بإيماءة من رأسه، تهذيباً. وفيما ينتصب آلان من مقعده واقفاً، ويقول:

ـ ينبغي أن يعاملوا كالزُّنْبُرك. سحقهم وإبقاء القدم ضاغطة عليهم. تلك هي الوسيلة الوحيدة لقمع المسلمين وترويضهم.

ثم، يرفع قدمه، ويضغط بها بقوة على السجادة، وهو يديرها يُمْنَة ويُسرةً، كما لو أنه يُمعن في سحق صرصور. أُلاحظ أن قدمه الصغيرة تنتعل حِذاء لا يتعدّى قياسه التسعة والثلاثين.

ألقي بنظرة خاطفة على جمال، فأرى ابتسامة تلوح في زاوية شفتيه. أتساءل ما إذا كان ينبغي عليّ أن أقف وأقول إنّ جمال مسلم، ولكنني أنتبه إلى أنّ ذلك قد يفاقم الموقف. ثم لا يمكن لآلان أن يشك بأي شيء. فأنا فوق الشبهات لعمق التزامي بالقوات.

ينظر إليّ جمال، دون أن يرِفّ له جفن، فبما علت شفتيه ابتسامة خفيفة للغاية. يواصل آلان كلامه بالحماسة عينها:

ـ لا ينبغي أبداً أن ترفع قدمك عنهم، وإلّا انتفضوا.

ـ دعيه يتكلم، يقول لي جمال، كما لو أنّ الكلمات تنزلق عليه دون أن تخدشه حتى.

وعندما يدرك آلان أخيراً انزعاجي، يتوقف فجأة عن الكلام، يرتدي بخفة معطفه، يلقي التحية على عجل، ويغادر المنزل. لا أقول شيئاً لجمال، فالأمر لا يحتاج إلى تعليق.

بعدها، حالت الأحداث دون أن أراه مجدداً خلال الحرب.

فتح اغتيال أنور السادات، في السادس من تشرين الأول/ أكتوبر من العام 1981، على يد فرقة فدائية اسلامية أصولية،

الطريق أمام سلسلة من الاغتيالات السياسية والاعتداءات بواسطة السيارات المفخخة في لبنان.

وفي نهاية ذلك العام، سنحت لي الفرصة لأعود فألتحق بمصلحة الاتصالات اللاسلكية في مقر القيادة المركزية للقوات اللبنانية، الذي يقع على مقربة من مرفأ بيروت. كان هذا المبنى فيما مضى مقر الكرنتينا أو المَحْجَر الصِحي الخاص بالحجّاج العائدين من مكّة المكرَّمة.

وبعد أيام قليلة، رأيت للمرة الأولى العلم الإسرائيلي يرفرف بين العلم اللبناني وعلم القوات اللبنانية. كان يُتَوَقَّع وصول شخصية إسرائيلية مرموقة في زيارة خاصة إلى بشير الجميّل. أدركت أنّ شيئاً خطيراً في طور التحضير.

إيلي، مَسْلوب الغد

في السادس من شهر حزيران/ يونيو من العام 1982، اجتاح الجيش الإسرائيلي لبنان في عملية أَطلق عليها اسم «سلام الجليل». وفي الثاني عشر من الشهر عينه، ضَرَب الحصار حول بيروت. فإذا بالمقاومة الفلسطينية تدخل معه في صراع حتى الموت.

رأى أهل المعسكر المسيحي في الاجتياح الإسرائيلي تدخلاً من العناية الالٰهية جاء تلبية لرجائهم، هم الذين كانوا يتطلعون إليه منذ سنوات. «وحدها إسرائيل تستطيع أن تخلّصنا من سوريا والفلسطينيين». هذا ما كان يردده جارنا لدى زيارته الصباحية اليومية لنا، فيؤكد مقسماً أنه يَسْتَقي معلوماته من مصادر عُليا: «ستدخل إسرائيل».

منذ أشهر، ونحن نعيش في مقر القيادة المركزية للقوات اللبنانية، حالة من التيَقّظ والترقّب، متحدثين عن وصول وشيك ومداهم للجيش الإسرائيلي، «تساحال». فراحت التحضيرات تتزايد. كنا ننتظرهم.

وفي منتصف شهر حزيران/يونيو، احتشدت مئات الآليات

العسكرية، وتقدمت حتى تخوم بيروت، حيث دخلت المناطق المسيحية، في القِسم الشرقي منها.

إسْتَقَلَّيت كعادتي سيارتي الڤولس ڤاغن الزرقاء اللون، لأصل إلى القيادة العامة. وكعادتي أيضاً، ركنت سيارتي في الساحة العامة، بين سيارات الرانج روڤر والمرسيدس الكثيرة الرواج في لبنان الذي كان، في تلك الحقبة، يشهد كغيره من الدول، بداية كأس العالم لكرة القدم. وبما أن عائلتي كانت تدعم بكثير من الحماسة والشغف الفريق الألماني، فلقد كان من الطبيعي أن يرفرف علم ألمانيا على سيارتي، وأن يحمل زجاجها المتَّسِخ بالغبار عبارة «تعيش ألمانيا» التي خَطَّها أخي الأصغر يوسف بإصبعه. فإذا بأحد الرِفاق يحثني على إزالة العلم والإسراع إلى غسل سيارتي: «الڤولس ڤاغن»، خِشية أن يبدو وجودها وهي على هذا الشكل في ساحة القيادة العامة بالذات، استفزازاً للوافدين حديثاً إلى البلاد.

عشية وصول الإسرائيليين، دُعِي إيلي، الشاب الذي لا يحب التدخين، إلى تولي، مع بعض من شباب القوات اللبنانية، عملية في كلية العلوم التابعة للجامعة اللبنانية والواقعة على تخوم الضاحية الجنوبية لبيروت. ومن وجهة النظر العسكرية، كانت هذه الكلية تعتبر بمثابة «القِفل» الذي ينبغي تفجيره ليصبح الوصول إلى قلب العاصمة ممكناً. وبمعية فريقه الصغير، كان إيلي يتقدم في أروقة الكلية ساعياً

للتموضع، عندما فاجأه رشق رصاص، أصاب رأسه فأرداه على الفور.

قبل بضعة أسابيع على مقتله، كان إيلي قد مَرَّ بمتجر والدي طالباً مني مرافقته في مهمة. أشار علي يومها بأن أحمل معي ملفاتي الجامعية. قصدنا كلية العلوم الواقعة على خطوط التّماس، عند مفترق الشويفات ـ الحدث ـ كفرشيما، وهو موقع استراتيجي على أبواب بيروت الغربية، يقع تحت سيطرة الحركة الوطنية، الحليفة للقوات الفلسطينية. ونحن في الطريق، أعطاني إيلي بعض الإرشادات قائلاً: «ستتصرفين كما لو كنت طالبة في هذه الكلية. كوني طبيعية؛ لا تتكلمي واتبعيني». فالتزمت بحذافير تعليماته ورحت أتبعه. فإن توقَّف، توقَّفت؛ وإن تَقَدَّم، تقدَّمت، آتية طِوال الوقت بحركات آلية. قمنا بزيارة بعض أدوار الكلية، حتى أنه تسنى لنا أن نرتشف القهوة بالهال في مقهاها. ولوقت طويل، بقيت ذكرى مرافقتي لإيلي في مهمة استطلاعية لتلك الكلية، قبيل مقتله، تثير القلق في نفسي.

كنت وشقيقاتي في حالة من الانهيار عندما انْضَمَمْنا إلى أصدقائنا جميعهم لنُوَدعه الوداع الأخير. ومع أنني واكبت الحرب في سنواتها السبع، إلا أنني لم أكن قد رأيت رجلاً ميتاً بعد. فخلال الجنازات، كنت أحرص على تفادي مثل هذه المواجهة. أما إيلي، فقد تَعَمَّدت رؤيته جثة هامدة.

ما إن وصلنا يومها إلى الشارع الذي يقطن فيه حتى تناهى الصراخ والعويل إلى مسامعنا. في الخارج، احتشد جمع غفير: الجيران، الأصدقاء ـ وقد كانوا جميعهم هنا ـ، كما معظم عائلات الحدث. وعلى مدخل مَسْكَنِه. وقفت نساء، متشحات بسواد الحداد، تبكي وتفقد الوعي. كان المكان عابقاً بعطر ماء الزهر. دخلنا إلى الدار، الواحدة في إثر الأخرى، ونحن نمسك بأيدي بعضنا البعض خشية أن ننهار. كان ايلي هنا ممدداً وسط الصالة. أمه ترقص ألماً أمام جسده، تنظر ولا ترى، كما لو أنّ غَشْيَة تملّكت منها؛ وحول الجثمان هيجان حاد، وقلق خواطِر. رأسه المثقوب برصاصة لم يَعُد يؤلمه. إنه شبه مستكين. في تلك اللحظة، زال كل ما كان حولي. لم أعد أرى إلّا ذلك الجسد. كانت تلك اللحظة رهيبة، إذ كنت أنظر إلى الموت في وجه صديق. أتفحص إيلي لثوان طِوال، قبل أن أُلقي بِشَفَتيّ على جبينه الجريح. رأسه بارد، أكثر برودة من رخام شاهِدَةِ القبر، التي حُفِرت عليها عبارة «مات إيلي من أجل لبنان». إنه شهيد. لو علم بالأمر، لكان صدقه. في تلك الحقبة، كنت أسوَة بأصدقائه، أؤمن بأنه رحل شهيداً.

غطّت صور ايلي جدران الحدث. ففي الحرب، نعتبر أنّ هناك الموتى العاديين والشهداء. ولعل في القول إنّ الشهيد لا يموت كما الآخرين، سَعي إلى التخفيف من حدة الألم الذي يعانيه الأحياء لفقدانهم وافْتِقادِهم الأحباء ممن رحل

بهم الموت. فالشهيد أكثر من مَيْت. ومع أنه ليس قديساً، إلا أنه يستطيع إدراك الجنة. وَلكن كل ذلك كلمات لا تغير في واقع الأمر شيئاً. ومع الوقت، ندرك أنّ مَنْ مات لم يَعُد هنا، سواء كان شهيداً أم لم يكن. هل ضَحّى إيلي بنفسه، أم ضُحّي به؟ لا أعرف. كل ما أعرفه، هو أنه حُرِم من حياته، وهو لم يكن إلّا في الحادية والعشرين من عمره. مات إيلي، ونحن أضعناه إلى الأبد، كما لو أننا أضعنا جزءاً من أنفسنا. لا يزال غيابه يؤلمنا، كما الطَّرف المبتور.

انتصار واغتيال قائد

يَضْرِب الجيش الإسرائيلي الطوق حول بيروت الغربية، حيث لا ماء ولا كهرباء، في وقت يُغِيْر فيه طيرانه قاصِفاً هذه المنطقة من العاصمة. يبدو أنّ بشير الجميّل يقاوم الضغوطات الإسرائيلية التي تحرّضه على دخول المخيمات الفلسطينية وتطهيرها. وبعد مرور شهر على الأكثر، يطرح ترشيحه للإنتخابات الرئاسية، فنطمئن إلى أنّ حلمنا بات على قاب قوسَيْن أو أدنى من أن يصبح حقيقة واقعة: دولة لبنانية يتولّاها مسيحيون أقوياء. ففي بلد يتألف من سبع عشرة مجموعة طائفية، ينص ميثاق العام 1943 على أن يكون رئيس الجمهورية دائماً مسيحياً، وبخاصة ماروني. هذا ما عقد اللبنانيون العزم على وضعه حيّز التنفيذ، بعيد الاستقلال، في تسوية حول التوزيع الطائفي للسلطات الثلاث، إتفق على تسميتها بـ «الميثاق الوطني». إنه اتفاق غير مكتوب بين المسيحيين والمسلمين، يقوم بموجبه المسيحيون بالتخلّي عن حماية الغرب والاعتراف بأن لبنان ذو وجه عربي وبأنه يشكل جزءاً من العالم العربي، بينما يتخلى المسلمون عن الوحدة العربية وعن نِيَّتهم بإدماج لبنان في

المجموع العربي الأوسع. أضف إلى ذلك أنّ الدستور اللبناني يجعل من رئيس الجمهورية سيداً للسلطة التنفيذية، أي ملكاً حقيقياً.

وفي الثالث والعشرين من آب/أغسطس من العام 1982، حصل ما لا يمكن تصوره، بالنسبة إلى القوات اللبنانية. ففي وقت كانت فيه بيروت تودِّع مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية، وبينما كانت قوات الفصل الدولية تتحضر لإنزال فيالَقها في العاصمة، كان بشير الجميّل يُنْتَخَب رئيساً للجمهورية اللبنانية، بعد أن اقْتِيد بعض النواب باليد إلى مكان الانتخاب، سعياً لاكتمال النصاب. وهكذا، أصبح بشير الجميّل الرئيس الثالث عشر لجمهورية لبنان. وما إن أُعلن انتخابه حتى عَمَّ الفرح المناطق المسيحية، حيث راحت السيارات تجوب الطرقات والشوارع حاملة أعلام القوات اللبنانية. وتحت نوافذ مكتبه في المجلس العسكري، كنا يومذاك حفنة من الشبان والشابات يَشبِكون الأيدي ويرقصون بحماسة على إيقاع الأغاني والأناشيد الوطنية. كيف لا نفيض أملاً ورئيس كل اللبنانيين واحد منا، ينتمي إلى صفوفنا، يجسد كل تطلعاتنا؟ انتهت الأفكار الرجعية البالية، وذهبت السياسة المائعة التي ترتَضي المساومة إلى غير رجعة، حاملة معها اللغة الخشبية والخطابات المُرمَّزة الغامضة. فمن الآن وصاعداً، سنعيش أقوياء في دولة قوية وسيكون مستقبلنا زاهراً، مشرقاً، واعداً.

إنّ شعبية بشير كبيرة في قلوبنا، ولكن شبح إيلي لا يزال يطوف قريباً منا، فيعطي لهذا الانتصار مذاق العَلْقَم.

بعد انتخابه رئيساً للبلاد، لا ينفك بشير الجميّل يثير العجب بشعبيته ومواقفه. ففي كل مرة كان يُطِلّ فيها، كان اللبنانيون من كل حدب وصوب يهتفون ويُهَلّلون له، مرحبين بخطابه السياسي الذي بدا لهم وكأنه يخط تحولاً جديداً لم يألفوه من قبل. إذ نجح شعاره الدائم الداعي إلى سيادة واستقلال العشرة آلاف وأربعمائة واثنين وخمسين كيلومتراً مربعاً ($10.452Km^2$) ـ وهي مساحة لبنان الكلية ـ بإعادة توليد فكرة لبنان الواحد الموَحَّد، بخاصة وأنه لا يتوانى في المجاهرة بانفتاحه على الطوائف الأخرى وفي التعبير الواضح عن إرادته بإعادة بناء الدولة المتعددة الطوائف.

ولكن فرحنا قصير الأمد. ففي الرابع عشر من أيلول/ سبتمبر من العام 1982، أي بعد مرور عشرين يوماً على انتخابه رئيساً للبلاد، قطع ملحق إخباري خاص وتيرة البرامج الإذاعية المعتادة، فَبَث نبأ وقوع انفجار ضخم في مقر القيادة العامة لحزب الكتائب في الأشرفية حيث كان يتواجد بشير. لا زلنا نجهل ما إذا كان في عداد الضحايا الكثر الذين سقطوا في هذا الاعتداء. ما إن سمعت بالخبر، حتى سارعت بالتوجه إلى القيادة العامة: «رأيناه يخرج سيراً على الأقدام، جريحاً، ولكن حيًّا يرزَق». هذا ما قاله البعض، فيما أكَّد البعض الآخر على أنه «تَمَّ التعرّف على جثته». في

الواقع، قُتِل بشير على الفور، ولكننا ما كنا نَقْوى على تصديق الفاجعة، في وقت راحت الشائعات فيه تَسْري: «إنهم يخفون عنا الحقيقة إنهم يكذبون علينا». ولهول الصدمة، أخذ المسيحيون يؤمنون بالأعاجيب: «سيعود».

ولكن بشيراً كان قد مات فعلاً. تدل الأصابع على سوريا بوضوح، فيما تكثر الاتهامات ضد اسرائيل، اذ كشفت الصحافة عن الضغوطات التي يتعرض لها بشير لكي يوافق على توقيع اتفاق سلام مع الدولة العبرية، أثناء لقائه بيغين، بُعَيْد انتخابه رئيساً للجمهورية: «اسرائيل تخلَّت عنه، لأنه رفض أن يوقع اتفاق سلام معها، دون مشاورات مُسْبَقَة. بالنسبة إلى بيغين، كان ذلك خيانة».

وهكذا حَلّ اليأس محل فرحة ونشوة الانتخابات، وتولَّد لدينا شعور بأنّ مستقبلاً قاتماً يتربّص بنا. وفي الليلة نفسها، دخل الجيش الإسرائيلي «تساحال» بيروت الغربية بغرض السيطرة على مفترقات الطرق الرئيسة فيها. وفي السادس عشر من شهر أيلول/سبتمبر ذاك، قُتِل المئات من المَدَنيين الفلسطينيين، في مخيمات صبرا وشاتيلا، على مرأى الجيش الإسرائيلي، وبمشاركة من مقاتلي القوات اللبنانية. ولشدة إنهاكها وإحباطها، لم تأت الطائفة المسيحية بأية ردة فعل تدين بها ما حدث، كما لو أنها باتت عمياء البصيرة، في وقت راح بعضهم يبرر وبصوت خافت، الفظائع التي ارتكبت في كل من المخَيَّمَيْن، بالمآسي التي عاشها وكابدها مسيحيو

لبنان: «وماذا عن آلامنا نحن طِوال ثماني سنوات من الحروب، ومجازر الدامور والشوف، وقد أتى اغتيال بشير الجميّل أخيراً ليتوجَّها كلها، وما من صدى لها في الغرب. لقد دفعنا غالياً ثمن الوجود الفلسطيني».

وهكذا فقدنا مؤسسنا وقائدنا. «كيف لنا أن نستمر من دونه». ذاك كان السؤال الجوهري المطروح بالنسبة إلى شباب القوات اللبنانية الذين ما كانوا ليهتموا بمعرفة هوية الرئيس الجديد.

في الحادي والعشرين من شهر أيلول/ سبتمبر، أي بعد أربعة أيام على مجازر صبرا وشاتيلا، وأسبوع على اغتيال بشير، حَلّ أخوه أمين الجميّل محلَّه في سدّة رئاسة الجمهورية. وكون المنْتَخَب الجديد ينتمي إلى نفس بيت بشير، لم يخفف بشيء مخاوفنا. فالشقيقان انصرفا منذ سنوات إلى منافسة خفِيّة، عَزَّزَت من ارتيابنا بنيَّة أمين الجميّل بوضع حد لوجود القوات اللبنانية.

بعد انتخابه رئيساً، وافق كل من لبنان واسرائيل، في كانون الأول/ ديسمبر من العام 1982، على إجراء مفاوضات، بحضور بعثة أميركية. فعملية «السلام للجليل» شكَّلت بالنسبة إلى إسرائيل نجاحاً عسكرياً كونها أدَّت إلى طرد مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية من جنوب لبنان ومن بيروت. فكان من الطبيعي أن تأمل الدولة العبرية بتحويل هذا الانتصار العسكري إلى انتصار سياسي، عبر توقيع معاهدة

سلام مع لبنان. فانطلقت المفاوضات، واستمرت لتبلغ أربع وثلاثين جولة، أدَّت في نهايتها إلى توقيع الإتفاق اللبناني ـ الإسرائيلي، الذي عُرف باتفاق 17 أيار/مايو 1983، مشكلاً بالنسبة لاسرائيل خروجاً مشرفاً من المتاهة التي أَقْحَمَت نفسها فيها.

وفي محاولة منها للإفادة من وجود الجيش الإسرائيلي، «تساحال»، في الجبل الدرزي ـ المسيحي، قررت القوات اللبنانية، بعناد ومكابرة، بسط سيطرتها على هذا الجبل الذي دخله شبابنا معتبرين أنّ الواجب يُلزِمهم بالدفاع عن مسيحيي الشوف وتأمين الحماية لهم، هم الذين، ومنذ بدأت الحرب، كانوا هدفاً للهجمات المتكررة. فإذا بدخولنا المنطقة يوحي للجَبَلّيين الدروز، باحتلال عسكري[1]، وهو شعور عملت كل من حواجزنا، وثكناتنا ومعسكرات تدريبنا على تعزيزه في ظِل ما كان يُحكى عن أعمال مشينة وانتقامية قام بها الشباب في القوات اللبنانية، مما أدّى إلى استثارة ردّ الفعل الرجولي

---

(1) تتوزع الطائفة الدرزية جغرافياً، على ثلاث دول: لبنان، سوريا واسرائيل. ولكل واحدة من هذه الأقسام الثلاثة، رئيس روحي. وبعد تأسيس دولة إسرائيل، لم يتوان الدروز، الذين كانوا يشكلون فيها أقلية صغيرة، في الإنضواء تحت لواء الجيش الإسرائيلي، حيث تمكن عسكريون دروز من الوصول إلى مناصب عالية في تراتبيته. أما في لبنان، تمكن الدروز، في ظل الأمراء الذي تَوَلَّوْا زِمام أمورهم، من البروز كقوة سياسية لها ثقلها وسيطرتها في الجبل.

الذي لطالما طبع هؤلاء الجبليين الفخورين. فكان لا مفر من المواجهة.

وما لبثت الطائفة الدرزية، التي تتمتع بصلات قربى مع الإسلام، والمُتْقِنَة للتَّقِيَّة[2]، نتيجة لقرون من الخبرة في فن التخفِّي والإستتار، أن بدت لنا مزدوجة، فأثارت خِشيتنا.

(2) تلك هي التَّقِيَّة التي تحث الدروز على سلوك مَسْلَك المسلمين عندما يتواجدون في محيط مسلم، وعلى التصرف كما اليهود، عندما يكونون في محيط يهودي، كما هي حالهم في اسرائيل. وهم يعتبرون أنفسهم مختَارين ـ مؤتَمنين على الحقيقة الوحيدة. إنهم موثقون بالقسم على السرية المطلقة التي تحظّر عليهم الكشف عن عقائدهم أو الإجازة للآخرين بالاطلاع على أي من كتبهم المقدسة المخصصة فقط للمطَّلعين على الأسرار. وحدهم الذين يطلق عليهم اسم العُقَّلاء، والذين يمكن التعرف عليهم بفضل ما يعتمرونه من عمائم بيضاء، يحق لهم المشاركة في الاحتفالات الدينية التي تجري يوم الجمعة، في دار عبادة يُطلق عليها إسم الخُلْوَات.

جثة في ظِل كَرْمَة

وهكذا بدأت حرب الجبل عام 1983، بين الدروز والمسيحيين. من قيادة القوات اللبنانية المركزية، نتابع الأخبار الكارثية التي تَفِدُنا عن الجبهة، حيث المقاتلون الدروز هم الأكثر مَهَابَة، فيما تطول يوماً بعد يوم لائحة قتلانا من الشبان الذي يقعون في ساحات القتال. ففي الحدث، فقدنا اثنين من أصدقائنا في المجموعة: إيدي، شقيق إيلي، وهو اخْتُطِف وقُتِل على أيدي الميليشياويين الدروز، وجوزيف الذي قُتل على الجبهة.

مرة جديدة، نقرع أجراس كنيسة سيدة الحدث في تمام الساعة السادسة صباحاً. هذه المرة، نذهب لدفن جوزيف. على الطريق، أحمل صورته في موكب جنائزي، غَرق المحتشدون فيه في الحزن والكآبة، فاتّشح بالبدلات الداكنة، والأثواب السوداء، والبزّات العسكرية. نتقدم صفان، فنحضن نعش جوزيف من الجهتين. فهو ككل شهيد، يحق له بجنازة ضخمة، يصدح البوق فيها بالموسيقى الجنائزية. شربل، ابن عمه، يصِر على مواكبته إلى مَثواه الأخير، برجله الخشبية. غَسّان حاضر في الجنازة، فهو لم يُفَوِت أياً من مواكب

الدفن. شقيقاتي هنا وطوني وجورج وايلي أيضاً، أسوة بالآخرين. أنظر اليهم جميعاً، أَتَفَحَّص في وجوههم. إنهم مَن أحب؛ إنهم أحياء. لا أريدهم أن يصبحوا أبطالاً زائلين. أريد رؤيتهم أبطالاً يفيضون حياةً. أتساءل ما إذا كان بإمكاننا متابعة المسيرة، وحضور كل هذه الجنازات، ومواكبة كل هذه النعوش إلى مثواها الأخير.

في دفن إيدي، يتَكوَّن لدي انطباع أنني أشاهد فيلماً سبق أن شاهدته، كما لو أن أحدهم ضغط على زِر «اعادة» (review)، فأرى وأسمع الكاهن يقول في ختام عِظَته: «من التراب وإلى التراب، من الرماد وإلى الرماد، من الغبار والى الغبار، تعود». وماذا لو كانت الحياة تستطيع أن تعود إلى الحياة، فيعود إيلي إلى إيلي، وجوزيف إلى جوزيف؟

في هذه الحقبة، أغادر مركز الاتصالات للإنضمام إلى مكتب الإعلام والترويج أي الشعبة الخامسة، والمشاركة في تحرير مجلة القوات اللبنانية، المسيرة. إنني في السنة الثالثة من تحصيلي الجامعي. يرسلونني إلى جبهة الجبل لإجراء تحقيق صحفي مصور.

أقرر أن أقوم بجولة على مواقع الحِراسة للقاء المقاتلين، وسؤالهم عن معنوياتهم، والشهادة على حياتهم اليومية. إنهم يعيشون منذ أشهر في تشابك معقد من المواجهات على جبهات متحركة بتحرك الاختراقات العنيفة. عندما أخرج من الطريق الساحلية، أنظر إلى البعيد باتجاه جبل الشوف، الذي

يبدو لي هادئاً هانئاً. تتقدم السيارة التي نَسْتَقِلّها على طول طريق ضيقة، مستحدثة، فيما يتراءى لي الجبل المشع في هذه الفترة من السنة، وكأنه يحبس أنفاسه، يتحفظ على ما يأتي به البشر من أفعال، يستنكرها، يتبرأ منها. ومع ذلك، يجب الاقتراب منه، والنظر إليه عن قرب لتَبَيّن ما يخفيه في أحشائه من روائح التَّعَفُّن والتحلّل الحادة الكريهة. واذا بالصمت يبدو كما الفراغ؛ واذا بالحياة تبدو وكأنها في استراحة من نفسها. حول المنازل الحجرية التي تزدان بالشرفات والمصاطب، لا ألتقي بأي كائن بشري، كما لو أنّ أصحاب تلك البيوت رحلوا عنها على عجل، تاركين خلفهم طعامهم ينضج في القِدر على المَطْبَخ، وغسيلهم معلقاً على الحبل، في الشمس، لينشف. وفي الطريق، تلفتني رائحة تَحَلُّل، فأبحث عن مصدرها، ليقع بصري على جثة جالسة هامدة تتفيّأ كَرمَةً تُظلِّلُ مصطبة، وقد تَنَفَّخت واسْوَدَّت لكثرة ما لَفَحَتها ولَوَّحتها الشمس.

وعندما أدنو من الجبهة، أجد الموت وقد ألقى بثقل رائحته على المكان، محوّلاً هذه الجنة إلى مقبرة تجول فيها الأشباح. أصل إلى المواقع المتقدمة، ألتقي بمقاتلينا، وقد استحالوا إلى قامات أنهكها التعب، يعايشون يومياً الخطر والموت. ومع ذلك، فإنهم يقاومون. لقد قيل لهم إنّ استمرارية الوجود المسيحي في هذا الجبل تتوقف على شجاعتهم، وإنهم حُماة المسيحيين، ولهذا فهم يقاتلون دون

ندم ودون مشاعر، ولكنني أقرأ على وجوههم التي أرْمَدَّ لونها من التشنج والتعب والأرق، فظاعة التجارب التي كابدوها.

في مستهل شهر أيلول/ سبتمبر من العام 1983، بدأت الدولة العبرية إعادة تموضع لقواتها العسكرية النظامية «تساحال» في لبنان، دون تفاهم مُسْبق مع الدولة اللبنانية وفي غياب أي تنسيق مع الجيش اللبناني يتيح له تولّي المواقع الإسرائيلية المنْوي الإنسحاب منها. وفي الثالث من أيلول/ سبتمبر، انسحبت اسرائيل من الشوف، فما كان من الميليشيا الدرزية إلّا أن أفادت من التراجع الإسرائيلي وملأت الفراغ. اشتد وطيس القِتال، اذ نشبت معارك عنيفة وضعت مقاتلينا في مواجهات الميليشيين الدروز. ولم يتأخر رجال وليد جنبلاط بارتكاب المجازر بحق المدنيين، بهدف إرهاب المسيحيين والدفع بهم إلى الرحيل نهائياً عن المنطقة.

في كل من بحمدون والبيرة ورأس المتن ومعاصر الشوف، تم قتل المئات من الرجال والنساء والأطفال بدم بارد وبأبشع الوسائل، إذ جُزَّت أعناق الأبرياء بالسكين لمّا لم تكن تضرب بالفأس، وأضرمَتْ في بعض الأحيان النار في أجسادهم. فانهارت جبهات الشوف وعاليه أمام ضغط رجال جنبلاط المدعومين من سوريا، مما اضطر مقاتلي القوات اللبنانية إلى الانسحاب من جبل الشوف الدرزي ـ المسيحي حيث حَلّوا واستقرّوا كالمنتصرين عام 1982، فخرج في إثرهم المسيحيون من سكان ذلك الجبل. وهكذا تدافع

الآلاف من الشيوخ، والنساء والأطفال إلى دير القمر، على خطى سمير جعجع، الذي كان آنذاك قائد معركة الجبل التي انتهت إلى محصّلة مرعبة: مقتل آلاف المدنيين، وحرق وتدمير قرى بكاملها. كان الجبل ينزف، ودمه يفيض في البساتين ويمتزج بمياه الأنهار.

بدأ في دير القمر حصار طويل لخمسة وثلاثين ألف مُهَجَّر، تقاطروا إلى هذه البلدة من إحدى وستين قرية في كل من منطقتي الشوف وعاليه. كما للآلاف من مقاتلينا. وفي ظل الشائعات اليومية المنذرة بهجوم مرتَقَب، قبع هذا الحشد الهائل في تلك البلدة، محاولاً التمسّك بشجاعته كما الغريق يتشبث بجذع شجرة يتقاذفها سيل هدّار. وكان لهذا الانتظار الطويل المشوب بالخوف على المصير، أن أرخى بظلاله على عيون المحاصَرين في دير القمر، فغاب عنها رَوعة ذلك الجبل، وجمال تلك البلدة، وما اتّسَمَت به الهندسة المعمارية فيها من رونق ودقة. ففي ظل ظروف مماثلة، يصبح كل شيء عبثياً وتنتفي القيمة عنه.

وما لبثت الانكسارات والمجازر التي نالت من المسيحيين أن أعادت إلى أذهانهم ذكريات أليمة من تاريخهم فالمقارنة سهلة بين هذه المجازر وتلك التي ارتكبها الدروز بحقهم في هذه المنطقة بالذات بين عامي 1840 و1860. فعمد سمير جعجع إلى تسليط الضوء على السوابق التاريخية، متعمداً الإشارة بوضوح إلى الفوارق الجديدة التي تميزها عن أحداث

الحاضر، إذ قال: «للمرة الأولى في التاريخ، تدور معارك حقيقية في الجبل، حيث يتم احصاء الضحايا من الدروز والمسيحيين في نفس الوقت. للمرة الأولى منذ العام 1840، لم تعد المعركة أحادية الجانب. يقف المسيحيون اليوم أمام خيارَيْن لا ثالث لهما: إما أن يَرْتَضوا العيش ككائنات بيولوجية تفتقر للبعد التاريخي والعمق الديني والفلسفي أو السياسي، وإما أن تكون لهم الحياة كمواطنين يعيشون في مجتمع عادل يحمل كل القِيم المسيحية والانسانية، ويحفظ لهم كل خصوصياته الثقافية والتاريخية وما يلزمهم من حيّز جغرافي لذلك». وفي الواقع، أصبح الشارع المسيحي، بعد هذه المجازر، أكثر حساسية وتأثراً بكل خطاب يتطرق إلى هويته الطائفية، إذ شعر المسيحيون أنهم باتوا مستضعفين، مهزومين، مهددين، ومتروكين، وبَدَوْا وكأنهم اختاروا الإنعزالية لتعزيز حمايتهم لأنفسهم، حماية أنفسهم كأقلية مسيحية في محيط مسلم.

وخلال تواجدي في مكتب الإعلام والترويج في القوات اللبنانية، شعرت أنني أنا أيضاً بدأت أصبح سريعة التأثر بمثل هذا الخطاب.

البحث عن قائد جديد

منذ سنوات لا أقرأ إلا «العمل»، صحيفة حزب الكتائب، فلا أتَعَرَّف على الأحداث اليومية إلّا من خلال افتتاحياتها. في ذلك اليوم، تَصدَّر الصفحة الأولى من الصحيفة، نص مقابلة مع سمير جعجع، في إشارة إلى أن الإعلام بدأ يهتم بذلك القائد الشاب. فبالرغم من الخَسارة التي لَحِقت بالقوات اللبناينة والمسيحيين عموماً، إلا أنّ حيثيات حرب الجبل ساهمت، على نحو ملموس، في تعزيز صورته في المعسكر المسيحي. ففي هذه المقابلة التي أَجْرتها معه الصحافية الشابة، ڤيڤيان صليبا، اجتمعت كل مكوّنات خطابه السياسي، لتجعل منه المدافِع الجديد عن الشعب المسيحي.

سألت عفيف، وهو معجب بسمير، ومناضل يجهد في نشر أفكاره وتعزيزها، أن يتدبَّر أمر لقائي به. فأنا أتحرق شوقاً وفضولاً لرؤية هذا الرجل الذي كان الأكثر مهابَة والأكثر استهدافاً للتَّشْنيع في حَلْقَة آل الجميّل. في تلك الحقبة، كان عفيف يتولى إدارة الشعبة الخامسة التابعة للقوات اللبنانية، وقد كان مكتباً مولَجاً بتنظيم الإعلام والترويج. إنّ في مسلكه وأفكاره ما يجعلك تُدْرك سعة ثقافته. وكنت أجهل كيف كان

لِعفيف، المناهض لسياسة أمين الجميّل، أن يصل إلى هذا المنصب فَيَتَبَوَّه. ولكنني ما لبثت أن أدركت أنّ ما يُتَّصف به من كياسة وتهذيب كفيل بأن يضمن له احترام الجميع. فهو يجيد الكلام مع الآخرين، والاصغاء إلى مخاطبيه في آن. ولم يكن من الصعب عليّ أن ألاحظ في هدوء واتزان صوته الذي بالكاد يُسمع، ما يخفيه من منطق ثوري، يَعرف كيفية التعبير عنه بكثير من الوضوح والاقتضاب.

إلتقيْت سمير جعجع في مقر القيادة المركزية للقوات اللبنانية. كان قد نجح، قبل بضعة أيام، باجتياز الحصار الذي كانت ميليشيا الدروز تضربه حول بلدة دير القمر، بمعية اثنين من الرِّفاق المقرَّبين منه، والتحق بالمناطق المسيحية. وفي مقر القيادة العامة، حيث أُعْطِيَ جعجع مكتباً صغيراً ومتواضعاً للغاية، كان باستطاعة المرء الإحساس بعدائية خفية مكبوتة تستهدف فيه الرجل الذي يهدد بوضع اليد على السلطة والقرار.

بعد كارثة الجبل، دَقَّت ساعة الحساب: من المسؤول عن الخَسارة؟ في نظرنا، كان خِيار الرئيس الجميّل بعدم نشر الجيش اللبناني بعد الانسحاب الإسرائيلي، يعبّر عن وضوح النِيَّة بإضعاف القوات اللبنانية، في وقت خرج فيه وليد جنبلاط، المدعوم من سوريا، منتصراً من هذه الحرب. ومن جهتها، كانت سوريا مُصِرّة على حمل الرئيس الجميّل على إلغاء إتفاق السابع عشر من أيار مع اسرائيل، التي عادت عن

تحالفها مع المسيحيين، مفضلة عليه تعزيز الميليشيا الدرزية. فشعرنا والحالة هذه أنّ الغرب قد تخلّى عنا وتركنا نواجه سوريا وحدنا، سوريا التي كانت آنذاك أقوى من أي وقت مضى، والتي كانت تَعرف كذلك، عندما يحين الوقت وتُتاح الفرصة، كيف تهزّ شبح الأصولية الإسلامية.

شهد الثالث والعشرون من تشرين الأول/ أكتوبر من العام 1983 عملية انتحارية، استَهْدَفت فيها شاحنة مفخخة مقر إقامة رجال البحرية الأميركية، الذين كانوا يَعُدُّون ثلاثمائة عنصر، قُتِل منهم مائتان وواحد وأربعون. وعلى مسافة قريبة من المكان، في العاصمة بيروت، انفجرت سيارة أخرى أمام مبنى داكار، حيث كانت تقيم القوات الفرنسية، فأودت بحياة ثمانية وخمسين مظَلّياً فرنسياً. كانت الرسالة واضحة: يجب على الغرب، حليف اسرائيل، الإنسحاب من لبنان.

امتنعت القوة متعددة الجنسيات المولجة حفظ الأمن في البلاد عن الردّ على الانفجارين. بل فعلت أسوأ من ذلك، إذ في ظل التهديد الذي كان يَتَوَعَّدها، قامت بفكّ ارتباطها بلبنان، بعد أشهر قليلة على الكارثة التي حلَّت بها، وغادرت مُعْتَرِفَة بالخسارة الدموية. كان ذلك إثباتاً على أنّ ما من شيء يمكن له أن يحصل في لبنان، دون موافقة حافظ الأسد، وحليفه السوفياتي. وبهذا فقد الرئيس الجميّل الورقة الغربية التي كان يعتمد عليها.

كان من شأن هذا التخلّي الكامل الذي جاء مواكباً

للإنكسارات والاهانات، أن أيقظ إحساس المسيحيين بالإحباط العميق، وهم الذين عانوا الكثير بموت بشير الجميّل. وفي تلك الحقبة التي كانت الشكوك تَكثر فيها وتتحكَّم بها، كنت أنا أيضاً، أُسْوة بأبناء طائفتي، أبحث عن بصيص أمل، عن قائد جديد.

عندما التقيت سمير جعجع في ذاك المكتب الصغير للغاية في القيادة المركزية للقوات اللبنانية، حيث كان يشعر أنه مُراقَب عن كَثَب، وَجَدْتُني أمام رجل طويل القامة نحيفها، ذو نظرة مُتَّقِدَة ثاقبة. لم يبدُ لي بهي الطلعة فَتَّاناً، ولكن قوة غريبة كانت تنبعث منه. أفصحت له عن خيْباتي وعبَّرت له عن إرادتي في أن أصبح واحدة من مناصريه. أشاعت كلماته الاطمئنان في نفسي لما رشحت به من قوة ووضوح. وكان لحركة يده، التي أصيبت خلال عملية إهدن، ترافق كلماته كما لو أنه يؤكد بها على حزمه وتصميمه. وفي ذلك اليوم، نجح ذاك القائد الشاب الواثق من نفسه باستمالتي وإثارة إعجابي لما كان يفيض به من رباطة جأش.

ترويج إعلامي وتقسيم جغرافي

بعد مئة وعشرين يوماً من الحصار، أرخى حزب وليد جنبلاط قبضته عن دير القمر، في كانون الثاني/ يناير من العام 1983. فبدأ إخلاء البلدة من اللاجئين المحاصَرين فيها. يومذاك، أفَدْت من موكب إعلامي مولَج بتغطية هذا التهجير، للوصول إلى البلدة ومساعدة بعض الرفاق على الأرض.

وَجَبَ علينا عبور عشرات الحواجز والانتظار لوقت طويل قبل أن تجيز لنا القوات الدرزية الدخول إلى دير القمر حيث كان اللاجئون يخرجون من الكنيسة والمنازل، ويتدافعون إلى الساحة، ليتراكموا في باصات صغيرة اصطَفَّت على طول الطريق الرئيسة، وقد انكمشت وجوههم واكفهرت، وخلت عيونهم من أية نظرات معبّرة. لقد نَجَوْا من الموت ولكنهم فقدوا القوة للابتهاج بالأمر. فخلال مئة يوم ويومين، كانوا فريسة تقلبات مِزاج لا هوادة فيها. خلال مئة يوم ويومين، أُلزِموا حَبْسَ أنفاسهم.

وفي الطريق المؤدية إلى الساحل، بدا التاريخ وكأنه يسخر منا، إذ كانت الشاحنات المحمَّلة بالجنود الإسرائيليين تواكب

باصاتنا، في موكب قطع القرى، وهو يَشُقُّ له سبيلاً في الحشد المتراكم على قارعتي الطريق. فاللبنانيون الذين أنتموْا إلى معسكر الظَّافرين الغَالبين، كانوا يحتفلون بانتصارهم، فَيُصَفّقون ويَشْتِمون ويَتفُّون، في وقت كانت فيه الحجارة تنهمر من كل حدب وصوب كما زَخّات المطر. وفي داخل الباصات، لم يَقْوَ المهجرون، الذين اغْرَوْرقَت عيونهم بالدموع، أن يتفادوْا هذا المشهد من العنف والهوان. كم كانوا يودّون لو يَرمون بنظرة أخيرة على الجبل، جبلهم، الذي كانوا يرحلون عنه إلى الأبد.

ولدى وصولنا إلى الساحل، وجدنا زوارق الصيادين تنتظرنا في مرفأ انْحَسَرت مياهه بِفعل الجَزْر، فلم يصلح لرُسُو السفن الكبيرة. وبعجل، صعد الناجون على متن هذه الزوارق المفْتَرَض بها نقلهم إلى سفينة راسية في عرض البحر. وَجَب على زورقنا الإلتصاق بهيكل السفينة لكي نتمكن من تسلقه فندرك المتن، ولكن البحر في تلك الليلة من كانون الثاني/ يناير كان هائجاً صاخباً، عاتِي الأمواج. وفي كل مرة كان يأتي البحّار فيها بحركة يعالج بها الأمر، كانت إحدى الموجات تدفع بزورقنا بعيداً قبل أن تدفع به مجدداً إلى جنب السفينة، فيرتطم به بعنف. أخال أكثر من مرة أنّ الأمر لن يطول بهذا الزورق الواهي والمهيأ على عجل، قبل أن يتحَطَّم. ولكن كل المهجرين نجحوا في تسلّق السلم المصنوع من الحبال، قبل أن تظْفَر به الأمواج فَتُحِيلهُ إلى حطام. ثم

مَرَّ كل شيء بسرعة، اذ رفعت السفينة حِبالها، وانتزعت مِرساتها من القاع وشَقّت العُباب باتجاه بيروت. وبينما كانت الأمواج تهزّها، بدا لي أولئك الناجون وكأنهم غَرقى يتخَبَّطون في محيط من الآلام وقد نال منهم كل من دوار البحر ومصائب الحرب.

لدى وصولهم إلى بيروت، راح الناجون يخرجون من السفينة الواحد تِلو الآخر، كما لو أنهم كانوا في عِداد موكب صامت من الأحياء ـ الأموات. فمِشيتهم مُتَرَنّحة، وسناء القمر يضيء وجوههم التي أرْمدَّت من الأرق، وقاماتهم التي أضناها التعب. وسرعان ما حطَّ لاجئو الشوف أولئك رِحالهم في المعْتَصَم المسيحي، وهو نواة جبلية مفتوحة على البحر، حيث أمْضَوا الليالي الأولى في مواقف السيارات أو الأديرَة، في ظروف أقل ما يقال فيها إنها طُبِعت بالهشاشة. ومع ذلك، كانوا لا يزالون يُغَذُّون الأمل بالعيش بسلام بين أبناء ملتهم.

ومع رحيلهم عن جبل الشوف، بدأ التقسيم الجغرافي، في وقت أخذ فيه الشك يستشري في صفوف القوات اللبنانية، حيث رحنا نتساءل ما إذا كان بالإمكان، بعد هذه الهجرة الجماعية القَسْرية، إنشاء دولة قوية، موحدة، متعددة الطوائف، إذ كان لبنان ـ التعايش ينهار فيما كان اللاجئون المسيحيون من الشوف يلتحقون في المنطقة ذات الأكثرية المسيحية، كل في داره. وبهذا انتفى الاختلاط الطائفي، في

وقت كان فيه سمير جعجع يُكْثر من ظهوره الإعلامي، ويضاعف من تصريحاته الواعدة بتغيير جذري في ممارسة السلطة السياسية.

وهكذا أخذ تقسيم لبنان الذي كان يُحْكى عنه هنا وهناك، يتجسَّد في خاطري، فيما كانت دراسة لوليد فارس، القريب من دائرة جعجع، تنتشر بسرعة، مُنْتَهِزة تلك الظروف، فَتوظّفها في صالح مقاربتها ومعالجتها لثلاثة عشر قرناً من نضال الشعب المسيحي في لبنان. قرأت باهتمام ما ورد فيها: «إن التاريخ الذي عَلَّموكم إياه، ليس بالتاريخ الحقيقي. لقد أَخْفَوْا عنكم ما عاناه مسيحيو الشرق طِوال تاريخهم، وفي أيام المجازر التي حَلَّت بهم في أعوام 1840 و1860، وهي مجازر يمكن أن تتكرر في أية لحظة. إنّ التاريخ في كتبنا المدرسية ليس بالتاريخ الصحيح. فمنذ قرون والمسيحيون يعاملون كأهل ذِمَّة، أي أفراداً قاصرين، يعيشون في حماية المسلمين، ولكنهم يفتقرون للمواطنة الكاملة. هذا هو الوضع القانوني والاجتماعي الذي تَمَّ تطبيقه على المسيحيين الذين كانوا يعيشون في البلاد التي فتحها الإسلام واحتلها». هذا ما كان يشرحه المؤَلّف، معدداً الإجراءات المهينة والمشينة التي أُنْزِلت بالمسيحيين إبّان الفتوحات الإسلامية، اذ لم يكن يحق للمسيحي أن يعتمد نفس النظام الثيابيّ، فَيكتسي بنفس مَلْبس المسلمين، كما لم يكن يحق له السير على نفس الجهة من الرصيف التي كانوا يسيرون

عليها. «أوَ تعتقدون أنّ ما نتعرض له من هجوم اليوم هو وليد الصدفة؟ هل كل هذه المجازر، هل كل هذه الاضطهادات والمضايقات هي من قبيل الصدف؟». كان وليد فارس يقدم مسيحيي الشرق في دراسته تلك كضحايا على الدوام، كمضطهدين، كشعب مُلْزَم بالقتال منذ قرون للبقاء على قيد الحياة. وفي ظل الظروف التي كنا نعيشها ونكابدها، بدا لي خطابه هذا محتملاً، قابلاً للتصديق. فكيف بغيره تُفَسّر هذه الحرب؟ وبالتالي، كان من شأن هذا الخطاب أن غَيَّر بوضوح من وجهة كفاحي، حيث ترسَّخ اعتقادي بأننا لم نعد ندافع عن لبنان، الذي استقرت فيه غالبية مسيحية، ضد المحتل الفلسطيني والسوري، وإنما ـ وهذا ما كان واضحاً جليّاً ـ كنا ندافع عن الأقلية المسيحية في لبنان، ومن خلالها، عن المسيحيين في الشرق. زِد على ذلك، ما كنا نشكله نحن المسيحيين من طَليعة أو خَنْدَق أمامي للغرب في مواجهة الإسلام. فإذا بمعنى نضالنا يتضّح، وبواسطته سيتمكن شعبنا من أن يعيش معتقده وإيمانه. وفي تلك الحقبة، أصبح الانتماء المسيحي بالنسبة إلي أكثر أهمية من الانتماء اللبناني. فأنا كنت مسيحية أولاً، لبنانية ثانياً.

وسرعان ما انهارت أسطورة لبنان الموحد، ليفرض إغراء دولة مسيحية حليفة لاسرائيل وللغرب المسيحي، وبمنأى عن العالم العربي، بثقله علينا. فاقتنعت بما كان يشاع من أنّ في نظر الإسلام داريْن ينقسم إليهما العالم: دار الإسلام، وهي

موطنه، ودار الحرب، وهي الأرض التي يجب أن تُحمَل على اعتناقه ديناً ودُنيا، أي العالم الذي لم يكن قد أسْلَم بعد. ودار الإسلام تلك يتولاها القرآن، وتدير السنّةُ ـ أي مجموع أحاديث وأعمال ومواقف ومسلِكيّات النبي ـ شؤونها. وحدهم المسلمون متساوون في ما بينهم، لأنّ «المؤمنين أخوة». أما الآخرون، الضّالون، فإنّ الإسلام يَخُصُّهم بوضع خاص، وهو وضع أهل الذمة. وكان لهذا الوضع أن أجاز اضطهاد المسيحيين طوال ثلاثة عشر قرناً. غير أنه لم ينجح أبداً في فرض نفسه على مسيحيي جبل لبنان، الذين كانوا قد اختاروا الاعتصام في جبلهم والذّود عنه بما يضمن عدم دخول الإسلام اليه، الإسلام الذي لم يتخلَّ، لا الأمس ولا اليوم، عن نِيَّتهِ بفتح جبل لبنان واحتلاله.

وخلال بضعة أشهر، تمكنت من الإلمام بهذا الخطاب بما يكفي لأُسوّق وأنشر بنفسي الحيثيات المقنعة بين صفوف المقاتلين من الشبان. فطِفْت على الجبهات بمعية عفيف، في خدمة هذه القضية، معتمدة على كتاب وليد فارس وحده كمرجِع. كان المقاتلون يُصغون إلينا باهتمام. فبعد الانكسارات التي أُنزِلت بهم، بدت روايتنا للتاريخ وكأنها تضفي على قتالهم المَشْرُوعِيَّة، وتعيد الأمل إلى معسكرنا.

طُبِعت الحقبة الممتدة بين عامي 1982 و1985

باضطرابات عميقة، وتقلبات متعددة. إذ مَرَّ كل من القوات اللبنانية وحزب الكتائب من الانتصار الكبير إلى الانكسار الكبير، في وقت كان فيه كبار قادتهم التاريخيين يندثرون الواحد تلو الآخر: إذ رحل بشير الجميّل في العام 1982، ولم يتأخر بيار الجميّل في اللحاق به، عام 1984، والقوات اللبنانية التي دخلت الجبل الدرزي ـ المسيحي، منتصرة، بمساعدة اسرائيلية بغرض حماية الأقلية المسيحية فيه عام 1982، ما لبثت أن وجدت نفسها وقد تخلّى عنها الإسرائيليون، فأُلزِمت بالانسحاب بعد معارك طاحنة دارت رُحاها عام 1984، وأدّت بها إلى الهزيمة.

وفي مستهل ذلك العام، فكّت الدول الغربية المعنية ارتباطها بلبنان، لتخرج من بؤرته الموحِلَة، بعد سلسلة من الاعتداءات الفتّاكة. ولم يبق من الوجود الغربي، في تلك الحقبة، إلّا رهائنه ومخطوفوه. وما لبثت بيروت الغربية أن غَيَّرت كلياً من ملامحها. فالقوة متعددة الجنسيات ركبت البحر مجدداً، والجيش اللبناني فَكَّ مواقعه ونقاطه وغادر، ولم يبق في الميدان إلا الميليشيات الدرزية المؤتمرة بأوامر وليد جنبلاط، وتلك الشيعية الخاصة بحركة أمل لاستلام زِمام الأمور فيها، حيث كثرت الإغتيالات التي استهدفت المسيحيين في أحيائها، وأضحى تدمير الكنائس أمراً متواتراً. ومن ناحيتهم، استوطن كل من حرّاس الثورة وحزب الله الإيراني، المستَقْدَمين من سوريا، أحياء الضاحية الجنوبية

لبيروت التي تحولت إلى حيز اشترك هذا الثنائي في الحكم والسيادة عليه، فبات هذا القسم من العاصمة معتصَماً اسلامياً صغيراً، تفرض فيه الأصولية قوانينها وتفيد من امتيازاتها.

وكان من شأن كل تلك الأحداث أن فاقمت من مخاوف المسيحيين؛ وعِوض أن نعلن استعدادنا للدفاع عن لبنان بكليته، بِتنا نفصح عن نيتنا بالذّود عن لبنان المسيحي الصغير فقط.

وَلَّدت السياسة التي اتبعها الرئيس الجميّل إحباطات قوية، ليس فقط في كنف السلطة الإسرائيلية، وإنما أيضاً في جهة القوات اللبنانية. فرَفْض التصديق على اتفاقية السلام بدا في نظر الدولة العبرية، عدم اعتراف بإسرائيل التي كانت تُعْتَبَر حامية المسيحيين في لبنان. وكان من شأن هذا التردد أن عُدَّ، بالنسبة للبعض منا الذين كنا نعيش داخل القوات اللبنانية، انعداماً لقدرة القادة المسيحيين على اتخاذ القرار بأنفسهم، بشأن نوعية العلاقات المزْمَع إقامتها مع الدولة العبرية، مع أنّ هذه الإتفاقية كانت تكتسي بالنسبة إلينا أهمية استراتيجية، ترتكز إلى واقع ديموغرافي: فاليهود والمسيحيون أقليات غير مسلمة، وهم محكومون بالتحالف الإستراتيجي في مواجهة التهديد العربي ـ الإسلامي. وقد رأى البعض في هذه الإتفاقية تحالفاً مع بلد متطور مُسْتَغرِب بمواجهة عالم عربي لا يزال في طور النُّمو. وبالنسبة للبعض الآخر، مَثَّلت إتفاقية السلام هذه فرصة لإفشال الهيمنة السورية على لبنان.

وأخيراً، رأى فيها مَنْ تبقى فائدة اقتصادية للبلاد. وفي كل الأحوال، بدت هذه الإتفاقية مع الدولة العبرية للكثيرين من المسيحيين ضرورة لا بُدَّ منها.

وفي مخالفة منه لهذا الرأي السائد لدى غالبية المسيحيين، اختار الرئيس الجميّل سوريا، فركب طريق دمشق في التاسع والعشرين من شباط/ فبراير من العام 1984، حيث انتهى به الأمر إلى إلغاء اتفاق السابع عشر من أيار/مايو. وبات باستطاعة سوريا إطلاق صرخة انتصارها.

هل نستطيع أن نغيّر «الحامي» فنجعل منه «عدواً»، وأن نُحيْل «العدو» إلى «حام»؟ إذ ذاك، انتقلت القوات اللبنانية إلى معارضة السلطة السياسية، ومشت في إثرها غالبية المسيحيين الذين كانوا يعيشون يومياً في ظل تهديد القصف السوري. فأخذت صور الرئيس الجميّل، وقد مهرت باسم بيلاطس، توزع سِراً، إذ كان أمين الجميّل مُتَّهماً بخيانة إرث أخيه، فبشير الجميّل كان لا يزال بالنسبة إلينا أيقونة القضية المسيحية اللبنانية التي داس عليها أخوه ودَنَّسها. وخلال مؤتمر المصالحة الوطنية الذي عقد في جنيف في آذار/ مارس من العام 1984، لم تشعر القوات اللبنانية بنفسها ممثَّلَة بكل من بيار الجميّل وكميل شمعون، فكيف بأمين الجميّل، إذ كنا نعتبر هؤلاء «الرجعيين» غير قادرين على التعبير عن مخاوف وتطلعات الشباب المسيحي. وكان لهذا الاختلال في ميزان القِوى أن وجد سبيله إلى التفاقم في ظِل

تمثيل الدروز والشيعة بشابّين ناشطين، هما وليد جنبلاط ونبيه برّي اللذان شاركا مباشرة في المعارك على الأرض، واللذان وصلا إلى المؤتمر في سويسراً مُكَلَّلَيْن بهيبة انتصارات عسكرية حصلت مؤخراً، بينما لم تكن تلك حال الموارنة. ولم يلبث فادي فرام أن انبرى معلناً أنّ القوات اللبنانية، التي كان يقومُ مقامَ قائدها، غير معنية بأعمال هذا المؤتمر الذي لم يكن ليرى فيه إلّا مرحلة من مراحل خطة «الهيمنة السورية». وفي السادس والعشرين من شهر آذار/ مارس من العام 1984، لم يكن للقوات اللبنانية أي تمثيل في حكومة «الوحدة الوطنية»، التي أبصرت النور في ذلك التاريخ، كون أمين الجميّل كان قد رفض مشاركة فادي فرام فيها.

بعد وفاة بيار الجميّل في التاسع والعشرين من آب/ أغسطس من العام 1984، خلفه واحد من الأوفياء لخط أمين الجميّل في رئاسة حزب الكتائب. إذ ذاك، احتدمَت المواجهة بين ثلاثة مواقع تتنافس على السيطرة على القوات اللبنانية: الإستقلاليون الذين كانوا يريدون البقاء على مسافة واضحة من حزب الرئيس: أوفياء هذا الأخير الذين كانوا يَرَوْن في القوات اللبنانية سنداً غير مشروط لسلطة أمين الجميّل الذي وصل سُدَّتَها بفضل فؤاد أبي ناضر، ابن أخته؛ وأخيراً تيار ثالث، ممثَّل بفادي فرام، أحد حلفاء آل الجميّل بواسطة عُرى القُربى، الذي كان يدعو إلى خط وسطي.

كان من شأن تقاربي مع سمير جعجع ومواقفي الواضحة ضد أمين الجميّل، أن أيقظت الشكوك حولي. ولم يَلق رفضي قبول ميدالية دير القمر التي منحها فؤاد أبو ناضر أي تقدير. فأنا كنت أعتقد أنّ على الإدارة واجب العناية بمستقبل مقاتليها عوض خِداعهم بزخارف من هذا النوع.

وإذا بانتخابات قائد القوات اللبنانية أن أدَّت إلى تحوّل نوعي؛ إذ كان أمين الجميّل يود أن يرى على رأسها رجلاً أقربَ إلى الحزب من فادي فرام، الذي كان هدفاً للانتقادات من كل حدب وصوب، وهو الذي انتخب قائداً للقوات اللبنانية، عشية اغتيال بشير الجميّل، وهو بالكاد بلغ الثامنة والعشرين سنة. وبالرغم من الاحترام الذي كان يكنه مناصرو بشير لهذا الرجل الصادق والوفي، إلا أنه كان يعتبر أضعف من أن يستطيع مواجهة هجوم أمين الجميّل الهادف إلى السيطرة على القوات.

وهكذا انتُخِب فؤاد أبو ناضر قائداً للقوات اللبنانية في التاسع من تشرين أول/ أكتوبر من العام 1984، فكانت الغَلَبة للتيار القريب من الرئيس الجميّل، وعاد بالتالي حزب الكتائب ليمسك بزِمام كل السلطات فيها: المالية والعسكرية والسياسية.

رأى التيار الاستقلالي الذي كنت أنتمي إليه في هذا الانتخاب ضربة قاسية. فأخذنا نجاهِدُ بإدانة السلطة العائلية، مما أدّى بانتقاداتنا إلى إزعاج الموالين لها في القيادة

المركزية. وفي ربيع العام 1984، أُلزِمْت بمغادرة المقر العام، فشعرت يومها وكأن رُكْبَتيَّ تخوران. أَيُعْقل أن يكون نضال كل هذه السنوات قد أدّى بي إلى هنا. وبالرغم من المرارة التي تملكتني، إلّا أنني كنت أشعر بالفخر بنفسي، وبقدرتي على تحمل المسؤوليات المترتبة على أفكاري ومواقفي.

كان يمكن لالتزامي في خدمة «القضية المسيحية» أن يتوقف هنا. ولكن، وبينما كنت أغادر مكتبي، التقيت صدفة بسمير جعجع الذي شرحت له الوضع. فإذا به ينجح بالتهدئة من روعي ببضعة كلمات، ويدعوني إلى الانضمام اليه في مقره العام الجديد الواقع على طريق الفِيدار. وبهذا، فتحت طريق جديدة أمامي: أُغيّر القيادة، ولكنني أبقى. دفعني حافِز غاضب يومذاك إلى العمل على إثبات أنّ القضية المسيحية ليست ملكاً لآل الجميّل، وإنما هي ملك الذين قاتلوا واستمروا في القتال حتى الآن.

وصبيحة اليوم التالي، انْضَمَمْت، والثقة بنفسي وبمواقفي تملأني، إلى سمير جعجع، الذي كان يغادر للتو ثكنته ـ الصومعة المعزولة في أعالي جبيل، لكي يستقر على الساحل حيث الاتصالات مع القاعدة البيروتية أكثر سهولة. ولكن الحزب لم ينظر إلى هذا الانتقال بعين الرضى، ذلك أن كل خطوة باتجاه بيروت، كانت خطوة باتجاه السلطة.

كنا قِلة أُفْتُتِنَت بخطابه الأخّاذ وبنقده للطبقة السياسية، إذ كان سمير جميع يُعبر عن رؤيا فلسفية وسياسية جديدة كلياً بالنسبة إلي، اسْتَلْهمها من فكر «تيلار دو شاردان» (Teilhard de Chardin). لم أَكُنْ قد سمعت بعد مَنْ يتكلم بمثل هذا العمق على المسيحية ومعنى الحياة.

بدا سمير جعجع للمناضلين كرجل جديد في الطبقة السياسية اللبنانية. فهو لم يكن سَليل إحدى العائلات الكبيرة الإقطاعية المقَدَّر لها استلام السلطة وتولّيها، وإنما هو وُلِدَ لعائلة متواضعة وقروية، ونشأ في ضاحية فقيرة من بيروت، وتلقى علومه في المدارس الرسمية. هو من أبناء بشري، قرية الأرز، الواقعة في الشمال المسيحي، مما رسَّخ فيه هذا اللاوعي الماروني المتعلق بالجبل والأرض. ويوم التحَقَ بحزب الكتائب، وكان لا يزال فتِيّاً، كان ينوي النضال ضد الروحية الإقطاعية والقبلية السائدة في لبنان الشمالي. ولكنه ما لبث أن اصطدم داخل الحزب، بإدارة كانت تعمل وتتعاطى مع الأمور وِفاقاً لنفس المبادىء التي كان بصدد التصدّي لها، ولهذا لاذَ بنوع من الاشتراكية المسيحية الصوفية النزعة.

جعجع، الذراع الحديدية

ظهر إسم سمير جعجع للمرة الأولى بعد عملية إهدن، التي قُتِل خلالها طوني فرنجية، إذ كان على رأس القوات التي اقتحمت قصر فرنجية في العام 1978. واذ طُرِد من الشمال، استقَّر مع حفنة من الكتائبيين، في دير يقع في أعالي جبيل، حيث انصرف إلى بناء قوة عسكرية. آنذاك، تَمَّ تحويل هذا الدير بما يتلاءم والعمل النضالي أكثر من العمل الكهنوتي، المنصرف للتأمل والصلاة. ما من أحد كان يجهل استضافة هذا «الدير ـ الثُكْنة» لألف من المقاتلين الذين يثيرون في النفوس المَهَابة والخِشية. زِد على ذلك ما اشْتُهِرت به ثُكْنته تلك من عتاد وتجهيزات وانضباط، وهي ما لبثت أن أَضْحَت مقر إقامة جعجع الذي انصرف فيها إلى العمل دون كلل ولا ملل ولا هوادة. وكان لهذا النمط من السلوك والحياة في ذاك المكان، أن عزَّز في الأذهان صورته كصوفي متَنَسّك. فبالرغم من خَسَارة الجبل، كان بعض المسيحيين يَرَوْن فيه عسكرياً صلباً، ورمزاً للقوة الحامية الرادعة ومسيحياً تَقِيّاً نَقِيّاً صفِيّاً وَرِعاً، وفيلسوفاً وحكيماً.

فكان من الطبيعي والحالة هذه أن يُلَقَّبَ بالحكيم، أي الطبيب أو صاحب الحكمة.

وإذ اضمحلت شعبيته في صفوف القوات اللبنانية فأقامت عليه الحَجْر وأقصته نوعاً ما، قرر جعجع أن يُحْدِث فيها تَغَيُّراً جذرياً، يَطَالها في الصميم.

سجل شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 1984، بداية التحضيرات الملائمة لما كان يسعى إليه من تغيير. فراح يضاعف ويكثر من ظهوره الإعلامي مسلِطاً في كل مرة الضوء على ضَعف القيادة، وعلى الأخطار التي تتهدد المسيحيين، وعلى ضرورة تعزيز حمايتهم الذاتية. وكان لخطابه، المتّسم ببعد فلسفي، أن ساعده على التمايز عن غيره من القادة، إذ بدا كلامه واعداً، جديداً، خارجاً عن المألوف في لبنان. وفي ظل الإنكسار الذي حَلَّ بمعسكرهم، افْتُتِنَ العديد من المسيحيين بالبديل الإرادوِيّ الذي كان يمثله.

شرع سمير جعجع يتحضر بالكثير من الصرامة والدقة، فلا يُغْفل أي شيء ولا يتهاون في أي من الجوانب العسكرية أو الجوانب الأيديولوجية، كما وحرص على إحاطة نفسه بفريق من الشباب يعمل على نشر عقيدته بين الطلاب في الجامعات حيث كان يجتذب ويُجَنّد المناصرين، مُصِراً على تولي التأهيل العقائدي بنفسه والذي يعتمد فيه على مَرجِعَين اثنين: جوناثان ليفينغستون، طائر النَّوْرَس (Jonathan Livingston, le Goeland) لصاحبه ريتشارد باخ (Richard Bach)، وهو كتاب

رأى فيه جعجع أكثر من مُؤَلَف وإنما كتاباً مَرْجِعاً؛ وفكر تيلار دو شاردان (Teilhard de Chardin). فعندما كان الحكيم يتحدث عن جوناثان، لم يكن ليصف أي شيء إلّا مساره الشخصي والمعنى الذي يعطيه هو لحياته الذاتية.

ولقد حاولت عقيدتهُ جاهدة الإجابة عن كل تساؤلات الحياة في مزيج من المسيحية والفلسفة، حيث يلتقي التاريخي بالروحي في مقاصِده. فالإنسان مشروع كائن، يعي مفهوم الزمان، فيخطط للمستقبل ويستبق نفسه فيه. «إن مهمتنا كبشر تقضي في أن نحوّل العالم ونرتقي به بجهدنا وعملنا».

كان من شأن هذه الروحانية أن تتخطى في نظري التعاليم القديمة التي كانت تأتي الكنيسة بها. فهي لا تقع في منطق الخطيئة وما يستتبعها من مَذنُوبِيّة، وإنما على العكس تماماً، في الحركة التي تَرتَقي بالانسان. وبهذا، أصبح المسيح الواسطة والرابِطة بين السماوات والأرض، بين المادة والروح، بين الماضي والمستقبل، بين الحياة والموت. وفي سعيه لتلخيص وتبسيط عقيدته فيسهل على سامعيه استيعابها، لم يجد جعجع مانعاً من أن يستعير من الصلاة الربَّانيّة: «فلتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض!».

وبهذا، أصبح جلِيَّاً وواضحاً أنّ الدور التقليدي للكنيسة المارونية والقاضي بالذّود والدفاع عن هذه الطائفة، بات الآن بين أيدي المقاومة. وحول جعجع، تَحَلّق كل من مهجري الشوف الذين الْتَقَوا بمهجري الشمال، إضافة إلى بعض من

قادة الثُكْنات والمسؤولين العسكريين في القوات اللبنانية الذين قرروا أن يُغَيّروا من مرجعيتهم القيادية. حتى أنّ بعض الرهبان اختاروا السّلاح، فيما أقبل شبان ماركسيو الفكر والعقيدة على خطابه فالتزموا به. وهكذا التحق السياسي بالديني، حتى انصهرا في بَوْتَقة واحدة.

وإذ تنامى عدد مناصريه، واشْتَدَّ ساعده، كرَّس جعجع نفسه لتحضير رجاله عسكرياً.

في شهر آذار/ مارس من العام 1985، قَرَّر الرئيس أمين الجميّل وَوَزيرَاه، وليد جنبلاط ونبيه برّي، وقد اسْتَظَّلوا بالرعاية السورية، إعادة فتح الطريق الساحلية، وإزالة حاجز البربارة التابع لسمير جعجع.

وكان من شأن السيطرة على هذا الحاجز وعلى الطريق الساحلية أن يضمن التحَكُّم بالمرافىء السرية التي تعبر من خلالها الأسلحة والبضائع والمخدرات، بمعنى آخر المال الذي يُموّل الحرب ويُغَذِّيها. واذ رفض سمير جعجع الانسحاب لصالح الجيش اللبناني، قرر المجلس المركزي في حزب الكتائب، في الحادي عشر من آذار/ مارس من العام 1985 طرده من الحزب، وتجريده من جميع مهامِه وصلاحياته. فكانت تلك، الشرارة المنتظرة.

كان اليوم التالي، الذي وافق فيه الثاني عشر من آذار/

مارس من ذلك العام، يوماً مشهوداً بالنسبة إلينا، إذ شهد إطلاقَ انتفاضَتنا على يد كل من كريم بقردوني، وايلي حبيقة وسمير جعجع. فبالرغم من اختلافاتهم، إلّا أنهم وجدوا من الملائم توحيد قواهم. فثلاثتهم كتائبيون ومسؤولون في قيادة القوات اللبنانية، وهم يستطيعون أن يتوزعوا الأدوار فيما بينهم، بما يتناسب وشخصية ومهارات كل منهم. ففي هذا الثالوث، كان سمير جعجع القبضة الحديدية، فيما قام فيه كريم بقرادوني مقام العقل المدبّر، وكان له إيلي حبيقة العين الثاقبة.

كونه ابن بيروت، كان لإيلي حبيقة ميزة رئيسة كمنت في معرفته بالرجال والإحاطة بجغرافية الميدان، وهو ما مَكَّنه من النجاح، دون صعوبة تذكر، في خلط الأوراق، وذرّ الرماد في العيون.

ومن جهته، تولّى كريم بقرادوني إنشاء العلاقات السياسية والاعلامية، والعمل على تحسين الرأي العام. وبما أنه افتقر إلى أية قاعدة عسكرية، أصبح العقل المدبّر الذي يحتكم إليه الذئبَيْن الفَتِيَّيْن، جعجع وحبيقة، لما اشتهر به من حنكة وسهولة في استخدام الأفكار ومرونة سياسية في التعامل مع الفرقاء، فكان في هذه الإنتفاضة الرجل القادر على إدارة الأمور بذكاء وبعيداً عن الانفعال والتّهور. ومع ذلك، فلقد كان لكريم بقرادوني، إعاقتان حالتا دون تمكنه من لعب الأدوار العامة الأولى، تلك التي تحتل عادة الواجهة: فهو

لم يكن مارونياً، ولم يكن شَعْبَوِياً؛ ولكنه كان يتمتع بحس واقعي متين، جعله دائم القدرة على الفصل بين الفعالية وهيبة النفوذ.

فجر الثاني عشر من آذار/ مارس، قام رجال سمير جعجع بالتقدم من جبيل على طول الطريق الساحلية حتى نفق نهر الكلب، على تخوم المتن الشمالي الذي يُعَدّ إقطاعة الرئيس الجميّل. كنا نخشى هذا الحاجز المسيطر على المدخل إلى بيروت. ولكن مواقع حزب الكتائب في كل من جبيل وكسروان لم تتأخر بالإستسلام دون مقاومة، أسوة بالثُكْنات الموالية لفؤاد أبو ناضر، القائد العام للقوات اللبنانية. وفي الوقت عينه، كان ايلي حبيقة يتولى كلاً من منطقتي بعبدا والأشرفية، وقسماً من كسروان.

كان للإنتفاضة التي أُطلق عليها اسم «حركة القرار المسيحي» شعار يدعو إلى وضع «أمن المجتمع المسيحي فوق أي اعتبار». فاستقبلها شباب القوات اللبنانية خصوصاً، والمسيحيون عموماً بالتَّرحاب، مما أثبت لنا أنّ معسكر الجميّل كان على خطأ. وسرعان ما حَلَّ الإنكسار بفؤاد وجماعته، فيما نجت إقطاعة أمين الجميّل من هذه العمليات العسكرية، ولكن الرئيس فقد سَطْوَته علينا. ومنذ ذلك الحين، تولى كل من جعجع وحبيقة وبقرادوني قيادة القوات اللبنانية سوياً، فبات القرار المسيحي بين أيديهم.

في مساء ذلك اليوم عينه، انضممتُ إلى سمير جعجع

حيث استقر في جونيه. كان الصحافيون اللبنانيون والدوليون يتدافعون حوله، فيما كانت وَمْضات آلات التصوير تطقطق والأقلام تصطلي. كان سمير جعجع يشعر بالارتياح، مُلتذّاً بانتصاره، وقد برز في مُحيَّاه وموقفه ولهجة صوته شيء من العظمة والزَّهو.

عملت إلى جانب سمير جعجع بلا كلل ولا ملل: أنظم الاجتماعات اللامتناهية، أبث البيانات الصحفية، أردّ على الصحافيين، من مشرق الشمس وحتى مغربها، بل قل حتى ساعة متأخرة من الليل طِوال سبعة أيام في الأسبوع. فالسلطة التي حزْنا عليها ارتكزت فقط على الانتصار العسكري، وكان لا بد لهذا الأخير أن يجد له دَعماً سياسياً.

بعد بضعة أيام على الإنتفاضة، رافقت سمير جعجع إلى مقر القيادة المركزية للقوات اللبنانية في بيروت، لافتتاح مكتبه الجديد. فبعد ثمانية أشهر على طردي من هذا المقر العام، دقت ساعة عودتي إليه. بالنسبة إلي، لم تكن عودة حقيقية، فأنا ما تخلَّيت يوماً عن المقاومة.

حرب القادة

رأت سوريا في كل من جعجع وحبيقة رمزان اسرائيليان، مما حمل الرئيس حافظ الأسد على عرض مساعدة عسكرية على الرئيس الجميّل، يتولّى بها «المنْشَقِّين».

في هذا الوقت، استمرت الدولة العِبرية في انسحابها السياسي والعسكري من لبنان. ولم يطل بنا الأمر حتى وجدنا أنفسنا في عزلة، فاسرائيل تَخَلَّت عنا، وسوريا تهاجمنا، والعالم لا يبالي.

وإذا بخطوط التَّماس تشتعل في كل من بيروت واقليم الخَرُّوب، شرقي صيدا، إذ قرر سمير جعجع، في الرابع والعشرين من نيسان/ ابريل، سحب مقاتلي القوات اللبنانية من تلك المنطقة، في نفس اليوم الذي انسحبت فيه القوات الإسرائيلية من البقاع الغربي. وفي السادس والعشرين من الشهر عينه، تعرضت خمس قرى مسيحية تقع في ضاحية صيدا الشرقية، إلى هجوم شَنَّته عليها القوات الإسلامية التقدمية والأصوليون المسلمون الذين ينتمون إلى الجماعة الإسلامية. فما كان أمام سكان هذه القرى إلا التقَهْقُر إلى

جزّين، وهي مدينة مسيحية في الجنوب، وإلى منطقة الحِزام الحدودي الواقع تحت السيطرة الإسرائيلية.

وفي الثامن والعشرين من نيسان/ ابريل، تعرضت قرى إقليم الخَرُّوب المسيحية بدورها إلى هجوم الميليشيات الدرزية التابعة لوليد جنبلاط، ليبدأ بذلك تهجير جديد للمسيحيين. فما كان من الأوساط المقَرَّبة من إيلي حبيقة إلَّا أن حَمَّلَت مسؤولية ما حدث لسمير جعجع، فلامته على أمره القوات اللبنانية بالانسحاب من المنطقة، مما سَهَّل تهجير المسيحيين منها، فإذا بالارتياب ينمو بين حلفاء الثاني عشر من آذار.

وفي التاسع من أيار/ مايو من العام 1985، تَشَعَّبت الطريق التي ارتضى الرجال الثلاثة المتحالفون في انتفاضة الثاني عشر من آذار، سلوكها جنباً إلى جنب. وفي ذلك اليوم، نجح إيلي حبيقة في حمل المجلس التنفيذي في القوات اللبنانية على انتخابه رئيساً له. فإذا بِمن عُدَّ، عشية الإنتفاضة، «عميلاً إسرائيلياً»، وقائداً تنفيذياً لمجازر مُخَيَّمي صبرا وشاتيلا، يقوم بالتفافة كاملة بمعدل مائة وثمانين درجة، مبادراً إلى إقفال مُمَثّلِيّة القوات اللبنانية في القدس، وإلى المصالحة مع آل فرنجية، في وقت كان يجري فيه اتصالات مع سوريا، وكل هذا بمعزل عن سمير جعجع ودون علم منه. وما لبث حبيقة أن فرض نفسه سريعاً كممثل المسيحيين في دمشق، فسوريا لم تَعد فعلاً الخصم والعدو. لم تعد المحتل الغاشم، ولا هي الشقيقة التوأم، وإنما هي قوة

حقيقية على الأرض، ينبغي التعامل مع وجودها، من الآن فصاعداً.

وبهذا باتت المواجهة بين كل من إيلي حبيقة العَمَلاني، وسمير جعجع العقائدي الملتزم، أمراً واقعاً لا مفر منه. وفيما كان جعجع يواصل ممارسة سلطته ومهامه كرئيس للأركان، في ظِل رئاسة حبيقة للمجلس التنفيذي للقوات اللبنانية، كان يُحضِّر بسرية ودِقّة متناهية عملية يستهدف بواسطتها إلغاء حليف الأمس.

في تلك الحقبة، غادرت مكتب سمير جعجع لألتحق بفريق كريم بقرادوني، الذي وبعد «حركة التاسع من أيار»، بات مسؤولاً فقط عن القطاع الإعلامي. اتخذت خِياري هذا بوحي من اهتمامي بالصحافة، وبغرض الهروب من الدائرة الضيقة التي نَسجها المقرَّبون من سمير جعجع حوله. فأنا ما عُدت أشعر بالارتياح في محيطه، الذي صِرْت أجده كثير الولاء، القبائلي النزعة. فالرجال والنساء الذين كانوا يحيطون به، (يعودون جميعهم في مَنْبِتِهم إلى الشمال) هم من منطقة الشمال، تشدّهم إلى بعضهم البعض، روابط الثقافة الواحدة، وعُرَى التاريخ المشترك.

وكان من شأن عملي إلى جانب كريم بقرادوني أن أوصلني إلى تولي منصب يساعدني على قراءة وفهم الأحداث، في قلب إدارة تتصف بالدينامية، كانت هذه الإدارة في تلك

الحقبة، منهمكة بالتحضيرات الهادفة إلى إنشاء محطة تلفزيونية ناطقة باسم المسيحيين، مما استحَثَّ شغفي واهتمامي. فالمؤسسة اللبنانية للارسال كانت على وشك أن ترى النور بتمويل من «الصندوق الوطني» في القوات اللبنانية، وهو الذي كان مَصَبّاً لموارد كثيرة: الضريبة على المحروقات، ضرائب متفرقة، رخص السلاح ورسوم المرور، الضرائب على الأنشطة ذات الطابع الاقتصادي في المناطق الواقعة تحت سيطرة القوات، ضرائب على الخدمات ورسوم إدارية.

إلغاءات

في الرابع والعشرين من شهر أيلول/ سبتمبر من العام 1985، قصد إيلي حبيقة دمشق. كانت تلك المرة الأولى التي تختار فيها الحكومة السورية التفاوض مع ميليشيات. إذ بات الرهان الآن على الصقور أكثر منه على الحمائم.

أبقى سمير جعجع على صمته، مُترقِباً الوقت الملائم للإستيلاء على السلطة، منصرفاً، سراً بالطبع، إلى تنظيم المعارضة ورصّ الصفوف بالتعاون مع عدو الأمس، أمين الجميّل؛ فالمواجهة العسكرية مع ايلي حبيقة تلوح في الأفق، ويجري التحضير لها. ساد جَوّ من التآمر في مقر القيادة المركزية للقوات اللبنانية، مُنذِراً بِبَدء امتحان قِوى في المناطق الشرقية، بين كل من سمير جعجع وحزب الكتائب من جهة، وايلي حبيقة من جهة أخرى، مما لم يكن يدعو إلى الاطمئنان.

وفي ظِل هذا الجو المحموم، عادت اللجنة الثلاثية، التي كانت تضم ممثلين عن الميليشيات الثلاث ـ أي المسيحية، الشيعية والدرزية ـ إلى الالتئام في دمشق، مواصلة اجتماعاتها

ومفاوضاتها التي أدَّت إلى اتفاق نهائي، بالرغم من التحفظات التي كان يبديها بعض الزعماء المسيحيين؛ فبالكاد استطاع ايلي حبيقة نيل موافقتهم على النص. ولم تفلح اعتراضات وتهديدات سمير جعجع المستترة، في منعه من قصد سوريا في الثامن والعشرين من أيلول/سبتمبر للتوقيع على الاتفاق الثلاثي.

في الحادي والثلاثين من كانون الأول/ديسمبر، أي بعد يومين على توقيع الإتفاق المذكور، استهدف انفجارٌ الموكبَ الذي كان من المفترض أن يكون إيلي حبيقة في عِداده، فنجا ساعده الأيمن، أسعد الشفتري، من الموت بأعجوبة. فما كان من حبيقة إلّا أن انبرى مُتَّهماً أمين الجميّل بتبييت النية في اغتياله، دون أن يمتنع عن الشك بتورط سمير جعجع في الأمر.

وفي الثالث عشر من كانون الثاني/ يناير من العام 1986، فشل الهجوم الذي شَنَّه إيلي حبيقة على إقطاعَة أمين الجميّل. وفجر اليوم التالي، أطلق كل من الجميّل وسمير جعجع عمليتهم العسكرية ضد حبيقة.

عشية تلك العملية، التقيت بكريم بقرادوني الذي أسَرَّ لي بها، قائلاً: «إمضي الليلة في المكتب». يصعب عليَّ أن أشرح المشاعر التي ولَّدها ذاك الإعلان في نفسي، إذ حملني

فوراً على التفكير بغَسَّان، وجميع أصدقائي، وجميع المقاتلين في الجهة الأخرى. كيف السبيل إلى تحذيرهم؟ إن تكلمت، قد أستطيع إنقاذهم، ولكن ذلك سيؤدي إلى تسريب الخبر، مما قد يعطي للسوريين ذريعة بالقصف والضرب. رُحْت أتخَبَّط بين الإفصاح عن الأمر والإبقاء عليه طيّ الكِتمان، تلك ليلة كانت ليلاء بالنسبة إلي، فأنا لم يغمض لي جفن خلالها لشدة القلق الذي تملَّكني ولإدراكي بما سوف يكون عليه النهار التالي من خطورة أثارت الرعب في نفسي. من سيخرج حَيّاً من تلك المعركة؟ لأي من المعسكَرَيْن ستكون الغَلَبَة؟ وما إن هَلَّ الصباح، حتى سُمعت الرشقات الرشاشة والمدفعية. يومذاك، اسْتُهِلَّت المعارك في نفس الوقت في أماكن مختلفة، بغرض تَسْمير قوات إيلي حبيقة في مواقعها، وشلّ حركتها. تولّى رجال جعجع، وأولئك الذين كانوا يشكلون حرس أمين الجميّل الشخصي، المقر العام التابع لإيلي حبيقة، والواقع على بعد أربعمائة متر من مركز القيادة حيث كنت أتواجد. وفي غضون ساعات قلال، اسْتَسلمت مواقع حبيقة، الواحد تِلْو الآخر، مما أثبت أنه لم يكن لِيتوقع الضربة التي كانت تُعَدّ له.

حوالى الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم، كان انتصار سمير جعجع ناجزاً، إذ ضُرِب الحصار حول المقر العام التابع لحبيقة الذي خرج منه سالماً بفضل تدخل الجيش

اللبناني؛ ولكنه ما لبث أن أُلزم بتقديم استقالته من منصبه في القوات اللبنانية.

أخذت تداعيات الوضع الجديد تتدافع في خاطري. فالدماء تفيض بين حلفاء الأمس، فيما شُغِل مَنْ حولي بالتعليق على المعركة فرحين مُنْزِلين الأحكام بحق حبيقة، ففي ذلك اليوم، رأيت عيوناً ملأى بالكبرياء والعجرفة، وابتسامات تَسْتَلِذ الإنتصار، فتفيض بها الوجوه كبرياءً أخافني. فإذا بشعور بالإنزعاج يجتاحني، وقد ترافق مع هذا الانطباع الغريب بأنني عِوض الترقّي، انحدرت وبترت في داخلي.

وفي صباح اليوم التالي، غادر إيلي حبيقة البلاد، متوجهاً إلى دمشق، ومنها إلى مدينة زحلة في البقاع، وهي مدينة مسيحية استَقَرَّ فيها.

وما لبثت التساؤلات أن بدأت تمزقني من الداخل. أنحن حقاً في خدمة قضية؟ وأية قضية؟ لقد استولى سمير جعجع على الميليشيا المسيحية بالقوة والعنف، وبات الوحيد الذي يمسك بزِمام الأمور، ولا سيما زِمام السياسة المسيحية، إذ لم يَطُل به الأمر حتى راح يضع البنية التحتية لدولة أراد إنشاءها في المناطق الشرقية؛ وهو أيضاً، لم يتأخر في إعادة تنظيم القوات اللبنانية، فقاد في داخلها عملية تطهير، عازلاً بواسطتها كل العناصر المشبوهة. فانتهى الأمر بالأوفياء لكل من بشير الجميّل وايلي حبيقة بمغادرة القوات اللبنانية.

وهكذا، لم يعد هناك أي خصم يعيق تقدُّمَ سمير جعجع الذي راح يكثر من ظهوره الإعلامي، متخلّياً عن البزّة العسكرية، في وقت بدا فيه وكأنه يَسْتَسيغ حضور السهرات وتدخين السيجار.

ثُرَيّا أو الحب المستحيل

عندما فاتحتني بأمره للمرة الأولى، اعتقدت أنّ ثرَيّا جاءت تَسُرُّ لي بكآبة تعانيها بسبب الحب وسرعان ما أدركت أنّ في الأمر خطورة أكثر مما كنت أتصور. إذ كان إفصاحها عن حبها نداء استغاثة.

كان في مهمة عندما التقت به. يومذاك حاول كل شيء عَلَّه يوفّق إلى طريقة يقاربها بها. في البَدء، لم تجرؤ حتى على الرَدّ عليه، فهو لم يكن ينتمي إلى نفس طائفتها المسيحية. ما إن ذكرت لي أسمه، حتى حملت المشاعر التي تكنُّها له، إلى وجهها الرفق والرِقّة. واذ أدركت أنها تحب ذلك الرجل، سمعتها تقول لي بصوت ناعم رشح بشيء من اليأس:

ـ يود أن يعود لرؤيتي، أيّاً كان الثمن، في أي مكان أختاره. وأنا أيضاً أود لو أراه مجدداً.

ثريّا صديقة مُقَرَّبة مني، وهي مارونية مثلي. خَشِيت عندما فاتحتني بالأمر أن أجد في تجاوبها مع رجل مثله ينتمي إلى معسكر الأعداء، أمراً لا يُعقل.

رأيت العشق يتنامى فيها كما نشوة من أدمن الخمرة. وهي

ترفض بعد اليوم أن تأخذ الخطر في حسبانها، مع أنّ المجازفة في حالتها كبيرة، لا منطق فيها. فهو ليس من دينها ولا ينتمي إلى نفس معسكرها السياسي، هي التي تعمل في القيادة المركزية الخاصة بالقوات اللبنانية. فلو علم أحدهم بأمرها لأوشكت، والبلاد في حال من الحرب الطاحنة، أن تُتَّهم بالخيانة والتجسّس لصالح الأعداء. ومع ذلك، فأنا لا أتردد لحظة واحدة:

ـ سوف نجد حلّاً، ونرتّب الأمر. ولكن ينبغي عليك أن تَلْزَمي الحيطَة والحذر.

نمضي سهرات طويلة بعيداً عن المكتب، نتداول خلالها بالمعلومات التي في حوزتنا ونستحث مخيلتنا، عَلَّنا ننجح في وضع خطة ملائمة للقائهما. إذ ينبغي استباق كل شيء، وتفادي الخطوط الهاتفية المراقبة، وتدبير مكان آمن لا يثير الشكوك، وسلوك مسارات لا يرتادها الكثيرون. أدرك ما يلزمهما من شجاعة للقاء ولعيش الحب الذي يربط قَلْبَيْهما، فأقدم لهما المساعدة. فإذا بحصني العقائدي يتشقق ويتصدع.

وفي كل مرة يتم اللقاء، تخفق القلوب خوفاً وحباً.

إن قوة لقاءاتهما تشبه الجاذِب، المبعثرة بعضها إلى بعض، يلملم الأشلاء، فيعيشان لحظاتهما معاً بشغف حاد، لا مكان للغد فيه، فهي تقمع رغبتها في البقاء برفقته على الدوام، ولكنها تعرف تماماً أن لا حظَّ لها إطلاقاً في بلوغ ما تحلم به.

إنهما لا يفترقان، بل يتمزقان كما بيروت، بين حبهما الذي يفوق كل ما يمكن للعالم أن ينبض به من عِشق، والذعر الذي ينال منهما للمخاطرة بكل شيء. ولا ألبث أن أصبح شريكة لهما، حافظة لسِرّهما، وأنا أرى ثرّيا تبكي حرقتها دموعاً تفيض بها أحشاؤها. أما هو، فيكرر على مسمعي آلاف المرات: ثريا جميلة كالقمر.

اعتقالات

في السادسة من صباح يوم من شهر شباط/ فبراير من العام 1986، رنَّ جرس الهاتف. تَناهى إلى مسمعي صوت غسّان يعلمني بتَعَرُّض عشرات من رفاقه، وهم من مُؤَيّدي إيلي حبيقة، للإختطاف من منازلهم، وهو ما كاد أن يتعرّضَ له، لَوْ وجده الخاطفون ساعة أتوه في منزله. ومع أنه كان يقبع آنذاك فيه، غير أنه استطاع الإفلات من قبضتهم، فلم يتنبهوا لوجوده. يا للغرابة! منذ أسابيع، وغسّان يعيش قلق الاعتقال؛ فلقد أقلع عن زيارة أصدقائه خِشية أن يثير حولهم الشُّبهات، وبات يمضي الوقت يترقب فيه مباغتات المسلحين الليلية. شَكَّل غسّان دائماً موضِع تساؤل أصدقائه؛ فهم يَشُكُّون في أنه حفر له خنادق في منزله، يتسلل عَبرها، هارباً بخفة ورشاقة (السنّوريات)، عندما يريد أن يجتنب خطراً مداهماً أو أن يتوارى عن الأنظار. ومن ناحيته، فهو يرتاب بالجميع، ولا يثق حتى بعائلته الخاصة، ويُتْقِن من إثارة الغموض من حوله، فيتدثَّر دائماً بالسرية فيما يفعل.

لم يحْمِلْني اتصاله ذاك على التعجب إطلاقاً، فأنا أدرك نِعم الإدراك مواقف الموالين لسمير جعجع من غسان، إذ

يشتبهون في أنه عضو ناشط في شبكة إيلي حبيقة. ولذلك فهم يبحثون عنه في كل مكان، وهم لن يتوانَوْا في فعل ما يضمن لهم وضع اليد عليه واقتياده إلى السجن. وسعياً مني لحمايته من الأعظم الذي يتربَّص به، نصحته بالمبادرة إلى تسليم نفسه، إذ كنت أعتقد وقتذاك أنّ تلك هي الطريقة الفضلى لاجتناب الملاحقات الطويلة والنجاة من الموت، فقلت له: «يجب عليك أن تذهب أنت إليهم. تعالى معي، سأرافقك وسأحاول أن أنتزع منهم وعداً بتحريرك سريعاً. سأتدخل لأضمن لك ذلك». فوافق على اقتراحي.

وفي الطريق إلى ثُكْنة القوات اللبنانية الواقعة في جونيه، التقينا بطَنّوس، وهو واحد من قُدامى مجموعتنا في الحدث، وقد أَحاطَ به جمع من الشبان المسَلَّحين. فإذا به يومىء لي بالتمهل، وينظر إلى غسان، قبل أن يبادره بنبرة جافة: «لم يكن عليك المقاومة وإنما التجاوب فوراً مع ندائنا. من المنطقي أكثر أن تسلّم نفسك». بكلامه هذا، كان طَنّوس يكشف طوعاً عن دوره في هذه القضية؛ فهو الذي يتولّى الاعتقالات. لم أجد صعوبة في ملاحظة الرِضى الذي استضاءَت به ملامحُ وجهه، ذاك الرضى الذي يُحِسُّ به مَنْ أنجز للتَّو عملاً جيداً. لقد انشَقَّ عن كل من غسّان ورفاقه، دون أن يوجّه إليهم أية كلمة يُعَبرُ بها عن تعاطفه معهم. فالكبرياء دفعه لاعتقال رفاق دربه، أولئك الذين حملوا السلاح معه. وهو يعتقد أنّ ذلك هو السبيل الأفضل للحفاظ

على منصبِهِ واجتذاب مودّة المنْتَصِرين. إنه ولا شك ينتمي إلى ذلك النوع من الرجال الذين يستطيعون الاعتماد عليهم. فهو كغيره مِمَنّ يَتَفانون في خدمة أصحاب الغَلَبة والعِزّة، مُتَلهِف إلى السلطة، مُغْتَرٌّ بما يلقى من حَظْوة لديهم، فيرتضي أن يكون شريكاً متواطِئاً معهم، يُنفّذ أوامرهم بلا نقاش وببرودة كلّية، طمعاً في رضاهم وما يستتبع ذلك من دعْم وامتيازات. فلا عجب إذ ذاك أن يدوس طَنّوس على ماضيه وعلاقاته بفرحٍ وجَذَلِ مَنْ نجا من الطوفان فيما بقي الآخرون، وإن كانوا من أصدقائه، يتخبَّطون فيه. إنّ في سقوط القناع عن وجه مَن حَسِبْتهُ صديقاً خيبة جَمَّة للآمال التي عَقَدْتها عليه. وأمام موقف طَنّوس، حملتني الذكرى إلى كل الذين رحلوا. لم أعتقد يوماً أن يجد أحدُنا في نفسه ما يلزمه من قوة لخيانة عهد الوفاء لماضينا. كيف يستطيع خيانتنا، وقد حمل الموتُ العديد منا: إيلي، جوزيف، إيدي وآخرين.

نغادر الحدث لنتبع الطريق الساحلية. لم نكن قد وصلنا بعد عندما طلب مني غسان إيقاف السيارة. قرأت في نظراته نِيَّتَه بالهروب، مع أنه يدرك جيداً أنّ حظوظه في الإفلات من قبضة القوات اللبنانية ضعيفة للغاية، وهو يستطيع قياس الخطر الذي ينتظره: فقد يقومون باعتقاله وقتله على الفور.

ـ ماذا تَنْوي أن تفعل؟ إنهم في كل مكان. سيلقون القبض عليك قبل أن تغادِر المنطقة.

يُبقي غسان على صمته، فيما أتابع طريقي.

أصل به إلى المبنى حيث يحتشد رجال إيلي حبيقة المعْتَقلون، ولكنني، على عكسه، لا أستطيع دخوله. أكرر على مسامع الحارس شارِحة أنني أعمل مع جعجع، ولكنه لا يولي كلامي أي انتباه.

ـ لا تستطيعين الدخول معه!

بهذه الكلمات زَجَرني، فيما طلب شاب مسلَّح من غسان مرافقَتَه.

ستبقى تلك النظرة التي رَمَقني بها، وهو يبتعد في ذلك الرّواق الكبير دون أن يتفوه ببنت شفة، راسِخَةً في ذاكرتي. لقد وعدته ألّا أتخلى عنه. لقد وعدته أنّ الأمر لن يطول وأننا لن نتأخر في العودة لتناول الغداء معاً. وهو وَثِق بي.

وبنبرة آمِرَة، مشحونة بغضب عارم، حاولت التأثير على الحارس، فقلت له:

ـ إنني أنتمي إلى مكتب قيادة رئيسك. من المسؤول عنك هنا؟ أريد أن أراه. دعني أدخل.

وإذ أضناه عنادي، قادني الحارس إلى أكرم، الذي أعرفه جيداً. فاعتقدت أنّ لمطلبي الحظ في أن يَلْقَى الآذان الصاغية والتجاوب.

ـ لدينا بعض الأسئلة نطرحها عليه بشأن علاقته واتصالاته مع إيلي حبيقة.

هذا ما قاله لي أكرم وقد ارتاح في جلسته خلف مكتبه.

ـ وإلى متى تَنْوون احتجازه؟ استطيع أن أنتظره. غسان هو كالأخ بالنسبة إلي وبالنسبة لعديد من الشبان في الحدث. إنه محطّ التقدير لما يَتَّصِف به من تفانٍ وإخلاص. من الممكن أن يسوؤهم اعتقاله، وهم أبناء منطقةٍ نحتاج أن نُقْنِعَ فيها الناس بالانضمام إلينا.

ـ عودي إلى المنزل. إذ من الممكن للإستجواب أن يطول بضعة أيام.

هذا ما أجابني به أكرم بنبرة لم أجد فيها أثراً للصداقة.

فإذا بالانهيار ينال مني. ماذا عليّ أن أفعل؟ لماذا اقترحت عليه أن يُسَلّم نفسه؟ لماذا لم أجرؤ على مساعدته في الهرب؟ أحس بنفسي القدرة على نقاش عنيف للحصول على إطلاق سراح غسان، ولكن خِشْيَتي من أن أفاقِم مِن وضعه بالإضافة إلى عزمي على العودة لرؤيته، ينأيان بي عن استعدادي للبقاء في مكتب أكرم الذي قبل أن أخرج أرجوه أن لا يُنْزِل الهوان والمذلّة بغسان. ولكنني سرعان ما أدركت سذاجتي، فوجهه مقفل كما السجن الذي أقامه للتّو. لا تزال نظرته تلك تَتَسَلَّط عليّ حتى اليوم، كما لا يفارقني الشعور الذي ولَّده في نفسي يومذاك ما أظهرته من بساطة وسلامة نِيّة؛ ولا زلت أشعر حتى اليوم برغبة جامحة بصفع أكرم ذاك.

وطوال الطريق التي اقتادتني إلى منزلي، كانت أفكار عنيفة تثير اضطرابي. أتخيل ما سيَحْمِلونه على مكابدته، وأفكر

بالوحشية التي سَيُسْتَجْوب بها. لا بدَّ لي أن أعود. يجب عليَّ أن أعود إلى ذلك السجن، أيّاً كان الثمن. لا أستطيع أن أعقد العزم على الامتناع عن رؤيته من جديد، ولا على التخلي عنه في الوقت الذي يريدون فيه اتهامه بالخيانة.

وفي صباح اليوم التالي، سارعت إلى الذهاب إلى مكتبي في مقر القيادة العامة، وفي رأسي تحقيق هدف واحد: الحصول على إذن بالدخول إلى ذلك المعمل الذي حُوِل إلى سجن. أعتقد أنّ باستطاعتي إقناع نادر، أحد المقَرَّبين من سمير. وإذ رمقني بنظرة ملؤها الارتياب، قال لي:

ـ انتظري بضعة أيام. إنّ الوقت غير ملائم الآن.

ـ ولماذا الانتظار؟ كم من الوقت تَنْوُون الإبقاء عليه قيد الاعتقال.

ـ طالما سمير في السلطة.

هذا ما أجابني به نادر بجفاء، فإذا بي أنتفض غاضبة:

ـ لا يسعكم أن تفعلوا هذا.

ـ إننا في حالة حرب. وهذا هو منطق السلطة.

ـ إنهم مناضلون. لقد اسْتَبْسَلوا في القتال، فدافعوا عن أحيائِنا وخاطروا بحياتهم. لا تستطيعون معاملتهم بهذا الشكل.

ـ لا تكوني ساذجة. لا نستطيع أن نفعل غير ذلك. فإذا لم نضعهم في السجن، لَوضِعْنا نحن مكانهم فيه. أوَتعتقدين حقاً أنّ إيلي كان ليتصرف بغير ما نتصرف نحن به، لو كانت

الغَلَبة من نصيبه؟ إنه اعتقال إحترازي، إذ ينبغي علينا أن نردع حتى مَنْ فاقهم نشاطاً ومثابرة.

ـ أريد أن أذهب لأراهم.

وبعد بضعة أيام، وأمام إصراري انتهى الأمر بكريم بقرادوني أن سَهَّل ليَ المهمة.

في قعر السجن

لدى وصولي إلى السجن بعد بضعة أيام على اعتقال مناصري إيلي حبيقة، يستقبلني آمِرُه، ويطلب من الحارس مرافقتي. يقبع خلف هذه الجدران خمسون معتقلاً تقريباً. في الداخل، أكتشف متاهة من الأزِقة، وقد اصطفت الزنزانات على جنباتها. لقد تآكل العفن هذه الأمكنة، ورشحت الرطوبة من الجدران ففاحت، على نحو مثير للخجل، فالرطوبة ترشح من الروائح النتنة.

يجيز لي الحارس بعشر دقائق في كل زنزانة، ويفتح الباب الحديدي الأول، ليدعني أدخل. تنبعث من داخلها رائحة حادة. إنهم أربعة معتقلين يتكدَّسون في زنزانة لا تتجاوز مساحتها المتران المربعان. لا يستطيع النور دخولها، ولا يتسلل الهواء إلى داخلها إلّا من شِق صغير للغاية ثُقِب في الباب المعدني. أتعرَّف فيها إلى المَصْري، وهو واحد من شبان الحدث. يبدو منزعجاً وفرحاً في آن لرؤيتي. أجلس أرضاً بقربه، فيلتصق المعتقلون بعضهم ببعض أكثر، وهم يحرصون على عدم انقلاب قنينة البول الملتصقة بالحائط. لا يُسْمح لهم بارتياد المراحيض إلّا مرة واحدة في اليوم،

وخلال الليل، ينبغي عليهم أن يتناوبوا في الاستلقاء على الأرض للنوم. يقول لي المصري: «قولي لهم إننا لم نفعل شيئاً». لا أفهم على الفور معنى تلك الجملة، ثم لا ألبث أن أدرك أنه يعتقدني مبعوثة من قبل سمير جعجع، وقد أوكلني بمهمة خاصة في هذا السجن. إمرأة في السجن، إنّ في الأمر ما يثير الشك. وأحسُّ على الفور بالحقد يتسلل داخل نفس كل منهم، فيبلغ منها القعر. أعرف أنّ رجال حبيقة لا يَرَوْن فيّ إلّا المؤيدة الوفية لجعجع. فكيف لهم أن يعتقدوا غير ذلك، وهم يعلمون أنني كنت من المقرّبين منه منذ الانتفاضة؟ أدرك إذ ذاك قرفهم واشمئزازهم مني، مما لم يمنعني من متابعة زيارتي، فأنا أريد أن أفْهِمهم أنني في صفهم، أنني أرثي لحالهم، ولحال هذا السجن، وظروف اعتقالهم تلك، والهَوان الذي يتعرضون له. فأقول لهم: «سأتصل بعائلاتكم لكي أنقل إليهم أخباركم وسأعود قريباً».

في الزنزانة الثالثة، أتعرف إلى الريّس فؤاد، وهو رجل نكن له الاعجاب والتقدير في الحدث، لاستقامته واهتمامه بالمقاتلين من الشبان. كان واقفاً ملتصقاً بالحائط عندما فتح لي الحارس الباب. ينهار على ركبتيه عندما يراني أدخل، وقد أحنى رأسه علَّه يخفي بانحناءته دموعه. أضع يدي على كتفه، فإذا بظهره يهتز من البكاء الذي يجهش به. وبعد بضعة لحظات طال أمدها، ينتصب الريّس فؤاد بصعوبة على قدميه،

وهو يستند إلى الحائط. إنّ الألم يتحَكَّم بساقيه وقد تصلبتا كما الحجر، فباتتا تنوءان بثقل جسده. إنني أرتجف أمامه، وتراودني الرغبة في أن أشرح له براءتي من كل هذه الأحداث المشينة البغيضة. فينظر إليَّ الريّس فؤاد بعطف ومودّة ويسألني أن أحمل إليه دواءه الذي يعالج به قلبه، فهو لم يتناوله منذ ثلاثة أيام.

يقبع غسان في الزنزانة الأخيرة. يفتح لي السجَّان الباب. أتردد لحظة قبل أن أقوم ببضعة خطوات. وإذ رآني أدخل، ابتسم، ابتسامة جامدة، ولكنها ابتسامة. لا يزال إذن قادراً على الابتسام. أدرك بارتياح أنه أقوى مني. أبقى دون حراك لوقت طويل ألزم خلاله الصمت، فلا أتفّوه بكلمة.

ما إن أغادر السجن، حتى أسارع إلى زيارة أم غَسَّان لكي أنقل اليها أخبار ولدها. وما إن أصل دارها، حتى تمدّ لي يداً، حفر الزمن فيها التجاعيد، وتشير بالأخرى إلى تمثال للقديس أنطونيوس، وقد أدار برأسه ناحية الحائط، كالطفل المعاقب بالوقوف في الزاوية لحماقة أتى بها. ولا تلبث أن تقول لي:

ـ لقد عاقبته. لقد عهدت إليه بغسان. كان عليه أن يصغي إلى صَلاتي. وبما أنه لم يفعل، فلقد عاقبته.

ثم، تَشُدُّ على يدي بقوة أكثر مكملة كلامها، وقد سَمَّرت

ناظِريها بالتمثال: «لا يستحق غسان السجن. احرصوا عليه فلا يصيبه سوء».

وفي اليوم التالي، أعود إلى السجن وقد حملت معي بعضاً من الملبَس النظيف والدواء وبضعة ألواح من الشوكولاته. يقتادُني الحارس إلى زنزانة جديدة. وفي اللحظة التي يتحَضَّر فيها ليفتح بابها، يحذرني قائلاً: «هذا شرس. إنه واحد من أكثر النشطاء حماسة وقسوة. لقد عزلناه هنا».

عندما أدخل الزنزانة، أرى شاباً، وقد جلس على فراش من الإسفنج طُرِحت أرضاً وضم بذراعيه ركبتيه إلى صدره بين ذراعيه. يداه المرتجفتان تَتَشَبَّثان بشعره كما لو أنها تريد اقتلاعه. يرفع إليّ عينيه فأرى وجهاً، حملت التجارِب الشيخوخة إليه. أرى على أذنيْه علامات الكَيّ وكدمات زرقاء على وجهه. عينه قد أوْسِعت ضرباً فَشُوّهت، وشُرِمَت شفته العليا. أجلس بقربه، ولا أعلم لماذا آتي بما لم أجرؤ على الإتيان به من قبل: أُمْسِك يده، فأجدها باردة وأُحِسّ بارتجاف عضلاتها. أقبض عليها بقوة أكثر، لكي أعبِّر له عن تعاطفي مع آلامه. وفجأة تنهمِر الدموع من عينيه، كطَفْح بركان حبيس منذ قرون، وجد له منفذاً للتّو. أنفاسه العميقة والمتسارعة تخفي كل الغضب الذي تجيش به نفسه، لكثرة ما تراكم وقُمِع فيها. ثم يتنفَّس عميقاً ويقول لي: «لقد قُتِل أخي منذ بضعة أيام خلال معركة المتن. من المؤكد أنكِ تعرفيه،

فأخي كان معروفاً». اصغي اليه لبضعة لحظات، ثم ينعزل في صمت طويل. ولكنه لا يأتي بكلمة واحدة عن التعذيب الذي تعرّض له، كما لو أنّ التعذيب لم يحصل فلم ينل منه. لعل الكلمات لن تقوى أبداً على عَرْض معاناة كرامة مغتَصَبَة ومسلوبَة. قبل أن أدخل تلك الزنزانة، كنت وعدت نفسي بالتماسك كي لا أنهار. حتى الآن نجحت في الحفاظ على رباطة جأشي. ولكن أمام ذلك الشاب، لم أستطع الإمتناع عن البكاء. البكاء عليه، علينا. في تلك اللحظة بالذات، فهمت للتو، أننا مغلوبون، وأنّ قضيتنا فُرّغت من معناها، وهي تنازع مثل هذا الشاب وقد قبع حبيس وحدة مُرْعبة، هائلة، متشنّجاً من اليأس، مُنْهكاً من الألم، ضارباً في شيخوخة مبكِرة.

أود لو أعود بالزمن إلى الوراء، فأعود وإيّاه إلى تلك الأوقات من الحرب التي حلم فيها بأنّ لبنان سيكون جميلاً؛ فأعود وإيّاه إلى تلك الأوقات حيث كانت شجاعته تتغذّى من الأمل، فتنهل منها قوتها يومياً. «الغد ملك من خاطروا بِغَدِهم». ألم يكن هذا ما وعدنا به أصحاب العقيدة المثقفون المتنوّرون، أولئك المفكرون الذين كانوا يقومون بزيارتنا على الجبهات. هذا ما وعدت به أنا نفسي المقاتلين الذين كنت ألتقيهم في ساحات القتال. البارحة، ولدى مرور المقاتلين،

عَلَت الصرخات تقول: «حَمَاكم الله كما تذودون عنا». كنا نصفق لهم، نشدو بالأغاني على شرفهم. لقد اعتقد طويلاً أنه يخدم قضية نبيلة، عادلة.

يمرر لسانه على الدم المتيبس الذي يعلو شفته، ليبتلع دمعة سالت على خده، تلك الدمعة التي فاقت مرارتها مرارة خيبة أمله. فرجاؤه قد تلاشى كلياً؛ لم يكن إلّا وهماً، وباتت قضيته المقدسّة فيما مضى، بشعة كريهة. لقد مات أخوه.

انتهى كل شيء. يفتح الباب المعدني. الزيارة أيضاً انتهت.

فيما كنت أغادر هذه الزنزانة، تفرّست بالحارس باحتقار. وَدَدْت لو أقول له: «أهذا من تَحْسَبه قاسياً، سيئاً؟ إنك ولا شك لم تنظر في عينيه، أما أنا ففعلت، ورأيت فيه الطفل الذي يبكي، الذي يشعر بالخوف. إنه يتألم. إنه وحيد يرتجف. أمس، عندما كان هذا الولد الشرير يحمل السلاح ويقاتل على الجبهات، كان بطلاً. كان يدّعي الكِبَر، والأهمية، والقوة كما تماماً تفعلون أنتم الآن. بل قل أفضل من ذلك، كان باستطاعته أن يسقط في القتال شهيداً. كيف سيعيش بعد أن عايش كل هذا؟ كيف سيقوى على الحلم، والرجاء والثقة بالآخرين؟ إنكم تسرقون غده وماضيه. جريمته الوحيدة أنه ينتمي إلى الفريق القديم في القوات اللبنانية. فهو ما عاد الآن في الجهة الملائمة». ولكنني أعدل عن كلامي

هذا مفضلة التزام الصمت فلا أقول شيئاً. وحدهم الرجال الأقوياء حقاً يستطيعون سماع نداءات الرأفة.

في ذلك السجن، يخضع المعتقلون للتعذيب. فالجلادون يريدون أسماءً واعترافات، لاقتناعهم أنّ رجال إيلي حبيقة هم بصدد التحضير لعملية عسكرية، يستعيدون بها مواقعهم بالقوة. بعض الذين يتعرضون للتعذيب، يقاومون فلا يفصحِون عن شيء البتَّة، فيما ينهار آخرون، وينتهي بهم الألم إلى قول ما ينتظر الجلادون سماعه. خلال الاستجوابات، يفضل أحد السجناء، ويدعى جورج، أن يعطي معلومات ليجتنب التعذيب الذي يتوعّدونه به. ولتبرير الاعتقالات، تعرض اعترافاته على شاشة المؤسسة اللبنانية للإرسال، محطة التلفزيون تلك التي موَّلها هؤلاء الشبان بدمهم وعرقهم. إذ لا بد من إقناع الرأي العام المسيحي بشرعية هذه الإعتقالات. ولكن الرأي العام، لا يأتي بأية ردَّة فعل. فهو بات عاجزاً عن التمييز بين الصديق والعدو، بين الأخبار المرَوَّج لها، والأخبار الصحيحة، بين القوة والعنف.

الجحيم

كيف السبيل إلى تبرير تلك السجون؟ يستحيل عليّ، بل يَشُقُّ عليّ تَقَبُّلهَا، لا سميا أنني كنت أُكِنُّ الإعجاب والتقدير في الماضي، للشخص الذي أعطى الأمر بتلك الاعتقالات.

إنه منتصف الليل في قاعة الإنتظار المتواجدة في المقر العام الخاص بالقوات اللبنانية، حيث طال انتظاري لأكثر من ثلاث ساعات على الأقل. فأنا لا أريد التخلي عن الأمر الذي من أجله أتيت. كما أنني لا أريد السكوت عليه، إذ لا بد لي أن أطرد ما يتآكل أحشائي.

في صالة الانتظار هذه، أكرر للمرة المئة المرافعة التي حضرتها للدفاع عن قضيتهم، فيما فكرة الفشل تعتصر معدتي. إنها الواحدة بعد منتصف الليل تقريباً، عندما يُفتح باب مكتب سمير جعجع. فتتسارع خفقات قلبي وتتصاعد إلى حلقي، دون أن تقوى على صدّ ما أنطق به.

ـ لقد عرفتك يوم عُدتَ من دير القمر. يومها حسبتك مختلفاً، فصدقت كلماتك ووثِقت بك. أما اليوم، فإنني شديدة الاضطراب لما رأيته من فظائع تُرْتَكَب في السجون. لا يسعك أدّعاء الإنسانية والقَبول بما يحدث فيها في آن.

إن الفظاظة واضحة في كل من كلامي ونبرة صوتي. لا أدري منْ منّا نحن الإثنين، يَعْجب للحزم الذي رشحت به. فسمير جعجع لا يحب أن يوجه اليه الكلام على هذا النحو. وسرعان ما قبض تشنج الغضب على فَكَّيْه، فيما استبد السُّخط بنبرة صوته، اذ قاطعني قائلاً:

ـ ماذا تحسبين؟ أَوَ تظنين أنّ لدي ما يكفي من الوقت لمراقبة وملاحقة الجميع، ومتابعة كل الأمور عن كثب.

بهذا الكلام يبرر نفسه؛ ولا يلبث أن يُفْهِمَني أنه ملزَم باتخاذ قرارات صعبة، قائلاً:

ـ لا نستطيع مواجهة التهديدات دون حفظ الأمن والنظام.

أقرأ في عينيه شعوراً بالسلطة الوقحة التي تقتات من نفسها. ما من شيء ينبغي عليه بعد الآن أن يقف في طريقه ولا أن يحول دون ارتقائه. فهو يدافع عن حقيقته، وأفعاله، وكل حقيقة لا تمت إلى تلك التي يؤمن بها، بصلة، كَسَحَها على الفور. لقد اختفى فِكر تيلار دو شاردان (Teilhard de chardin). طار!

طوال أربعين يوماً، أواصل زياراتي المنتظمة إلى السجناء، حاملة لهم ما يرسله لهم أهلهم من أغراض. أرتّب زيارة طبيب يتولى فحصهم ومعالجتهم؛ ولا ألبث أن أشعر بالراحة في معيتهم، إذ أجد قربهم القليل من السلام الذي أفتقر إليه في الخارج. وفي كل مرة أزورهم فيها، تبدو لي حالهم أكثر عبثية. فأنا أشهد على انهيارهم.

أفكر جدياً بمغادرة القوات اللبنانية، ولكنني استمر في ارتياد مكتبي كل يوم، والضيق يقبض على صدري. فتلك هي الوسيلة الوحيدة لمواصلة مساعدتهم. وفي المكتب، أجتنب الكلام، فلا أدلي برأي ولا أعلق على الأحداث، فيما يَسْعَد الكثيرون من حولي لوجودهم في عداد المنتصرين. كل المقرَّبين من إيلي وفؤاد باتوا خَوَنَة بالقوة، وهم يَخْشون أن ترفع أسماؤهم على لائحة المشتَبَه بهم. فالسلطة الجديدة القائمة تُبْعِد، وتلاحق وتعاقب كل مَنْ لم يقِف في صفها، ومن لم يُشْهِر بإخلاصه لها. والذين كانوا يدَّعون أمس، بكثير من الفخر والاعتزاز، انتماءهم إلى المقاومة المسيحية، باتوا اليوم يلزمون الصمت، فلا يجرؤون على الاعتراض على ما يجري حولهم من الفظائع، بل إنهم يصبحون الأعداء الجدد، الذين يفوقون خطراً أعداء الماضي من فلسطينيين، وسوريين، ولبنانيين مسلمين. وبهذا يسود الخوف والحقد كل مكان في «بيتنا».

وَسط هذا الانحطاط، يستقر الشك نهائياً في خاطري، في وقت تضفي عليّ زياراتي المنتظمة للسجن، صبغة مَنْ بدت رومنطيقية مثالية في نواياها وأفعالها ومقاصدها. فإذا بنادرْ يكرر على مسامعي كلما سنحت له الفرصة لذلك: «لا مشاعر في الحرب، وإنما توازن قِوى».

وهكذا، بدأتُ جدياً بإعادة النظر في التزامي، أما كُنْت أكرر طِوال تلك السنوات أفكاراً جاهزة، مُنَمَّطة؟ هل لا يزال

الأمر يتعلق بالمقاومة المسيحية؟ أتِلك هي الطريقة الفُضلى للدفاع عن الشعب المسيحي؟ ألسنا بصدد الإلقاء بمصيرنا بين أيدي حفنة من الوصوليين الذين يدَّعون الكلام والعمل باسْمِنا؟ كيف يسعني أن أُبقي على إيماني بهذه القضية دون أن أخجل من تلك الوجوه المُنكل بها؟ إلى ماذا آلتْ إليه قِيم المسيح، في المسيحية التي نَنْبَري للدفاع عنها؟ فنحن اسْتَولينا على صَليبه لنُحَوِله إلى صليب من حديد، إلى خنجر. إنّ العقائديين ممن لم يَنْضجوا بعد من شبابنا، أرادوا أن يصنعوا لنا مصيرَ شعب وقدر دولة على قياسهم. لقد فسَّرنا الإنجيل بما يتلاءم مع قناعاتنا. لقد استطعنا أن نجعل من المسيح ناطقاً باسمنا: «لتكن مشيئتك على الأرض كما في السماء». وبكلماتنا، وأفكارنا، جعلنا الدماء تسيل. إنني ألوم نفسي أشدَّ اللوم لأنني اتَّبعت تلك الأفكار بسذاجة، ولم أتبين ماهية الأفعال الحقيقية. لم أعد أعترف بأي من المبادىء التي شكلت قضيتي حتى الآن. فالتحليلات والبراهين والهيكليات الفكرية العقائدية القَطْعِية التي تَدَّعي ارتكازها إلى المنطق، ما عادت تفيد في شيء.

أفكر بكَيْروز، ذاك الشاب البالغ خمسة وعشرين عاماً والمولج بنشر أيديولوجية سمير جعجع. في إحدى سهراتنا، أطلق العَنَان لمباحِثِه الطويلة حول الفلسفة المسيحية، مستفيضاً في استعمال الجمل الطويلة المرصّعة ببعض من أسماء الفلاسفة، فأخذ يستشهد بكل من هيغل (Hegel)

وسبينوزا (Spinoza) لدرجة لا يفطن معها سامعه أنه بالكاد بلغ الخامسة والعشرين من عمره. فنظّارتاه المستديرتان، ورأسه الصغير، وقامته القصيرة ولحيته الفتِيّة، كل شيء فيه يوحي بأنه صبي خجول، ولا ألبث أن أدرك مقدار خطأي عندما اعتمدتُ شاباً بهذه السن، مَرْجِعاً أرْكُنُ إليه. فتَحْتَ مظهره الهادىء المتَّزِن، وخلف وجهه الطفولي، يختبىء ثوري صلب عنيد، وصاحب عقيدة لا يحيد عنها قيْد أنْمُلَة، فكيروز يدافع عن عقيدة مسيحية متجذرة في الماركسية التي يَسْتَلْهِمها.

ما أراه في هذا السجن ليس ولا شك أفظع مما يجري كل يوم، منذ بداية الحرب؛ ولكنني كنت أجهل هذا العنف الذي أشهده الآن. فهذا السجن يضعني وجهاً لوجه مع فظاعة الحرب.

«قذَفْنَا بهم إلى البحر»

في نيسان/ أبريل من العام 1986، أُطلق سراح بعض من الموالين لإيلي حبيقة، بعد أن ٱبْتُلُوا بأربعين يوماً من الألم أمضوها في السجن. وبعد بضعة أشهر، في صبيحة السابع والعشرين من أيلول/ سبتمبر من العام عينه، حاول إيلي حبيقة، أن يعود بالقوة. وخلال ساعات، تمكن رجاله من احتلال عدد من المواقع الأساسية في قلب الأشرفية؛ فما كان من الجيش اللبناني إلّا أن حشد جنوده، مما اضطر إيلي حبيقة إلى إصدار أمر بالإنسحاب إلى عناصره. كانت معركة قصيرة الأمد، ولكن رهيبة، إذ سارع رجال جعجع إلى تَمْشيط المنطقة شبراً شبراً، وانصرفوا إلى ملاحقة المهاجمين. وإذ أَلْقَوْا القبض على البعض منهم، أَرْدوهم على الفور قبل أن يقوموا بشد وِثاقهم إلى سيارة انطلقت تجرّهم في شوارع الأشرفية، ليكونوا عِبْرة لمن لم يَعْتَبِر بعد. وكان من شأن بعض السجناء الذين أطلق سراحهم مؤخراً أن عادوا فاختفوا من جديد، فيما قَبَعْتُ أترقَّب أخبارَهم، بقلب ثقيل.

«أثْقَلْناهم وقَذَفْنا بهم»؛ هذا ما كان يَتَبَجّح به أحد الحراس

الشخصيين أمام أصدقائه في مكتبي. كان يتحدث بحرية وثقة مَنْ اطمأن إلى أنه لن يلقى عِقاب أفعاله مهما حصل. وهو لم يتوان في تهنئة نفسه على إتمام مهمته دون أن يترك أي أثر، أو يَمْهُرَ فِعْله بأي توقيع، يمكن أن يُسْتَدَلَّ بأي منهما إلى هويته. ولكن ما الذي عناه حقاً ذلك الشاب عندما قال «قذفنا بهم»؟ ولماذا تحدث عن «الوزن» و «الثِقْل»؟

أدْخَلَت كلماته هذه الصقيع إلى دمي، فراحت صور الفظاعة تتدفّق في رأسي. حاولت جاهدة أن لا أُظهر ما أشعر به، ولكن شيئاً ما كان يقبض على صدري. فبدأت أتَخَيَّل المشهد. بدأت أدرك ما حدث لقد اقتادوهم إلى شاطىء البحر، وقاموا بقتلهم، قبل أن يُوْثِقوا أقدامهم بالأوزان، ويُلْقون بهم في الماء. شعرت بالغثيان، وبافتقار رئَتَيَّ إلى الهواء. كدت أختنق. وددت لو أغادر المكتب، لو أهرب. ولكن لا، امتنعت عن أية ردة فعل، ولزِمت الصمت والهدوء، علَّني أعلم بالتفصيل ما جرى لهم. لقد انتزعوا كلاً منهم من فراشه ليلاً، وقاموا بتصفيتهم واحداً واحداً. لبنان، كان واحداً مِن هؤلاء الذين قَضَوْا حينها. لن يتمكن أحد من العثور عليهم أبداً، فأجسادهم اهترأت تحت الماء، في غياهب اليَمّ. شعرت بحاجتي الملحة إلى هواء أتنشقه. وددت لو أصرخ في وجههم: «يا مجرمين». ولكنني سرعان ما ابتلعت غضبي. فما الفائدة منه الآن؟ أكان ذلك جبناً، وتخاذلاً وصمتاً أمام الفظاعة؟ سأظل ألوم نفسي ما حييت

على عجزها، وتقاعسها لأنّ يوم ذاك لم آت بأية ردة فعل، بل أحسست بضرورة المغادرة والعودة إلى منزلي. فلَمَمْت أغراضي، وأمْسَكت بحقيبة يدي، ومشيت، ألقي التحية على من أَلْتقيه في الطريق، كما لو كانت الحياة طبيعية لا تشوبها شائبة. تلك كانت الحرب، وفيها استوت الفظاعة بالتفاهة، والرأفة بالضعف.

خلال اليومين التاليين، قبعت حبيسةً في منزلي، لا أغادره، وفي خاطري صورة واحدة. «لقد أَثقلناهم وقذفنا بهم». كنت كمن أصيبت بالشلل، إذ خارت قواي، وتلاشت طاقتي. وبعد بضعة أيام، علمت أن مسلحين اقتحموا فجراً منزل المصري. واقتادوه معهم. وسرعان ما وُجِدت جثته مرمية في البرّية. فبالنسبة إلى رجال جعجع، هدفت تلك الاعتقالات إلى حَثّ رجال حبيقة على الانفصال عنه. أما العائلات. فلم تأتِ بأي اعتراض؛ فهالني خضوعها الذي لم أفهمه. ولكن ممن كانت ستطلب العدالة؟ فهي لا تنتمي إلى ذلك المحيط المؤثّر الذي آسْتَأْثَر أصحابه بالحقوق، فأجازوا لنفسهم تقرير مصير البشر، ينزلون الموت بمن يشاؤون، ويُحْيون من يشاؤون.

بعد بضعة أيام، استوثقني شاب مقرب من سمير جعجع سراً، إذ قال لي: «إنّ الإبقاء على رجال قيد الاعتقال في السجن أمر فيه إحراج. أما الجثة، فهي لا تحمل توقيعاً». في تلك اللحظة، أدركت أنني ما عُدت أنتمي إطلاقاً إلى هذا

العالم، وأني ما عدت أريد السكوت على ما يحدث. شعرت بضرورة أن أقف، وأعترض، وأتكلم.

عزمت على لقاء أعلى سلطة دينية مارونية، البطريرك، بشخصه؛ فتدبَّر لي الأخ مارون، وقد كان راهباً شاباً، موعداً مع صاحب الغِبطة.

وبمعية الأخ مارون، ذهبت إلى حضرة البطريرك الماروني، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق. وجب علينا اجتياز قاعة فسيحة طويلة بيضاء اللون، اقتصر أثاثها على مقاعد حمراء اصطفت على طول الجدران، وسادها صمت كهنوتي. وفي وسط القاعة، كان البطريرك يجلس على مقعد أكثر ضخامة من المقاعد الأخرى. كان قلبي يخفق لدرجة ارتجَّ لخَفَقاتِه صَدْغَاي.

«إنني أصغي إليكِ».

قطع بكلماته هذه صمت تلك القاعة المتّسعة؛ فشعرت بنفسي وكأنني على كرسي الإعتراف، مع أنني لم آتِ الصرحَ لاعترف بخطاياي همساً، وإنما لأرفع الصوت عالياً فأنبئ به عن الجرائم التي كانت ترْتكب بحق الآخرين. وبصوت مرتجف، رحت أسرد ما حلَّ بالمخطوفين، وبالأجساد التي أُثْقِلَت قبل أن تُقْذَفَ في مياه البحر. ولكن وجه البطريرك ظلَّ خالياً من أي تعبير. ومع ذلك، واصَلْت سَرْدي للوقائع والفظائع، والانطباع يَتَكَوَّن لَدَيَّ باختناق كلماتي في هذا

المكان البارد كما الصقيع. واسْتَتْبَعَ كلامي صمت طويل. وللحظات قَبَعْت في جو بات ثقيلاً، ولكنني لم ألبث أن أدركت ضرورة أن أَسْتأْذِن غِبطَتَه بالانصراف.

كم كنت أود لو يقول شيئاً. كنت أنتظر منه إدانة، أو على الأقل انزعاجاً... ولكنه لم يقل لي شيئاً، فالكلام ما عاد يكفي. إنهم لا يسمعون؛ لقد نال الصَّمم منهم جميعاً. إذ ذاك تيقَّنت أنّ ما من أحد أستطيع الاعتماد عليه فانهارت آمالي وأوهامي، يوم أدركت أنّ الحقيقة هي تلك الكامنة في هذا الكابوس.

وبعد الاضطراب والقلق وخيبة الأمل، إسْتَوْطنني الغضب. ما عدت أستطيع العيش مكتوفة اليدين لأشهد اغتصاب كرامات الرجال المحيطين بي. فلأجل كرامتهم، ولأجل كرامتي هي الأخرى، قررت التَّخلي عن كل شيء. وكان هذا قراراً لا رجوع عنه.

عيد ميلاد في السجن

لا يتأثر أحد باستقالتي من القوات اللبنانية، وما مِنْ أحد في محيط سمير جعجع يُظهر ليَ دَعْمه. وفي الأيام التالية، أحاول أن أَخْلُوَ بنفسي، فأتبيَّن ما يدور فيها، بدل أن أسعى إلى التأثير في مجرى الأحداث بأي ثمن. فأقرر أن أمضي ميلاد العام 1986 برفقة السجناء الذين لا يزالون قيد الاعتقال.

لم يتردد الأب يوحنا خَوَنْد، وهو راهب من الرهبانية اللبنانية المارونية، في الموافقة على مرافقتي إلى السجن، حيث سبق له أن زار السجناء بمعيتي عدة مرات. وجهه هادىء وديع، ووجوده ينشر العزاء والمؤاساة من حوله. في السجن، لا يتوجه أبداً إلى هؤلاء الشبان بكلام يريد به وعظاً أخلاقياً. فهو لا يتكلم إلّا بما قَلَّ ودلّ، ويروح ينظر إليهم بعينَيْه المبتسمتين، وكأنما يحاول بهما أن يُعَبّر لهم عن إدراكه لكل عذاباتهم. ولكنَّ أفضل ما يفعله الأب خوند هو الإصغاء إليهم، فيبدو وكأن جسده المحْدودِب برمَّتِه يُحِس بكل واحد من الآلام التي يكابدونها. إنها المرة الأولى التي أحضر فيها قُدّاساً منذ وقت طويل. منذ أشهر، لم أقْرب

الصلاة، ولم تطأ قدمايَ الكنيسة، لانشغال ذهني بأمور أخرى، والله لم يَعُد أولَويّة لديّ. وسواء صَلّيت أم لم أُصَلّي، فأنا في الحقيقة بِتُّ أعتقد أنّ الله القادر القدير، والدائم الوجود، قد تخلّى عنا؛ فهو لم يَعُد هنا. أما الجحيم، الذي كانت الراهبات الطيبات تُسْهِبْنَ في وصفه على مسامعنا، فأنا ما عُدت أخشاه. إنه هنا، ماثل أمام عيْنَيّ.

في كل زيارة، وقبل أن نغادر الشبّان في السجن، يبادر الأب خَوَنْد إلى الغناء كما لو أنه يحاول أن يضمّد جراحهم؛ فتنبعث من صوته طاقة منقطعة النظير، ومن عينَيْه طيبة لامتناهية، فيما يشُعُّ وجهه بالنور. ففي هذه الأوقات التي تَشْهَد فيها الحياة على احتقار الإنسان، يواصل الرجال الرجال، كالأب خَوَند، إنقاذ الإنسانية.

عَشية ميلاد العام 1986، يخرج السجناء فرداً فرداً إلى الرواق الضّيق. لقد تَقَلّص عددهم، فباتوا عشرة تقريباً. يبدو بعضهم أكثر تعباً من بعضهم الآخر، فيما تُخفي لِحاهم الخفيفة، الشحوب الذي نال من وجوههم. يقترب الراهب، ويشدّ على يد كل منهم طويلاً. وبدوري أشدُّ على أيديهم. إنّ يديَّ ترتجفان برداً وخجلاً. ثم، يجلس الأب خَوَنْد القرْفُصَاء، وقد أسْنَدَ ظهره إلى حائط الرواق. جميعهم يُقَرْفِصون مثله، وقد اصطفوا إلى جانِبَي الرواق، مُلْتصِقين

بالحائط، فيما يُبقي أحدُ السجناء على مسافة بينه وبين الآخرين، إلى الخلْف قليلاً. يحدقون جميعهم بالراهب، وكأنهم ينتظرون منه أن يتفوّه بكلمة، بكلمة تولّد الأمل في نفوسهم، بكلمة تُشَجّعهم على التمسُّك بالحياة. ولكن عوض أن يتكلم، يقوم الأب خَوَند بالغناء. فإذا بأغانيه، المسْتَلْهَمة من ألحاننا التراثية اللبنانية، تُدخِل، لبساطتها، الطّيب إلى قلوبنا. وفي غضون ثوان، يُحوّل صوتُه السجن، ويشق فيه طريقاً إلى الخارج، فيحررهم من هذه الحفرة التي يقبعون فيها، وكأنه أشاع في الأجواء نسمة حبلى بالمحبة، لامست أجسادهم برفق، فاخترقتها ومسّت أرواحهم، لتفيض عيونهم دمعاً. نشعر وكأن صوته اخْتَطَفَنا، فَنُبْقي على صمتنا لوقت طويل، لا نتفوه بكلمة ولا نأتي بحركة، خشية أن نخنق تَذَبْذُبَ صوته الذي يَهبِط بلطف كما الريشة وقد تهادى بها النسيم، فحَطَّ بها على مهل على العشب الأخضر الطري.

ثم يرتفع صوت آخر. يا إلهي، كم هذا الصوت جميل! إنه صوت الشاب الذي استند إلى الحائط، عازلاً نفسه قليلاً عن المجموعة. إنه فلسطيني؛ وهو، للهجته، ما أدركه على الفور. أرفع عَيْنَيّ اللتين أبقيت على انخفاضهما حتى الآن، خِشْيَة أن تَلْتَقِيا بعيون هؤلاء الرجال التي رَطَّبها الدمع، فأجد أنّ الزرقة حول عيْنَيْه، لم تَمسْ نَظْرته الفخورة بِكُمْدَة، كما لو أنّ السجن لم يَقْوَ على قَهْر تَمرّد الكرامة فيه. يخترق صوته القضبان، وفضاء المكان، والحدود. يبدو وكأنه يأتي

من البعيد، نابعاً من وطنه الأم، حيث وُلِد لأمه التي لأجلها يُنشد أغنيته، صادحاً «يا ماما»، فَتُشبه صرخته تلكَ التي نُطْلِقها عندنا، عندما نكابد الألم والضيق والخوف. فإذا بكل الشبان من حوله يتأوَّهون تَحَسُّراً، في لحظة من الخلود، توقَّف انسياب الزمن عند تخومها، لتمتص كل شيء: الحنين، والتَوْق إلى الأفق الرحيب، والاشتياق الكئيب إلى الحب، والأحلام، والآلام. إنها لحظة فريدة كتلكَ التي يعيشُها المرءُ مرة واحدة في حياته كلها، والتي تملأ حياةً بكاملها ذِخْراً. واذا بهذه اللحظة توقِظ ضميري كشعاع شمس جاء يضيء اللجَّة المدْلَهِمَّة. لحظة من السكينة القاهِرَة لكل ما يحولُ دونها. فأُغمض عَيْنَيَّ لأُجِيزَ لهذا الصوت اخْتِراقي، فيحمل روحي إلى الخارج، بعيداً، إلى بستان الزيتون، حيث أرى وجه والدي البهيّ في ضياء الصباح، وقد جلس في ظل شجرة بمحاذاة قفص حسونه «عنتر»، ذلك الحَسُّون الذي كان يَجِد برِفقته سَعادة القناعة، وهناء البساطة في ارتشافة قهوته، وقد سَرَح بناظِرَيْه في فضاء الزرقاء يَرْقُب فيه مرور حساسين أخرى، إذ كان والدي يَطْرَب للأصوات الجميلة. وهكذا يَحِلُّ السلام بيننا، نحن القابعين في رواق السجن عشية الميلاد، فلا يعود السجن سجناً.

وعندما يتوقف هذا الفلسطيني الشاب عن الغناء، يتواصل تَذَبْذُب صوته لوقت طويل، قبل أن يعود الصمت ليُرخي بثقله في المكان.

مَرَّت سنوات عشرون، اعتقدت خلالها أنني نسيت ذلك الصوت، أنني نجحت في الانفصال عن الماضي. أمضيت كل تلك السنوات، أجْهَدُ في التطلع إلى الغَد، فأنظر على الدّوام إلى الأمام. ولكن الحفرة تزداد تَجَوُّفاً وعمقاً في نفسي، فَيُفْرِغُني الصمت على مهل. ما من صوت أو صَخَب نجح في إخماد جُذْوَة تلك الذكرى، ذكرى ليلة الرابع والعشرين من شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام 1986، التي أمضيتها في سجن مرتجل، في مكان ما من بيروت الثَّكْلى بناسِها وكرامتها. فعند كل أزمة، عند كل كآبة تَحِلّ بي، يعود ماضيَّ لِيَثِبَ من غياهب الذاكرة، فيحُطّ حَطّاً عنيفاً في حاضري.

اليوم أكتب لأجلك أيضاً أيها الفلسطيني. فأنا لا أعرف إسمك ولا السبب الذي لأجله اعْتُقِلت. ولكنني أحِس أنني أعرفك فأَبكيك بقدر ما أَبكي لبنان، وإيلي، وجوزيف والآخرين. في الماضي، لم أكن أبكي إلّا أبناء مِلَّتي، إذ لم يكن وجود لك في نظري. لم تكن حياتك لتعني لي شيئاً وهي لم تدخل أبداً في حِسباني. مع أنك كنت هنا، وكان على وجودك أن يَفْقَأَ عَيْنَيّ فأراك، ولكنني كنت أبحث في مكان آخر. أما اليوم، فأنت الصوت الذي أيقظني. صوتك انساب على جراحي، فحمل إليها الطّيب والطبِّ. كان عليَّ أن أمُرَّ في ذلك السجن لأراك، لأبكي الإنسان الذين قتلوه فيك. لم أَرَكَ مرة أخرى، فأنا لم أعد أبداً إلى ذلك السجن

بعد تلك الليلة التي كان لوجداني فيها يَقْظَة. وأنت لم تخرج أبداً من تلك الحفرة، شأنك في ذلك شأن الكثيرين من رفاق سجنك. قيل لي إنهم أَرْدَوك قبل مغادرة المكان. أطلبُ منك أن تُسامحني. إغْفِر لي، لأنني لم أستطع تحريرك. إغفِر لي لأنني لم أستطع إنقاذك. فأنت من حرَّرني من حِقدي، أنت من أخرجني نهائياً من الحرب. دخل بي إخوتك الفلسطينيون إلى سجن الحرب، وأنت، فلسطيني في السجن، أَخرجْتَني منه.

أدرك اليوم أنّ الذين حاولوا سَلبك كرامتك، فقدوا كرامتهم، إذ حَلَّت بهم لَعنةٌ غاصَت بهم في غياهِب الحياة، فحملتهم إلى الجهة الأخرى منها، حيث لا معنى للحياة، حيث الحياة عاقر وصَمَّاء، حيث الحياة وَهْم، وزَهْو، وخُيلاء وإبهام.

أنتَ، يا صديقي، يا رجلاً ما عَرَفت اسمَه، يا شادياً في حفرة، أنتَ مَنْ حَمَلني بصوتِه وشَدوه، إلى حيث أنا الآن، أرى بعكس ما كُنت أرى، أَحْيا بعكس ما كنت أَحْيا؛ فصوتك يدوّي في نفسي، بصدى ماثَلَ قوةَ صَدَى صليب ذلك الرجل، الذي وُلِد في قَعْرِ زريبة قامت على أرضِك، في ليلة من ليالي كانون الأول/ديسمبر. فطوال الحرب، أقْفَلْنا على المسيح، في عقيدة، وارْتَضَيْنا العنف الذي نَهَانا عنه، فلم ندرك أنّ من ارْتَضَى العنف مرة، ارْتضاه ألف مرة، واندمج في صُلْب كل وجوهه. صوتك المخملي وصليبه الخشبي أماتا

فيّ كل أنواع العنف، وصَرَعا كل الأحقاد. وإذا قطع صوتُك الشجِيّ صمتي وبَدَّدَه، أدرك اليوم أنني لو لم أسمعك تغني لما سَمِعتُ صوت الإنسان؛ أدرك اليوم، أنني لو لم أشهد عذابك وبكاءك، لما فَهِمتُ أنّ الضَّياع لم يَنَل من كُليتَي، وأنني استَبْقَيْتُ لي نَفْحَةً من إنسانيةٍ كنت أَجْهَلُها. بصوتك وصليبه، فهمت كيف تجترح المحبةُ الأعاجيب.

لقد أسكتوا صوتك ذاك، بعيداً عن أرضك، بعيداً عن أمك، أنت الرجل الذي غنّى أمه في قعر حفرة. وأنا اليوم، أرفض أن أُسْكِتَ صوتك بصمتي مرة جديدة، وإنما أريد أن أحمله بعيداً، عالياً، لأصل به إلى مسامِع أمِك التي لا تزال تنتظرك، فتصغي إليه، وتجدك، وتبكيك.

بعد بضعة أشهر على خروجه من السجن، قطع غسان خطوط التماس خِلسة، لينضم إلى أهله في زحلة.

الأب يوحنا خَوَند، «الراهب الذي يغني»، كما يسمونه، اختار التخليّ عن الحياة بصحبة البشر، مفضلاً عليها الانعزال عن العالم لينصرف إلى النُّسك والتوَحُّد في مكان ما من جبل لبنان، حيث يكرّس صوته للصلاة.

أما أنا، فبعد ليلة الميلاد تلك، قررت أن أذهب بعيداً، فغادرت لبنان لأجد لي مُستقراً في فرنسا، «أُمّنا الحنون»، كما كانت تقول جدتي. وبعد أشهر على وصولي إلى مَنْفايَ الاختياري ذلك، أنزل سمير جعجع حكم الإعدام بشابين

مسيحيين من شباب القوات اللبنانية، في جو من الجَلَبَة والصَّخب لكي يَسمع كل مَنْ به صَمَمُ، إذ وجدت «المحكمة العسكرية» فيهما خائِنَيْن، على خلفية تعاملهما مع كل من إيلي حبيقة وسوريا.

مرّت سنوات عشرون، ابتعدت خلالها، إلى أن وَقَعْت، لدى زيارتي لأمي، على ورقة النَّعْي تلك، الملصقة على باب الكنيسة المشَبَّك. تلك كانت ورقة تنعي أم لبنان. كان الموت قد رحل بها، بعد أن فتك بها السَّرطان ونخر عِظامَها. فأدْرَكت أنني استطيع الآن أن أقول ما ينبغي عليَّ قوله، وما أبقيت عليه طيّ الكتمان طوال كل تلك السنوات. فهي لم تَعُد تنتظر عودة لبنان.

وهكذا قررت أن أكتب. لأجلها، لأجلكم، فأنا أدين لكم بالكثير الكثير. أكتب عَلَّني أُعيدكم إلى الأرض التي وَدَدْتُم لو تَرْقُدون فيها إلى الأبد. أكتب، عَلَّ غناءك، غناء الكرامة، يَعْبُر من خلال قلمي إلى الحياة، فيعلو فيها وبها من جديد.

... وبعد

إنه الثاني عشر من تموز/ يوليو من العام 2006. منذ ثلاثة أيام، وَصَلْتُ لبنانَ بمعية وَلَدي لقضاء فصل الصيف، وحيث تتحضر عائلتي بفرح للإحتفال بذكرى ميلاده الثامن عشر. حشود من الذين يَتَشوقون للتنعم بالعطلة الصيفية ومن السوّاح يتوافدون يومياً إلى البلاد. فالفنادق محجوزة برمَّتها، ويُتَوقع لفصل الصيف هذا أن يكون فصلاً سياحياً قياسياً بامتياز. وفيما انصرفت الأجساد الكثيرة البياض إلى لقاء الشمس على الشاطىء، لتخرج منه مسمرَّة البشرة، عَبَقَت الشوارع الخاصة بالرجَّالة في وسط بيروت، بعطر النراجيل الحلو المذاق. ولا زلنا نحلل ضربة رأس زين الدين زيدان، في نِهائيات كأس العالم.

فجأة، ودون سابق إنذار، يُلقي حزب الله القبض على جنديَيْن إسرائيليين ويقتل ثمانية آخرين داخل فلسطين المحتلة قرب الحدود اللبنانية. ولا يطول الأمر بإسرائيل حتى ترد بعنف. فخلال ثماني وأربعين ساعة، تحوّل كل من الجنوب اللبناني، وضاحية بيروت الجنوبية إلى مَصَبّ لنيران طيرانها الحربي، ومدفعيتها البرية وتلك الخاصة ببحريتها. ولا يلبث

أن يطال القصف مطار بيروت الدولي. فالدولة العبرية تفرض على لبنان حصاراً جوياً وبرياً وبحرياً.

تعلو صرخات الذعر، ويبحث الناس عن ملاجىء يلوذون بها، عَلَّهم ينجون من الموت. ها نحن عُدنا من جديد! تلك هي المرة الأولى، التي يسمع فيها ابني جَلَبَة الحرب. أما أنا، فأعرفها جيداً. ألم أخُض الحرب؟ بلى، طبعاً؛ ولهذا أرفض وبكل كياني، أن يُضْطَر ولدي إلى عيشها، وهو وكل أبناء جيله. لقد وُلِد فادي في فرنسا، بعد سنة على رحيلي عن لبنان، ولم أخبره شيئاً عن الحرب طوال كل تلك السنوات. تلك الحرب كانت حربي، وهي بدت لي بعيدة جداً. ولكنها اليوم، تعود، لتصبح قريبة مني.

إنه الرابع عشر من تموز/ يوليو. بيروت تَضْطَلي بنيران القذائف التي تُقْصَف بها. طوال السنوات العشرين التي قضيتها في فرنسا، ما تخلَّيتُ يوماً عن كراهيتي للرابع عشر من تموز/ يوليو. فأنا لا أطيق العروض العسكرية، ولا صفير القذائف، ولا فرقعة الألعاب النارية. وفيما المشاهدون يراقبون فرحين جذلين سماء باريس التي تشع أنواراً، أجد ليَ زاوية أنكَمِش فيها على نفسي خجِلَة، وأَصُمُّ أُذُنيَّ.

وفي الرابع عشر من تموز/ يوليو، هذا الذي تستفيق بيروت على جَلَبَتِه، يعلن حسن نصرالله، أمين عام حزب الله، أنّ الصراع الحالي هو «أشرف معارك العصر الحديث، بل أشرف معارك التاريخ». ويضيف قائلاً: «أَرَدْتموها حرباً

مفتوحة، فلتكن حرباً مفتوحة؛ نحن جاهزين لها؛ فلتكن حرباً شاملة، حتى حيفا، وصدّقوني، إلى ما بعد حيفا، وإلى ما بعد بعد حيفا».

وفيما أصغي إلى هذا الخطاب، أتنبه إلى أمر يفرض نفسه عليّ بجلاء يثير فيّ الرعب. لقد لازمني الخوف على الدوام! لقد اعتقدت أنني نجحتُ في اختزان ما يكفي من التجارب لأنْجُوَ بنفسيَ منه. أنا التي ادَّعيت انتمائي إلى الكَوْنِيَّة الشمولية، والأَنَسِيّة، وجاهرت بشغفي بأنوار القرن الثامن عشر، أجد نفسي اليوم فريسة للشكوك والمخاوف التي تنقَضّ عليّ، فتعيد إلى ذاكرتي تلك التي كابَدْتُها منذ ثلاثين عاماً؛ فأشعرُ وكأنني أدخل فصلاً جديداً من التاريخ عينه.

إن حرب الكلمات تَسْتَعِر. ففي رحاب الكنيست الإسرائيلي، يردّ رئيس مجلس وزراء الدولة العبرية، إيهود أولمرت على تصريح نصرالله، مُهدداً متوعداً: «إذا أُطلقت الصواريخ ضد مواطنينا ومدننا، فسيكون جوابنا الحرب، بكل القوة، والعزم، والشجاعة، وروح التضحية، والبذل المِعطاء الذين امتازت بهم هذه الأمة».

لقد نَشَأْتُ في الحرب، وتَلَقَّيتُ معارفي في ساحاتها وعلى جبهاتها. فأنا أمتلك بيانها ومفرداتها المحضّرة بنفس المقادير: جُرْعة جيدة من القُدْسي المحرَّم، حَفنة من تراب صالح للاحتلال، مِلء مِجْرَفة من الخوف، وورقة من الريحان الذي يُتَوَّجُ به المحاربون المنتصرون. هذا ما حُمِلَت كل

الجيوش على الاقْتِتَات به. لقد اكتسَبْتُ المهارات الضرورية لصناعة الخُطَب التي تستطيع أن تقدم التبرير لأي حرب، في صياغة أسلوبية لا تشوبها شائبة: نحن ندافع عن أنفسنا؛ الضعفاء في مواجهة الأقوياء؛ المضطهدون المظلومون ضد الطغاة الظالمين؛ أنتم تهاجمون وتَتَعَدُّون والبادىء أظلم. الله بالله؛ أمة ضِدَّ شعب؛ الأرض بالأرض؛ والعين بالعين، والسنّ بالسنّ.

لبنان فريسة للحرق والقتل. من المسؤول؟ يُلحّون علي بتسمية المذنِب، فيقولون: إختاري صَفَّك. لا يَسَعُك أن تقبعي في الوسط. ففي الجسر حيث تقفين ركاكة وهشاشة. وفي هذه الحرب، كل الجسور مستهدفة. فتحركي.

لا، لن أختار، ولن أتحرك، بل دعوني بدلاً من ذلك كله أصرخ في وجه الحرب «توقفي». فأنا خضت الحرب. أنا كنت الحرب. أستطيع أن أسمع وأفهم غضبكم ضد الظلم. أستطيع أن أحِسَّ بخوفكم. فأنا عرفت الظلم والخوف عن قرب، ولكنني ما عُدْت أستعمل نفس الكلمات.

تتحدثون عن انتصار عسكري، عن تاريخ سيحمل عاراً. «شهداؤكم» ضحايا. إن ما تجدون فيه «قِتالاً مشروعاً» ليس إلا حرباً تهديمية تدميرية، و «الإرادة الإلهية» ليست إلا انعكاساً لخوفكم اللامحدود الذي لا سيطرة لكم عليه. إنّ من تُطْلِقون عليه إسم «العدو» ليس، وبكل بساطة، إلّا مرآة لكم.

في جنوب لبنان، تَرْتَسِم جبهات جديدة، حيث يقف مقاتلون خرجوا لتوّهم من المدارس العقائدية وحملوا السلاح والعَتَاد، في مواجهة بعضهم البعض، مؤمنين إيماناً راسخاً كما الصَّلْب بمَشْروعية وصَوابية حربهم. إنهم «شعب الله المختار»، إنهم «المصْطَفُون الأبرار»، ولكل من «المختَارين» و «المصْطَفين»، «حق في الجنة ونجاة من النار»؛ فليتقاتلوا إذن دون هوادة.

أنتم، يا مَنْ تقاتلون في ساحات الوغى وعلى الجبهات، وقد خَبَطتم الأرض بأقدامكم خَبْطاً هدّاراً منتصِراً، واشتقتم إلى الموت، ففرحتم بلقائه اسْتِشْهاداً واسْتِبْسالاً، إسمعوني. سيمشي آخرون على خطاكم، توّاقين سعيدين بالانتقام لكم. سيرث أولادُكم الحِقدَ في المهد، ويعملون بدورهم على نقله من السلَف إلى الخَلَف.

أعلم أنّ في الإصغاء صعوبة، عندما يُثْقِل السلاحُ اليدَ التي تَمْتَشِقُهُ. ولكنكم لا تعلمون ما أنتم فاعِلون. لن تصلوا جِنَّان الخُلْد، ولن تمتلكوا الأرض إلى الأبد، ولن تحصلوا على الأمن والأمان، فتحت أقدامكم، أتى اليباس على آلاف «الشهداء» التّواقين إلى الخلود، والذين سقطوا على مرّ العصور. لم يَنَلوا الخلود، بل كان الخلود من نصيب أحقادهم وحدها. فالحقد يولد من رَحِم الحقد، من رماد الحقد، في تَدفُّق لا يجد الانقطاع إليه سبيلاً. فيستمر لِيُزْهِر في ألف مكان ومكان.

إلى الذين يَتَّهمونكم بالجنون أقول إنه لم يُصِبْكم بِمَسّ، ولا الشيطان استقر فيكم، ولا الألوهية إسْتَوثَقَتكم فاسْتوْدَعَتكُم عِزَّتَها ومكارمَها، ولا أنتم وحوش، ولا أنتم طغاة هَمَجِيون لا تَمُتُّون إلى الحضارة بصِلة. إنكم وبكل بساطة بشر، بشر جعلتم من أنفسكم مَوطِناً للحقد، فاستَقَّر فيها وتوغَّل وضرب الجذور.

منذ أن غادرت لبنان عام 1987، احتفظت في دُرْج بالقلادة التي كنت أَلْبَسُها يَوم كنت مقاتلة. لهذه القلادة قسمان متماثلان؛ ففي حالة الوفاة، تُعْطى العائلة أحدهما. لم أُقْتَل في الحرب، فبقِيَت قلادتي على حالها، واحتفظت بها تخليداً لذكرى كل رِفاقي الذين لم يعودوا من ساحات القِتال. مائة وخمسون ألف لبناني لَقوْا مصرعهم خلال هذه الحرب التي دامت خمسة عشر عاماً. وماذا ربحنا؟

هل يمكن لكل هذا الكَم من الآلام أن يفيد الأجيال القادمة فتتفادى الحرب؟ كنت آمُلُ ذلك. ولا زلت أريد أن آمُلَ ذلك.

غير أنّ الآليات التي رَمَت بنا في أُتون تلك الحرب، لا تزال موجودة. جَهْل الآخر. جهل التاريخ المعقَّد الذي يعود لكل من الطوائف التي يتشكَّل منها وطننا. جهل المخاوف القديمة، الكبيرة، المتجذرة، والتي نتوارثها من السلَف إلى الخلف.

عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، كان لي حُلُم. كنتُ أتوق بشغف إلى اختيار وصناعة حياتي المستقبلية كامرأة. كنت أود أن أصبح صحافية، أفتح عينيّ على العالم فأرى فيه ما لا يراه غيري. ولكن ما إن فَتحْت عَيْنَيّ، حتى صَفَعَتْني الحرب. حَلَّت فوق رؤوسنا فجأة دون أن تُحَذّرنا، فجعلت مني صحافية، تعمل في مجال الترويج الإعلامي، فتنشر المعلومات أو الإشاعات خِدمة أو إيذاءً لشخص أو مؤسسة أو طائفة أو حزب. مع أنّ أهلي فعلوا كل ما في وِسعهم لحمايتنا. فأبي لم يكن ليرفع صوته فيُؤَنِّبني أو يوبّخني، وإنما علَّمني أن أحب الحياة والفكاهة. كنت أنصرف إلى الحلم يحملني إليه صوتُه، وهو يروي لنا سِيَر الملوك والسلاطين وحكايا كليلة ودِمنة. إنني أُدينُ له اليوم بالبساطة الخالصة التي عَلّمني أن أنظرَ من خلال مِنْظارها إلى الحياة.

ومع ذلك، فلقد التحَقْتُ بالحرب. يومها كان لي من العمر ثمانية عشر عاماً، وكنت أعتقد أنني أدافع عن وطني، وأذود عن حيّي وأحمي عائلتي. ولكنهم قدَّموا لنا الحرب على طريقتهم، فعلَّمونا أن نرى فيها الوسيلة الوحيدة للانتصار باسم الدين وباسم الله. كان علينا إما أن نقاتل فندافع عن إيماننا، وإما أن نهرول إلى زوالنا. إما نحن، وإما أعداؤنا. ما مِن خِيار آخر.

إنه الرابع من آب/ أغسطس من العام 2006. أغادر لبنان بصحبة فادي، على متن بارجة فرنسية، تُدعى «المِسْترال».

في الأول من آب/ أغسطس من العام 1986، ركبت البحر قاصِدةً فرنسا، علَّني أُوَفَّق فيها إلى صياغة حياتي من جديد، فأترك في البلاد، ماضيّ ملفوفاً، مستوراً، في عمق زاوية. هل تُراني نسيته؟

يقولون لي: الحرب انتهت. إقْلبي الصفحة، إمحي ما لديكِ من ذكريات. تسَبَّبي لنفسك بفقدان الذاكرة.

باريس. يا للواجهات الجميلة، والجادات العريضة، والحدائق الغَنَّاء، والمقاهي المتناثرة على الأرصفة، ولياليها الساحرة، ومعارف عصر التنوير فيها. فأحيا فيها، وأنسى فيها. فأنا في الرابعة والعشرين من عمري.

أعود إلى الجامعة لأدرس الحرب كما يُشرَّح حيوان: ببرودة كلية؛ إذ لا مكان للمشاعر. أكتب كتاباً عن الحروب المارونية[1]، فأنا أحتاج أن أفهم؛ بدا لي آنذاك أن التصنيف سيساعدني على النسيان.

وفي المساء، عندما كنت أجد نفسي في حَلَقَة مَنْ الْتَفّوا حول عشاء لذيذ، وسكبوا الخمرة فملأوا بها الكؤوس، كنت أسمع أحدهم يسألني:

---

(1) *Guerres maronites, (1900-1975)*, Paris, L'Harmattan, 1995.

ـ الحرب؟ هل عِشْتِها؟

ـ نعم، ثلاثة عشر عاماً.

ولحسن الحظ لم يكن لفضولهم أن يطلب مني الاستفاضة في الشرح؛ فتبقى الشهيَّة على حالها، سليمة. كان ذلك يلائمني، فأنا كنت أحاول أن أنسى. هَلُمَّ إلى التحْلِيَة.

أحاول مع اللبنانيين عدم التحدث عن لبنان:

ـ ماذا تفعلين في باريس؟

ـ أنسى.

ـ أحسنت. بالنسبة إليّ، الحرب خلفي. إنها بعيدة.

أود أن أصْدَقكُم القول. إنّ النسيان صعب، وفي بعض الأحيان، تَسْكُنُني الحرب حتى الهوس. كيف لي أن أغفر لأولئك الذين اسْتَخدموا المخاوِف لإرساء نفوذهم؟ يَتَطَلَّب هذا النوع من الغفران طيبةً تفوق ما في قلبي من طيبة.

يوم غادرت لبنان، ورميت بالحرب بعيداً عني، تخلَّيتُ نهائياً عن ذلك الولاء غير المشروع لطائفتي وحدها دون غيرها من الطوائف. غير أنّ وفائي لرفاقي في القتال والسلاح بقي هو هو، غير قابل للتدمير أو الاندثار. فأنا أواصل رؤيتهم. لم أنقطع عنهم، فأجدهم وقد طبعهم الزمن بآثاره، فتقدَّموا في السن قبل الأوان. وبالرغم من السنوات والمسافات، فلقد بَقِيَت روابِطُنا قوية، تَنْهَل مَتَانَتَها من الغموض الذي يَلفُّ أولئك الذين واجهوا الموت يوماً معاً.

أما الذين رحلوا عنا، فإنهم يَسْتَوْطنون خواطري على

الدوام. عِشْق ثريّا لم يجد له حلاً، فغادرتنا باكراً جداً، في سِن كانت لا تزال فيه جميلة كما القمر. فقد شربل ساقاً، وجورج عَيْناً، وإيلي القدرة على الإفادة من ذراعه التي حَلَّ بها الشلل. ومات كل من إيلي، وإيدي وجوزيف. وأنا أفكر باستمرار بكل الآخرين الذين فقدوا كرامتهم. أما نحن الذين نجحنا في البقاء على قيد الحياة، فلقد أضعنا شيئاً أساسياً، شيئاً يتعلق بإنسانيتنا، أو لعلَّنا لم نفقد شيئاً، بل احتفظنا بكل شيء: جراحَنا، آلامنا، أحلامنا. حاولت جاهدة أن أنساهم، ولكنني ما اسْتَطَعْت إلى النسيان سبيلا.

غَسّان، صاحب الوفاء النادر الذي لا نَقْص فيه، أوْكَل نفسه مهمةَ ملازمةِ عائلات رِفاقنا. فهو لا يترك عيداً أو ميلاداً أو مأتماً يمُرّ، إلّا ويكون مشاركاً فيه إلى جانبهم. إنّ ميله الدائم إلى الدُّعابة يحملك على الاعتقاد أنه يَكْتَنِز قوةً لا اَسْتِطاعَةَ لك على تدميرها. ومع ذلك، فأنا أُدرِك تماماً أنّ الحرب تضرب النباتات الصغيرة الأكثر طراوة، كما الأفعى الخفيفة الرشيقة، التي تختبئ في ليل اللاوعي المنذر بالمخاطر، وتَنْسل بخبث ولؤم المُتكَتّم في أصغر الشُّقوق فينا.

أما جمال، فلقد تمكن من اقتِفاء أثري، إذ أبقى على رقم هاتفي دفيناً في إحدى زوايا ذاكرته، طوال تلك السنوات. وهو اليوم صحافي، يواكب وينقل أخبار أهل الفن والمشاهير.

إنه الثلاثون من تموز/ يوليو 2006. في قانا، وهي بلدة شيعية من الجنوب اللبناني، لَقِي أربعة وخمسون مَدَنِيّاً، من بينهم سبعة وثلاثون طفلاً، مصرَعَهم، وقد سحقهم ردم منزل قَصَفَه الجيش الإسرائيلي.

وفي ظل هذه الفظاعة، يُلحُّون عليّ قائلين:

ـ تحركي، اختاري صفّك.

ـ لقد اخترت نهائياً.

فأنا لن أقدّمَ الدعم لمعسكر الحرب؛ ففيه النقيضان، وكلاهما يحقد على الآخر، لدرجة انتهى بهما الحِقد إلى التماثُل، فبات كل منهما يشبه الآخر.

لن تمرَّ الحرب عبري بعد الآن. فأنا قد أَلقَيْتُ السّلاح نهائياً.

أما أنتَ يا ولدي يا مَنْ تسمع جلبة الحرب للمرة الأولى، وتنتفض على الظلم نُصْرَة للمظلومين، أَطلُب منك أن تعمل، أن تفتح عَيْنَيْك على العالم، أن تحلمُ فللحلم نقيض وهو الحقد. فحاذِر نقيضَ الحلم.

قال غاندي يوماً: «إرمِ سيفك، ولن يتَمكَّن الخوف منك أبداً».

نعم، عندما تخاف من الآخر، عندما تخاف من نفسك، إرم سيفك، واذْحَض سلاح الحرب. وقاتل في سبيل تحقيق

حلمك، ناضل وكافح وقاوم، فالحياة والسلام يستحقان منك ذلك.

والله، ما دوره في كل هذا؟... دَعْه جانباً؛ في جهة من قلبك. فهو محبة؛ فهو عظمة؛ فهو الكبير؛ سيتدبَّر الأمر.

جدول تاريخي للأحداث

25 نيسان/ أبريل 1920: مؤتمر سان ريمو (San Remo) يضع كلاً من لبنان وسوريا تحت الإنتداب الفرنسي.

1 أيلول/ سبتمبر 1920: الجنرال غورو (Gauraud) يعلن إنشاء دولة لبنان ـ الكبير، المنفصل عن سوريا.

24 تموز/ يوليو 1922: منظمة الأمم تؤكد الإنتداب الفرنسي على كل من لبنان وسوريا.

23 أيار/ مايو 1926: على إثر ثورة أوقدها الدّروز، فرنسا تعلن قيام الجمهورية اللبنانية على طِراز الجمهورية الثالثة.

8 حزيران/ يونيو 1941: باسم الجنرال ديغول (De gaulle)، الجنرال كاترو (Catroux) يعلن استقلال كل من لبنان وسوريا.

1943: البرلمان اللبناني يضع حداً لامتيازات الإنتداب الفرنسي. المفوض السامي الفرنسي يوقِف السلطات اللبنانية وكبار القادة الوطنيين الذين يُطلق سراحهم بأمر من الجنرال ديغول في الثاني والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر، الذي يصبح تاريخاً يُحتَفل فيه

بالعيد الوطني. «الميثاق الوطني اللبناني» وهو اتفاق غير مكتوب، أبرمته المتّحدات المسيحية والإسلامية، يؤسس لطائفية سياسية «مؤقتة».

1948: اندلاع الحرب الإسرائيلية ـ العربية.

23 آذار/ مارس 1949. لبنان واسرائيل يوقعان اتفاق الهدنة. تدفق غفير للاجئين الفلسطينيين.

1951: اغتيال رئيس مجلس الوزراء، رياض الصلح. كميل شمعون، الذي عرف عنه أنه حليف للغرب، يصبح رئيساً للجمهورية.

1958: توترات واضطرابات طائفية: الأسطول السادس الأميركي يرسو في المياه الإقليمية اللبنانية في شهر تموز/يوليو. اللواء فؤاد شهاب ينتخب رئيساً للجمهورية، وتنعكس الشهابية تنامياً لدور المسلمين.

3 تشرين الثاني/ نوفمبر 1969: إتفاق القاهرة اللبناني ـ الفلسطيني يكرس حق المقاومة الفلسطينية بالوجود في لبنان.

2 أيار/ مايو 1973: بداية المواجهات بين الجيش اللبناني والقوات الفلسطينية.

13 نيسان 1975: بداية «حرب السنتين» التي وضعت الميليشيات المسيحية وجهاً لوجه مع الإسلاميين التقدميين والفلسطينيين.

8 أيار/ مايو 1976: 6000 جندي سوري يدخلون لبنان.

12 آب/ أغسطس 1976: سقوط مخيم تل الزعتر الفلسطيني.

22 كانون الثاني/ يناير 1976: مجزرة الدامور التي ارتكبتها الميليشيات الفلسطينية خصوصاً بحق السكان المسيحيين.

13 آذار/ مارس 1978: فريق فدائيين من حزب الكتائب يشن عملية على إهدن، قرية الرئيس سليمان فرنجية، لا تلبث أن تتحول إلى مجزرة ذهب ضحيتها حوالى ثلاثين قتيلاً، من بينهم طوني فرنجية وزوجته وابنته.

14 آذار/ مارس ـ 23 حزيران/ يونيو 1978: اسرائيل تجتاح جنوب لبنان.

19 آذار/ مارس 1978: القرار رقم 425 الصادر عن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة يطلب من اسرائيل بسحب قواتها فوراً من الأراضي اللبنانية. إنشاء قوة الفصل الدولية التابعة للأمم المتحدة في جنوبي لبنان (Finul).

7 تموز/ يوليو 1980؛ الكتائب تهاجم وتحتل بيوت حزب الوطنيين الأحرار التابعين لكميل شمعون.

1 نيسان/ أبريل 1981: القوات السورية في قوات الردع العربية تحاصر وتقصف مدينة زحلة البقاعية.

6 حزيران/ يونيو 1982: اسرائيل تجتاح لبنان في عملية حملت اسم «السلام للجليل».

12 حزيران/ يونيو 1982: بداية حصار بيروت على يد «تساحال».

21 آب/ أغسطس 1982: طلائع القوة متعددة الجنسيات تصل بيروت.

23 آب/ أغسطس 1982: بشير الجميّل ينتَخَب رئيساً للجمهورية اللبنانية.

3 أيلول/ سبتمبر 1982: إجلاء الفلسطينيين عن بيروت.

14 أيلول/ سبتمبر 1982: إغتيال بشير الجميّل.

16 ـ 18 أيلول/ سبتمبر 1982، مجازر بحق الفلسطينيين في مُخَيَّمي صبرا وشاتيلا.

3 ـ 23 أيلول/ سبتمبر 1983: انسحاب اسرائيلي من الشوف يتيح المجال لنشوب معركة ضارية بين الميليشيات الدّرزية وتلك المسيحية.

12 آذار/ مارس 1985: انتفاضة في كنف القوات اللبنانية.

26 نيسان/ ابريل 1985: خمس قرى مسيحية في ضاحية صيدا الشرقية تتعرض للهجوم على يد القوات الإسلامية ـ التقدمية.

10 حزيران/ يونيو 1985: انسحاب الجيش الإسرائيلي من لبنان، باستثناء «منطقة الحزام الأمني» في الجنوب.

28 أيلول/ سبتمبر 1985: قادة الميليشيات الثلاث الأكبر في لبنان (القوات اللبنانية، أمل والحزب التقدمي

الإشتراكي) يوقّعون في دمشق على «مشروع اتفاق على حل وطني»، عُرِفَ باسم «الاتفاق الثلاثي».

14 كانون الثاني/ يناير 1986: وحدات القوات اللبنانية التابعة لسمير جعجع وميليشيات حزب الكتائب يشنون هجوماً على مواقع إيلي حبيقة.

22 كانون الثاني/ يناير 1986، وصول إيلي حبيقة إلى دمشق.

14 آذار/ مارس 1989: الجنرال ميشال عون، بصفته رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع وقائداً للجيش في آن، يشن «حرب التحرير» على القوات الأجنبية في لبنان.

22 تشرين أول/ أكتوبر 1989: النواب الاثنان والستون في البرلمان اللبناني يوافقون في الطائف، في المملكة العربية السعودية على وثيقة «التفاهم الوطني» التي اقترحتها اللجنة الثلاثية المؤلفة من كل من الجزائر، العربية السعودية والمغرب.

22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989: إغتيال رئيس الجمهورية الماروني، رنيه معوّض، المنتخب في الخامس من تشرين الأول/أكتوبر.

24 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989: البرلمان ينتخب الأستاذ الياس الهراوي، رئيساً للجمهورية. يرفض الجنرال عون الإنصياع للسلطات الجديدة، فيقيله رئيس الوزراء، الدكتور سليم الحص من مناصبه الثلاثة.

31 كانون الثاني/ يناير 1990: معارك عنيفة بين جيش الجنرال عون، وميليشيا القوات اللبنانية التابعة لسمير جعجع.

21 أيلول/ سبتمبر 1990: الرئيس الهراوي يوقع التعديلات الدستورية التي أقَرَّها المجلس النيابي في 21 آب/ أغسطس، والتي تؤسس «للجمهورية اللبنانية الثانية» (رئيس ماروني للجمهورية، رئيس مسلم سني لمجلس الوزراء ورئيس مسلم شيعي لمجلس النواب).

13 تشرين أول/ أكتوبر 1990، الجيش اللبناني والجيش السوري يشنان هجوماً على المعَتَصم المسيحي في بعبدا. يلجأ الجنرال عون إلى السفارة الفرنسية. تعطيه فرنسا حق اللجوء السياسي.

21 تشرين أول/ أكتوبر 1990: اغتيال داني شمعون، ابن رئيس الجمهورية الأسبق كميل شمعون والمسؤول عن الحركة السياسية الداعمة للجنرال عون، في عملية لقِيَ خلالها كل من زوجته وولديه حتفهم.

30 نيسان/ أبريل 1991: تسلم الميليشيات جزءاً من سلاحها.

26 آب/ اغسطس 1991، المجلس النيابي يتبنى ويُقِر عفواً عاماً عن الإرتكابات منذ العام 1975.

2 أيلول/ سبتمبر 2004؛ بمبادرة من باريس وواشنطن، يقر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة القرار رقم 1559

الداعي إلى رحيل القوات السورية عن لبنان والى نزع سلاح الميليشيات.

3 أيلول/ سبتمبر 2004: تعديل دستوري يمدد ولاية الرئيس اميل لحود (المنتخب عام 1998) بالرغم من التحذيرات الدولية. نشوء أزمة سياسية في البلاد.

20 تشرين أول/ أكتوبر 2004: استقالة رئيس الوزراء رفيق الحريري، فيخلفه الأستاذ عمر كرامي.

14 شباط/ فبراير 2005: اغتيال رفيق الحريري. توجِه المعارضة أصابع الإتهام إلى كل من النظامين اللبناني والسوري.

26 نيسان/ أبريل 2005: النهاية الرسمية للوجود السوري في لبنان.

7 أيار/ مايو 2005: عودة الجنرال عون إلى لبنان بعد 15 سنة أَمضاها في المنفى.

2 حزيران/ يونيو 2005، إغتيال الصحافي سمير قصير، أحد قادة الثورة المعارضة لسوريا.

21 حزيران/ يونيو 2005: إغتيال الأمين العام الأسبق للحزب الشيوعي اللبناني، جورج حاوي، المقَرّب من المعارضة المعادية لسوريا، في انفجار عبوة في سيارته في بيروت.

12 كانون الأول/ ديسمبر 2005، إغتيال جبران التويني، نائب ورئيس تحرير جريدة النهار.

12 تموز/ يوليو 2006: حزب الله، الميليشيا الشيعية، يَشن هجوماً داخل فلسطين المحتلة ينتهي بمقتل ثمانية جنود اسرائيليين، وخطف اثنين آخرين. «اسرائيل» ترد بهجوم واسع النطاق على لبنان.

13 تموز/ يوليو 2006؛ اسرائيل تقصف مطار بيروت الدولي، 21 جسراً، طريق بيروت ـ دمشق، بالإضافة إلى قواعد لحزب الله والجيش اللبناني.

المحتويات

الإهداء 7
مقدِّمة الطبعة العربية 9
مقدمة 19
توطئة 31
قبل الحرب 37
غزْوَة السلاح 50
السبت الأسود 59
قنابل وملاجىء ومخاوف 71
تحت الأنقاض 81
الجبل ملاذنا 88
جورج، طفولتي القتيلة 94
حرب الأخوة 104
مقاتِلة 108
«رودجر» أو «حوِّل» 111
فتاة في ثياب القتال 115
حبيسة الحرب 122
جمال، اللقاء النادر 128
إيلي، مَسْلوب الغد 138

انتصار واغتيال قائد 143
جثة في ظِل كَرْمَة 150
البحث عن قائد جديد 156
ترويج إعلامي وتقسيم جغرافي 160
جعجع، الذراع الحديدية 173
حرب القادة 180
إلغاءات 184
ثُرَيّا أو الحب المستحيل 189
اعتقالات 192
في قعر السجن 199
الجحيم 206
«قذَفْنَا بهم إلى البحر» 211
عيد ميلاد في السجن 216
. . . وبعد 224
جدول تاريخي للأحداث 237

كيف السبيل إلى الخروج من دوّامة الحقد. في الرابعة والعشرين من عمرها، وبعد أن أمْضَت سنوات سبع من الالتزام في صفوف الميليشيات المسيحية في لبنان، تكتشف ريجينا صنيفر، في سجون معسكرها الخاص، أهوال حرب الأخوة، فتتخلّى نهائياً عن العنف. وبعد مرور عشرين عاماً، تقرر سَرد تلك السنوات التي أمضتها في ساحات الوغى، كمقاتلة ملتزمة. إنها بسردها لتجربتها هذه، إنما تشهد كي لا يطوي النسيان عشرات الآلاف من شباب جيلها الذين دمّرتهم الحرب؛ كي لا يطوي النسيان الصرخة الصامتة التي أطلقتها أمهات ظَفِر الموت بهن لطول ما انتظرن عودة أبنائهن، أحياءً أو أمواتاً؛ كي لا تُعاد الكَرّة، فيُطلق عَنَان الحرب، وكي تُبْتَدَع أخيراً مسالك السلام...

هذا الكتاب وثيقة نادرة في زمن تعود فيه جَلَبَة السلام لتهدّد لبنان من جديد، فتُدميه.

ولدت ريجينا صنيفر في بيروت وهي تعيش في فرنسا منذ العام 1987. درست الإعلام والتوثيق في لبنان، ونالت في باريس دبلوماً في الجغراسيا. في العام 1994 نشرت كتابها الأول بعنوان حروب مارونية (guerres maronites) تحمل شهادة ماجستير من معهد الدروس العليا في التجارة في التسويق، وهي الآن تعمل في مجال التأهيل.

ISBN 978-9953-71-305-2